الدرس (1)

التعريف بشيخ الإسلام ابن تيمية، ونبذه عن الكتاب

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله تعالى بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، فصلوات ربه وسلامه عليه وعلى من اهتدى بهديه واستن بسنته إلى يوم الدين، ثم أما بعد:

نفتتح هذه الدورة المباركة، نستفتحها بهذا الدرس في أشرف علوم الدين، وهو علم العقيدة، التي عليها مدار سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، فإن أشرف العلوم ما تعلق به سبحانه وتعالى، ولما كان الله تعالى هو أشرف معلوم كان العلم به هو أشرف العلوم، هذه نتيجة طبيعية، وقد وقع الاختيار على هذا المتن الذي بين أيديكم وهو العقيدة الواسطية.

ونحن في البدايات والمقدمات معشر طلبة العلم نحتاج إلى إحياء قلوبنا ببعض المعاني التي تكون سببًا بإذن الله تعالى في تحمل العلم وقبوله قبولًا حسنًا، فليس كل من تعلم عمِل، بل العلم النافع هو العلم الذي يورث الخشية، العلم النافع هو العلم الموصل إلى الله عز وجل المعرِّف بدينه، وهذا يتطلب قدرًا من التأهل والتأهب والتكيف النفسي لكي يكون الإنسان محلًا قابلًا لهذا العلم، ألم تروا أن الله تعالى قال: { إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }[فاطر: 28]!؛ فالخشية هي ثمرة العلم، وإذا لم يورثك العلم خشية ففتش عن قلبك، ألم تروا أن الله تعالى أثنى على طائفة من عباده فقال: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً (107) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (108) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً} [الإسراء: 107- 109]، ما الذي استدر مدامعهم؟ ما الذي أخضع جوارحهم إلا شيء قام في قلوبهم، فليس العلم عن كثرة التحصيل وقراءة الكتب، لا ريب أن هذا سبب لحصوله، لكن قبل هذا لا بد أن تباشر بشاشة العلم قلب الإنسان فيقدر قدره ويعلم أن هذا العلم عبادة، وكل عبادة تفتقر إلى نية، **والنية نيتان:**

الأولى: نية مقربة.

الثانية: نية مجزئة.

فأما النية المجزئة: فهي التي يتكلم عنها الفقهاء ويقولون: إنها شرط في قبول أي عمل من الأعمال. فكل عبادة من العبادات لا تنعقد إلا بنية، كالصلاة والصوم والحج وغير ذلك من العبادات، فهذه هي النية المجزئة التي تفرق العادة عن العبادة.

وأما النية المقربة : فهي استصحاب هذا المعنى في القلب في تضاعيف العبادة وثناياها ومطاويها، بحيث يظل القلب موصولًا بالله مستشعرًا لتعبده لله تعالى في جميع تقلباته، وهذه هي التي ينبغي لنا معشر طلبة العلم من معلمين ومتعلمين أن نستذكرها دومًا، بحيث نعلم أننا حينما نقلب الصفحات ونتحفظ الأحاديث والمتون وننقل الخطى أننا

مستغرقون في عبادة، بل إن العلماء قالوا: الاشتغال بطلب العلم أفضل من نوافل جميع العبادات. لأن تشتغل بطلب العلم خير من أن تتنفل بحج أو عمرة، فأمر العلم عظيم، ولو قال قائل: كيف لنا أن نحقق هذه النية ونحيي قلوبنا بها دومًا؟.

نقول: لذلك أسباب، منها:

السبب الأول: أن تستشعر أنك بطلبك للعلم وسعيك في تحصيله تمتثل أمر الله وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم. لأن هذه حقيقة العبادة، فهل العبادة إلا خضوع وذل ومحبة وطاعة للمتعبد له؟ فإذا كان الإنسان في طلبه للعلم يستشعر أنه ممتثل لأمر الله .{ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ} [محمد: 19]، فقد أمرك ربك بالعلم، وكذا نبيه صلى الله عليه وسلم . فإن هذا يجعل قلبك حيًا يقظًا في تحقيق هذه النية.

السبب الثاني: أن تستشعر بذلك أنك ترفع الجهل عن نفسك. وما أنت يا عبد الله إلا جملة من الظلمات، كلما قبست نورًا من ناطق الكتاب وصحيح السنة أضاء جانب من قلبك، فالعلم نور، أخرج الله تعالى به الناس من الظلمات إلى النور.

السبب الثالث: أن تنوي بذلك رفع الجهل عن الآخرين. فإنك إذا تسلحت بالعلم واستنرت به كنت كما قال الله: {أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ } [الأنعام: 122]، أرأيت لو كان الناس في ظلمة شديدة ثم قام أحدهم وبيده مشعل وقام يمشي، صار الناس يمشون وراءه لكي يستضيئون بنوره، وكل من كان منه أقرب كان أشد استنارة واستضاءة، ومن قبس من هذه الشعلة صار أكثر حظًا، فهذا المعنى معنى ينبغي أن تقيمه في قلبك.

السبب الرابع: أن تنوي في طلبك للعلم الذب عن شريعة الله تعالى. فإن دين الله لم يزل يتناوشه المبطلون على اختلاف مللهم من يهود ونصارى ومشركين والذي لا يعلمون والملاحدة، من قديم الدهر وحديثه، قال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً } [الفرقان:31]، فلا بد لك من سلاح تذب به عن شرع الله، ولا يكفي مجرد العواطف والأماني، فحينما ينزل الإنسان إلى معترك الجهاد العلمي مع المخالفين سيجد أنه في أمسّ الحاجة إلى وجود الدليل والبرهان الذي يقمع به المبتدعين، ويقيم به الحجة على عباد الله، وهذا لا يتأتى إلا بتحصيل العلم، فإذا استصحبت هذا كان أجرك كأجر المجاهد في سبيل الله.

السبب الخامس: أن تتذكر الثواب العظيم الذي أعده الله تعالى لطالب العلم. ولعل من أعظم النصوص الدالة على هذه الرتبة العالية والثواب الجزيل قول الله تعالى: { يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ } [المجادلة:11]، فالذي يرفع هو الله سبحانه وتعالى، والموظف يتشوف حينما تكون أوراقه لدى لجنة الترقيات في جهة من الجهات أن يحصل على الرتبة القادمة، ويسعد بذلك، ويتلقى التهاني والتبريكات، فكيف إذا كانت هذه الترقية من عند الله عز وجل؟ سلم عظيم منتهاه إلى الفردوس الأعلى، فاستشعر هذا المعنى، واستشعر قول النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي الدرداء: (مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ، بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ، وَمَنْ فِي الأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ

الْمَاءِ)[1]، وفي رواية: (حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا)[2]، وأنت لو قيل لك. يا عبد الله، وأنتِ يا أمة الله: إن فلانًا من الصالحين أو فلانة من الصالحات تدعو لك في وقت السحر في آخر الليالي. لسعدت بذلك أيما سعادة، فكيف وجميع المخلوقات تدعو لك وتستغفر لك؟ هذه رتبة عظيمة، قال: (وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلاَ دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَهُ بِحَظٍّ وَافِرٍ)[3]، فالله الله، أنتم الآن في مشروع الحظ الوافر، فاصبروا واثبتوا وأملوا ما يسركم، فإن عاقبة طلب العلم إذا سار الإنسان فيه على خطى حثيثة، بإذن الله حميدة في الدنيا وفي الآخرة.

وطلب العلم له آداب وسمت حسن وهدي ودل، لكن من أعظم ما يمكن أن ننبه عليه في هذا المقام مما يتعلق **بآداب الطلب، وهو أهمها وأساسها:**

الأدب الأول: إخلاص النية لله تعالى، بأن لا ينوي بطلب العلم شيئًا من زخرف الدنيا ومتاعها الزائل، من ذكر أو صيت أو مال أو غير ذلك، وإنما ينوي القربة إلى الله، أن يقصد بذلك أن يُستمع عن الله خطابه، وأن يتعبد لله كما يحب، وهذا معنى كان ينبه عليه أبو بكر الآجري، وهو إمام مرب فاضل، وكان إمام المسجد الحرام، وله كتابان ينبغي لكل طالب علم أن يقرأهما، أحدهما: أخلاق العلما، والثاني: أخلاق حملة القرآن، فيؤكد دومًا على هذا المعنى، أنه ينبغي لطالب العلم ولقارئ القرآن أن ينوي بذلك أن يُفهم عن الله مراده، ليعبده على بصيرة وبنية، ففرق بين من أن يعبد الله على بينة ومن يعبد الله على العادة، والإخلاص هو حلال العقد، إذا رُزق الإنسان إخلاصًا تخلى وتخلص من كثير من مشكلات القلوب التي تقع أحيانًا بين الأقران في نظر بعضهم إلى بعض، والمنافسات المختلفة التي أحيانًا تتلبس بلبوس الدين وهو لا يدري، فيقع في شراكها، ومن أخلص لله تعالى وصل.

الأدب الثاني: أنه لا بد من عزيمة صادقة. لا بد من بذل جهد، فالعلم بحر طام لا ساحل له، العلم جبل أشم، فينبغي لك أن تستعين بمعبودك للوصول إلى مقصودك، فلا تكل ولا تمل ولا تفتر وعليك أن تستجد، وإذا أصابك الفتور فخذ نفسًا وعاود المسير، فهذا أمر مهم جدًا لطالب العلم، وتأملوا هذه الكلمة الموسوية، حينما: (أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنَّ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ البَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ. قَالَ: يَا رَبِّ، وَكَيْفَ بِهِ؟ ...)[4]والقصة مشهورة، لكن تأمل قول موسى صلى الله عليه وسلم: {لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً} [الكهف: 60]: أي مسافات طوال في أزمنة متمادية، فهذه عزيمة ماضية، وهمة عالية، ينبغي لطالب العلم أن يتحلى بها.

---

[1] ( ) سنن أبي داود (3641)، سنن الترمذي (2874)، سنن ابن ماجه (223)، صححه الألباني صحيح الجامع الصغير وزيادته (6297).

[2] سنن الترمذي (2877)، صححه الألباني صحيح الجامع الصغير وزيادته(4231).

[3] سنن أبي داود (3641)، سنن الترمذي (2874)، سنن ابن ماجه (223)، صححه الألباني صحيح الجامع الصغير وزيادته (6297).

[4] صحيح البخاري (122)، صحيح مسلم (2380).

الأدب الثالث: المنهجية في الطلب. بمعنى أن يبدأ الإنسان بالأسهل فالأعلى، ويترقى شيئًا فشيئًا، ويصبر، يسير على خطة، فاصبر حتى تصل إلى مقصودك، ولا تتشوف لشيء بعد لم تبلغه، ابدأ بصغار العلم قبل كباره، حتى تصل إلى ما كتب الله لك من مراتب الرقي.

وهناك مراتب كثيرة لم يزل العلماء يتكلمون عنها في آداب التحصيل، وأحيلكم أيضًا على حلية طالب العلم للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد، ففيه من الفوائد ما لا يستغني عنه طالب العلم، فهذا أمر مهم لك في مستهل الطلب.

هذا ما يتعلق بالعلم في عجالة.

وأما ما يتعلق بالمتن الذي بين أيدينا ومؤلفه، فالحديث ذو شجون عندما يتكلم الإنسان عن شيخ الإسلام ابن تيمية، فكأنما هو في روضات يتألق فيهن، وكأنما هو ينتقل من مقام كريم إلى مقام كريم، ذلك أن شيخ الإسلام كان علامة فارقة في تاريخ العقيدة الإسلامية، ودعوني أحدثكم . يا رعاكم الله . حديثًا مقتضبًا عن شيخ الإسلام وعن الواسطية، فهذا مفيد بين يدي هذه الرسالة.

اسمه: هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني.

مولده: ولد في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، نحو سنة ستمائة وواحد وستين، وعاش في دمشق، وقيل: ولد في العراق، ولما هجم التتار على أهل العراق احتمله أهله وهو صغير، المهم أن أسرته استقرت في دمشق.

حياته: كان جده المجد ابن تيمية من أساطين المذهب الحنبلي، وهو صاحب المنتقى الذي شرحه الشوكاني في نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، فكان جده من فقهاء المذهب الحنبلي، وكذا أبوه عبد الحليم كان من فقهاء الحنابلة في دمشق، وفي هذا البيت الذي هو بيت علم ودين وورع نشأ شيخ الإسلام، وآتاه الله تعالى من الذكاء البارع الذي لاحظه عليه مواطنوه وبلديوه فأدهشهم، وتوقعوا أن هذا الفتى يكون من ورائه شيء، وفعلًا جلس للفتيا والتدريس ولما يبلغ الثامنة عشرة من عمره، وجلس إليه كبار مشايخ دمشق في ذلك الزمان، وظل . رحمه الله . يدرس، ثم إنه تبين له ما آل إليه حال الأمة الإسلامية في ذلك الوقت من خروج عن السنة المحضة في أبواب الاعتقاد وأبواب الاتباع، وذلك أن الزمن الذي عاش فيه شيخ الإسلام ابن تيمية في نهاية القرن السابع ومطلع القرن الثامن كان مذهب الأشاعرة قد تسيد، وصار هو المذهب الرسمي لمختلف الولايات الإسلامية، ذلك أن بني أيوب قد تبنوا عقيدة الأشعري، وخلفهم من بعدهم المماليك، فطبقوها وألزموا الناس بها في بلاد المشرق، ظنًا منهم أنها عقيدة أهل السنة والجماعة، ولا شك أن الأشاعرة من أقرب الفرق إلى أهل السنة والجماعة، لكنهم ليسوا على السنة المحضة، وفي بلاد المغرب كان مذهب ابن تومرت قد تبنته دولة الموحدين، وألزمت الناس به بالحديد والنار، حتى طبق بلاد المغرب، فما عاد ينتسب إلى السنة المحض ومذهب السلف إلا أفراد قلائل، وأدرك هذه الحقيقة شيخ الإسلام ابن تيمية، فقام ببيان مذهب السلف وعقيدة أهل السنة والجماعة برفق وتؤدة، لكن المتربصين والذين يحافظون على التقاليد والأصول لم يدعوه، لا سيما بعد أن ألف فتواه المدوية، وهي الفتوى الحموية، فقد ألفها سنة ستمائة وثمانية وتسعين للهجرة، كتبها في قعدة بين الظهر والعصر كما قال، ولعله كتبها كتابة أولية

ثم بعد ذلك زادها بالنقول، فلما كتب الحموية وأثبت فيها أن طريقة المتكلمين من الأشاعرة وغيرهم مخالفة لما كان عليه السلف الصالح من الإثبات والإمرار والإقرار، وانتشرت هذه الفتوى في الآفاق المشرقية، أدى ذلك إلى حصول محنة عظيمة، وأوذي شيخ الإسلام بسبب هذه المحنة، وفي تلك الأثناء أيضًا ورد عليه رجل من أهل واسط، يقال له: رضي الدين الواسطي. كان قد قدم من الحج ومر بدمشق وهو في طريق عودته إلى واسط، وواسط التي تُنسب إليها هذه الرسالة بلدة ابتناها الحجاج بن يوسف الثقفي بين البصرة والكوفة، فسميت واسطًا لتوسطها بين البلدتين، فكان هذا أحد قضاة المسلمين في تلك الأنحاء، فألح على شيخ الإسلام أن يكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته، فأجابه شيخ الإسلام إلى طلبه، وغالب مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية تقع جوابًا لسؤال، وهو بنفسه قد قال هذا في مناسبات، إذ كان المتسلطون والمتسيدون من الولاة حينما يوشى بشيخ الإسلام ابن تيمية يُستدعى، وهذا ما وقع بالفعل، فإنه قد دُعي من جهة نائب السلطان في دمشق، إذ كان السلطان في ذلك الوقت في مصر، وكانت بلاد الشام تتبعها، فدُعي وعُقدت له جلسات في سنة سبعمائة وخمسة، ووجهت إليه تُهم، حتى إنه قيل له: إنك صنفت في عقيدة أحمد، أو أفرطت في ذكر عقيدة أحمد. فقال: أنا ما كتبت عقيدة أحمد بن حنبل، وليس لأحمد عقيدة يختص بها، وإنما هي عقيدة السلف، وما أحمد إلا ناقل لعقيدة من سبقه من الصحابة والتابعين. وفي هذه المناظرة لما وجهوا له شيئًا من التهم قال: أنا لا أتكلم الآن، فلو تكلمت الآن لقيل: ربما كتمت. لكن أبعث إلى المنزل فأحضر عقيدة تقرؤونها كنت قد كتبتها قبل سبع سنين. وكان هذا المجلس قد عُقد له سنة سبعمائة وخمسة، فيكون ذلك تقريبًا في الوقت الذي كتب فيه الحموية، فبعث إلى منزله فأحضر الواسطية ومعها كراريس أخر، ولما أُحضرت رأى نائب السلطان ألا يقرأها الشيخ بنفسه حتى لا يدعي أحد أنه زاد فيها ونقص، فطلب من الشيخ كمال الدين . وهو أحد تلاميذ الشيخ . أن يقرأها على الجماعة، فقرأوها وناقشوه في بعض أمورها، وحاجهم الشيخ، وتفرق الجميع على أن هذه عقيدة سلفية لا غبار عليها، وأقروا له بذلك، وعاد الشيخ إلى منزله محفوف بأصحابه بالاستبشار والفرح، وحصل له . بحمد الله . تبرئة، إذ كان قد بُرئ قبل من جانب السلطان إثر الفتوى الحموية، فقد وشى به الوشاة، حتى جاء كتاب من السلطان يقول: إنما أردنا بذلك أن نبرأ ساحة الشيخ.

وهذا من نعمة الله تعالى، كما قال القائل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار في ما جاورت ما كان يُعرف طيب عرف العود

وشيخ الإسلام ما زال الوشاة يتربصون به، حتى كتبوا وشاية قوية إلى السلطان الناصر قلاوون في مصر وأنه كذا وأنه كذا، فطلب السلطان أن يُحمل إليه مخفورًا، وحاول نائب السلطان . وكان محبًا للشيخ . أن يعفيه من ذلك، فقال الشيخ: لعل في ذهابي خيرًا. وفضل أن يذهب بنفسه، وبالفعل توجه إلى بلاد مصر ولقي السلطان، فلما استمع إليه السلطان اندهش من علمه وسعة أفقه وعقله، فقال: قد حكمتك في هؤلاء . يعني الذين سعوا فيه من القضاة وبعض مشايخ الطرق، يعني إن شئت فاحكم بسجنهم، فجعل يسكّن السلطان عليهم، وقال: يا أيها السلطان: هؤلاء قضاة

مملكتك وفقهاء الملة ولا غنى لك عنهم. وأخذ يسكّنه عليهم، وهكذا أخلاق العلماء، لم يتحين الفرصة للتشفي والإيقاع، لأن مقصده الله، فما زال يسكّنه حتى سكن، ثم إنه أقام بمصر، وصار الناس يأتون إليه زرافات ووحدانًا، ويبين منهج السلف، وفي تلك الأثناء ورد عليه سؤال من بلاد المغرب من مرّاكش، يسأله عن عقيدة السلف، فكتب القاعدة المرَّاكشية، فكان للقاعدة المراكشية من الأثر في بلاد المغرب ما للفتوى الحموية في بلاد المشرق، وهذا من نعمة الله، فأدى هذا إلى انتشار عقيدة السلف في بلاد المغرب، وهكذا الأمة جناحان: المشرق والمغرب، حتى إن الشيخ . رحمه الله .كان يرسل الرسائل لأمه، ويسميها: الوالدة السعيدة، ويعتذر عن عدم القدوم إليهم بأنه يقوم ببيان الدين وتوفيق أواصره ويفعل ويفعل، وأنه ما حمله على البقاء وعدم العودة إليهم إلا هذا، وفعلًا نفع الله به نفعًا عظيمًا في بلاد مصر، وتعرض في مقامه بمصر أيضًا لأذى، حتى إنه ضُرب مرة. رحمه الله.

وهكذا كانت حياته حافلة بالعلم والعمل والجهاد في سبيل الله، فخاض معارك ضد التتر في وقعة شقحب، وقام مع السلطان بقتال النصيرية في جبال، واستنزلوهم، وقتل بعضهم، واستتيب بعضهم، فتاب بعضهم، وبعضهم قتل، وفرقوهم في الأمصار، وهكذا كانت له اليد الطولى في كل باب من أبواب الفضل والعلم، فكان علامة فارقة، حتى قال صديق حسن خان القنوجي في خبيئة الأكوان: حتى صار الناس بعد ابن تيمية إما تيمي وإما غير تيمي. وذلك أنه أوضح حقيقة مذهب السلف، ونقل النقول الصريحة من كلام السلف المتقدمين من طبقة الإمام أحمد والشافعي ومالك ومن قبلهم ومن بعدهم بألفاظها ليبين ما كان عليه السلف، وأن ما آل إليه المتكلمون من هذه المتون التي يسمونها: علم الكلام، أن هذا مجاف لما كان عليه السلف من الاعتماد على القرآن والحديث، فأعاد الروح للعقيدة الإسلامية بعد أن استحالت إلى جثث هامدة من الألفاظ العسرة التي أشبه ما تكون بصخور تحتاج من ينحتها، ثم لا تورث الناس إلا مزيدًا من الشكوك، فعلم الكلام ما زال الناس يذمونه ويذمون من أخذ به، حتى قال الإمام أحمد: لا يفلح صاحب كلام أبدًا[1]. وقال الشافعي: حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويُقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام[2].

الواسطية: هذه رسالة كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية في قعدة بعد العصر، موضوعها مجمل اعتقاد السلف، تناول الشيخ فيها أبواب الاعتقاد بشكل عام، فتكلم عن صفات الله تعالى وما ينبغي له، وأطال وأطنب، وتكلم عن اليوم الآخر، وتكلم عن مسألة الإيمان، وعن مسألة القدر، وعن مسألة الصحابة، وعن طريقة أهل السنة والجماعة في الأخلاق والسلوك ومكملات الإيمان، فكانت بديعة في بابها، لأنها تجمع بين العلم والعمل وتمر على معظم أبواب الاعتقاد، فلذلك حظيت بقبول وانتشار، واعتنى بها العلماء قديمًا وحديثًا.

ومما تمتاز به هذه الرسالة:

[1] جامع بيان العلم وفضله (941/2) ط / ابن الجوزي.

[2] المصدر السابق.

1- كونها في مجمل اعتقاد السلف.

2- غناؤها وثراؤها بالأدلة القرآنية والنبوية، فلو قارنت بينها وبين متن من متون المتكلمين لوجدت الفرق الهائل، فالسلف إذا صنفوا يقدمون كلام الله على كلامهم، ولا يذكرون مسألة إلا بدليلها، وإذا قرأت في كتب المتكلمين فكأنما تسير في صحراء جرداء، لا تجد فيها نسمة من كلام الله أو كلام نبيه تُنعش القلب، وإنما هي جلاميد حروف، وعبارات مغلقة، ومعان عسرة، أما طريقة السلف .كما ستلاحظون . فهي أدلة قرآنية متتابعة، وأحاديث نبوية، يعني كأنما ترى الحق بعيني رأسك كفاحًا.

3- تضمنت دلائل عقلية، ففي بعض مواضعها يذكر الشيخ أدلة عقلية في بيان بعض حقائق الإيمان، ولا افتراق بين العقل والنقل، فإن القرآن العظيم الذي هو أعظم ما في الاعتقاد دلل على الأصول العظيمة بلفظه وبالحجج والأساليب العقلية، وهل الأمثال . وما أكثرها في القرآن . إلا أقيسة عقلية؟ فلا يظنن ظان أن هؤلاء المتكلمين أسعد بالعقل منا، لا، نحن أسعد بالعقل والنقل منهم، والعقل الذي ادعوه إنما هو عقل معوج، ليس عقلًا على القسطاس المستقيم، فالنقل يصوب العقل ويضبط مساره، ويضبط آلته، ومن حُرم النقل ضل وتخبط، فالعقل. يا كرام . آلة بمنزلة العين والسمع، فأنت الآن لو قُدر أنك دخلت هذا المسجد وهو مظلم، تملك عينين، لكن ربما تسير ولا تشعر إلا وقد اصطدمت بعمود، أو عثرت بدولاب أو كرسي، مع أنك تملك عينين، لكن حينما تقع يدك على لوحة المفاتيح وتضيء ينكشف لك المكان فتسير وتنتفع بعينيك.

وكذلك العقل مع النقل، فالنقل نور من الله سبحانه وتعالى، يضيء للعقل، فيستنير العقل ويصبح آلة مفيدة لا عطب فيها ولا خطل، فلهذا يجمع أهل السنة بين العقل والنقل.

4- بيان حال أهل السنة والجماعة في أبواب الأخلاق والأعمال، وهذا أمر مهم، لأن ثمرة الاعتقاد أن تظهر في الأخلاق والسلوك، فلا بد من العناية بالآثار المسلكية للمسائل العقدية، وأي مسألة عقدية تتعلمها ثق تمامًا أن لها أثرًا في الواقع، أثرًا في سلوكك، وإلا فما الفائدة، لا بد أن يكون لها أثر إما قلبي وإما مسلكي.

اهتمام العلماء بالواسطية: وقد عُني العلماء بهذه الرسالة، فممن ألف في هذه الرسالة، ولعله من الناحية التاريخية، وهو محمدة لهذه البلدة عنيزة، أن من أوائل من شرحها الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، فله كتاب اسمه: التنبيهات اللطيفة على العقيدة الواسطية، ومن هذه البلدة أيضًا الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع، فله تعليقات على الواسطية، وأيضًا الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان، له كتاب اسمه: الكواشف الجليلة عن معاني الواسطية، وله كتاب آخر اسمه: الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية، وممن اعتنى بها الشيخ زيد بن فياض، في كتاب له اسمه: الروضة الندية، ومن أحسن شروحها: التنبيهات السنية للشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد . رحم الله الجميع .، وممن اعتنى بها شيخنا محمد بن صالح العثيمين، فله شرح العقيدة الواسطية، وهو شرح حافل، وهناك شروحات معاصرة، كشرح الشيخ ابن جبرين، وشرح الشيخ عبد الله الغنيمان، وشرح الشيخ عبد الرحمن البراك، لا يكاد يوجد أحد من أهل العلم إلا

وشرحها واعتنى بها في هذا الزمن الأخير، وصارت الشروح منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو صوتي، فهذا من الخير الذي يدخره الله لكاتب الأسطر، يكتب الإنسان أحيانًا شيئًا ولا يظن أن يبلغ ما بلغ، فيجعل الله تعالى فيه خيرًا كثيرًا.

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بهذه الرسالة كما نفعنا من قبل ذلك.

سبب تسميتها بالواسطية: وكما أسلفت فإن تسميتها بالواسطية نسبة إلى بلدة واسط التي ينتمي إليها رضي الدين الواسطي، صاحب السؤال لشيخ الإسلام، الذي طلب أن تُكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته.

وقال بعضهم: هي نسبة إلى الوسطية. أي كون أهل السنة والجماعة وسطًا بين فريقين، فإن الشيخ ـ رحمه الله ـ في ثنايا الرسالة قال: وأهل السنة والجماعة وسط بين كذا وكذا، ووسط بين كذا وكذا، لكن هذا لا يصح، لأنه لو كان هذا هو المقصود لكان اسمه: العقيدة الوسطية، لكن اسمها بإجماع: العقيدة الواسطية، وشيخ الإسلام نفسه سماها بهذا الاسم، فقال في وصفه لمجلس المناظرة الذي عُقد له: فأُحضرت الواسطية. وفي بعض النسخ يكون مكتوبًا عليها: العقيدة الواسطية عقيدة الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، لأن الشيخ ذكر هذا في مقدمتها.

الدرس (2)

شرح خطبة الكتاب

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: بسم الله الرحمن الرحيم.**

الحمد لله الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ، وأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليمًا مَزِيدًا، أما بعد:

الحمد لله رب العالمين، هذه خطبة الكتاب، وقد جرت عادة المصنفين أن يستهلوا مكتوباتهم بالبسملة والحمدلة، فأما البداءة بالبسملة فاقتداء بالكتاب العزيز، فإن الله سبحانه وتعالى جعل مفتتح السور بالبسملة، وهل البسملة آية من كل سورة، أم أنها آية مستقلة تُفتتح بها السورة؟ الثاني، الصحيح أنها آية مستقلة تُفتتح بها السور، لكنها بعض آية من سورة النمل، لقوله تعالى: { إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } [النمل: 30]، فجميع سور القرآن مفتتحة بالبسملة إلا سورة واحدة هي سورة براءة، ولم لم تُثبت البسملة في سورة براءة؟ قال بعض الناس: إن سورة براءة نزلت بالعدالة، وفيها آية السيف، والبسملة فيها ذكر الرحمة، فلا يتناسب هذا مع هذا. ولكن هذا اجتهاد في غير محله، فهناك سور من القرآن تضمنت مثل هذا، كسورة محمد: { فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ } [محمد: 4]، ومع ذلك فهي مفتتحة بالبسملة، وإنما كان سبب عدم إثبات البسملة في سورة براءة أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لما كتبوا المصحف شكوا: هل سورة براءة تتمة لسورة الأنفال؟ أم لا؟ إذ أنهم رأوا أن سورة الأنفال بين السبع الطوال قصيرة مقارنة بما سبق، فصار عندهم تردد: أهي سورة مستقلة، أم لا؟ فاكتفوا بوضع خط بين السورتين، ولم يثبتوا البسملة.

فالابتداء بالبسملة في المكاتيب وفي الخطب لأمور:

الأمر الأول: اقتداء بكتاب الله العزيز.

الأمر الثاني: اقتداء بهدي المرسلين. وقد قال الله تعالى: { أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ } [الأنعام: 90]، فقد كان سليمان صلى الله عليه وسلم وهو من أنبياء بني إسرائيل الكبار يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، { إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} [النمل: 30، 31]، وكذا نبينا صلى الله عليه وسلم وارث الأنبياء كان يصدر مكاتبيه ببسم الله الرحمن الرحيم، فحينما أراد أن يكتب صلح الحديبية أملى على علي: بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل بن عمرو ممثل قريش: (أما الرحمن، فو الله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنت تكتب). فكان النبي صلى الله عليه وسلم مياسرًا، فقال: (اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ)[1]. ولما كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأرض كتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم... [2]؛ فينبغي لمن كتب كتابًا أن يبدأ بالبسملة.

وأما ما روي من الأحاديث من البداءة بالبسملة كحديث: [كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر]، أو [أجزم]، أو [أقطع]، وبعضها [لا يُبدأ فيه بحمد الله]، وهو أصح من لفظ البسملة، فكلها ضعيفة، لا يعضد بعضها بعضًا، ولا تقوم بها حجة، لكن يقال: الحمد لله، كتاب الله وهدي رسول الله كاف في الأخذ بهذه السنة، وعليه المسلمين إلى يومنا هذا.

(**بسم الله الرحمن الرحيم**) (**بسم**): جار ومجرور، فالباء حرف جر، واسم مجرور، وكل جار ومجرور لا بد له من متعلق، وهذا المتعلق فعل محذوف مقدر، وينبغي أن يُقدر بما يناسب المقام، فإذا كان الإنسان يريد أن يأكل فقال: بسم الله. فينبغي أن يكون التقدير: بسم الله آكل، وإذا أراد أن يشرب يكون التقدير: بسم الله أشرب، وإذا أراد أن يدخل بيته يكون التقدير: بسم الله أدخل، وهكذا، وفي هذا المقام ينبغي أن يكون التقدير: بسم الله أكتب، أو بسم الله أصنف، وبالنسبة للقارئ: بسم الله أقرأ.

(**الله**): علم على ذاته سبحانه، وهو أعرف المعارف، وإليه مرجع الأسماء الحسنى، حتى إن الله سبحانه وتعالى يُحيل جميع الأسماء الحسنى إليه، اقرأوا إن شئتم آخر سورة الحشر: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الحشر: 22- 24]، ولهذا قال من قال من العلماء: الله هو الاسم الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى. لأن الله يدل على جميع صفات الكمال، إذ أصل كلمة: الله إله، فخُففت فصارت الله، والإله هو المألوه، فهو فِعَال ويراد به مفعول، وهذا كثير في اللغة، كقولنا: كتاب. والمقصود مكتوب، فراش، والمقصود مفروش، غراس، والمقصود مغروس، فالمراد به مفعول لا فاعل، كما ادعى هذا بعض

[1] صحيح البخاري (2731)، صحيح مسلم (1784).

[2] صحيح البخاري (2941)، صحيح مسلم (1773).

المتكلمين، وإله بمعنى مألوه أي معبود، وهو الذي تألهه القلوب محبة وتعظيمًا، فهو مشتق من أَلَه يألَه أُلُوهة، فهي معنى الوله والانجذاب والتعلق بذلك المألوه، وإنما تتعلق القلوب بمن يستحق ذلك، وهو المعبود سبحانه دون ما سواه.

وقيل غير ذلك.

(**الرحمن الرحيم**): أردف قوله: بسم الله. بذكر اسمين كريمين لطيفين رقيقين من أسماء الله الحسنى، الرحمن الرحيم، وكلا هذين الاسمين دال على اتصاف الله تعالى بصفة الرحمة، لكن ما الفرق بين الرحمن والرحيم؟ **الفرق من وجهين:**

الوجه الأول: أن الرحمن يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا ذاتيًا، والرحيم يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا فعليًا. بمعنى أن الله سبحانه وتعالى من صفاته الذاتية اللازمة له سبحانه التي لا تنفك عنه، الرحمة، فهو لا يزال ولم يزل رحمانًا، وأما الرحيم فإنه يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا فعليًا بمعنى أنه يوصلها إلى المرحومين، فالرحمن يدل على الرحمة الواسعة، والرحيم يدل على الرحمة الواصلة، ورحمة الله واسعة، قال تعالى: { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً } [غافر: 7].

الوجه الثاني: أن الرحمن يدل على الرحمة العامة التي تشمل كل شيء، والرحيم يدل على الرحمة الخاصة التي تكون للمؤمنين. بدليل قوله تعالى: {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً} [الأحزاب: 43].

(**الحمد لله**): الحمد فعل يُنبئ عن تعظيم المحمود، وهو في حقيقته وصف له بصفات الكمال ونعوت الجلال.

والفرق بين الحمد والمدح: أن كلًا منهما يدل على ذكر صفات حميدة، لكن الحمد مقرون بتعظيم ومحبة، والمدح لا يلزم منه ذلك، فقد تمدح شخصًا لا تحبه، تصف شخصًا من الكفار بالشجاعة والقوة والكرم والإقدام، وأنت لا تحبه، فلا يكون ذلك حمدًا، وإذا كان مقرونًا بتعظيم وإجلال فهو حمد، وبهذا يكون الحمد أعم من هذا الوجه.

(**الحمد لله**): كأنما تقول: أصف الله تعالى بصفات الكمال ونعوت الجلال. ولهذا ينبغي أن نتفطن لاقتران هذه الأذكار الكريمة بعضها ببعض، سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، **فمعنى التسبيح التنزيه، أي أنزه الله تعالى عن ثلاثة أشياء:**

الشيء الأول: النقائص.

الشيء الثاني: العيوب.

الشيء الثالث: مماثلة المخلوقين.

وهل يكفي هذا؟ هذا حصل به التنزيه، لكن لا يتم الأمر إلا بالحمد، وهو أن يتلو ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال لله عز وجل، فهذه حقيقة الحمد، ثم بعد ذلك يقول العبد: والله أكبر. لكي يبين أن اتصاف الله عز وجل بصفات الكمال ونعوت الجلال على وجه لا يدانيه أحد، ولا يشاركه فيه أحد، فيقع التوحيد التام في أسماء الله وصفاته، فهل نحن نستحضر هذه المعاني ونحن نقول في أدبار الصلوات: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر. ينبغي أن تمر هذا على قلبك، تعتقد تنزيه الله أولًا، ثم إثبات صفات الكمال له ثانيًا، ثم إفراده بها على وجه لا يماثله فيه أحد.

(**الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**) (**الرسول**): هو محمد صلى الله عليه وسلم، فليس اسم جنس، بل اسم عين على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فإنه قد قال في كتابه: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ } [التوبة: 33، الفتح: 28، الصف: 9]، فمضمون الرسالة المحمدية هذان العنصران: الهدى ودين الحق، والهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح، وهذا الدين كله، لأن الدين إما أمر علمي قلبي، وإما أمر عملي ظاهري، فمن تأمل في شريعة الإسلام وجد أنها مكونة من شرائع عملية، وهي الإسلام، ومن اعتقادات باطنية التي هي الإيمان، فالله تعالى قد بعث نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بالأمرين معًا: الاعتقادات الباطنة، والشرائع الظاهرة، فهذا هو معنى قوله: { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ} [التوبة: 33، الفتح: 28، الصف: 9].

(**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا**) وهذا اقتباس من قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً} [الفتح: 28].

(**ليظهره**) أي يعليه، وما نوع هذا العلو والظهور، أهو ظهور بالحجة والبرهان، أم بالسيف والسنان،أم بهما معًا؟ الواقع أن هذا الظهور حصل باجتماع الأمرين، وحصل بأحدهما:

فأما ظهور هذا الدين على سائر الأديان بالحجة والبرهان فهذا لا يتخلف أبدًا، فمن قارن دين الإسلام بالأديان المحرفة . ناهيك عن الأديان الوثنية والأفكار الفلسفية . وجد البون الشاسع، فرق عظيم، {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً } [النساء: 82]، فدين الإسلام له دومًا العلو والحجة والبيان، وكل من أراد أن يهزم الإسلام أو ينال من كتابه أو من نبيه باء بالخسران؛ ولهذا صمد الإسلام هذه القرون المتطاولة على كثرة أعدائه وترصدهم له، ومع ذلك فقد بقي الإسلام شامخًا عزيزًا بالحجة والبرهان، لا يستطيع أحد من خصومه أن ينتقد عليه شيء، وإن أجلبوا، لكنهم يرجعون على أدبارهم خاسئين، { ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ } [الملك: 4]، فكما أن هذا في السماء المبنية، كذلك في الشرائع المنزلة.

وأما الظهور بالسيف والسنان فقد وقع . بحمد الله . فيما مضى من القرون، فإن نبينا صلى الله عليه وسلم قال: (إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا)[1]، وجرى في المائة السنة الأولى من تاريخ الإسلام أن طبق الإسلام الأرض المعمورة، وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم مطلع السنة الحادية عشرة من الهجرة، وقال مرة في آخر عمره وقد خرج إلى أصحابه : (لَا تَأْتِي مِائَةُ سَنَةٍ، وَعَلَى الْأَرْضِ نَفْسٌ مَنْفُوسَةٌ الْيَوْمَ)[2]، ومراده أن أهل هذا القرن يفنون، وذلك القرن هم خير القرون، هم قرن الصحابة رضوان الله عليهم، ولذلك ما مضت مائة سنة إلا وقد بلغ الإسلام أطراف الصين، وبلغ المحيط الأطلسي من جهة الغرب، وصعد المسلمون إلى الأندلس التي هي الآن بلاد الأسبان والبرتغال، وتخطوا جبال البرانس، ودخلوا بلاد الغال التي تسمى الآن: فرنسا،

[1] صحيح مسلم (2889).

[2] صحيح مسلم (2539)

ومكثوا فيها نحو سبعين سنة، حتى وقعت معركة بلاط الشهداء، ويعرفها الغرب معرفة جيدة، باسم (Battle of Tours)، وهذه المعركة هي التي أوقفت المد الإسلامي في بلاد أوربا، وإلا كانت خطة المسلمين أن يجتاحوا أوروبا من شمال البحر الأبيض المتوسط حتى يلتقوا في القسطنطينية، فاتحون من جهة هضبة الأناضول، وفاتحون من جهة أوروبا، لكن وقعت هذه المعركة التي كان يقودها عبد الرحمن الغافقي، واستشهد فيها، وكانت سنة مائة وثلاثة عشر للهجرة، فأنحسر الإسلام عن بلاد أوروبا، ثم إن الله تعالى أمد في الإسلام في عهد العثمانيين حتى اكتسحوا أوروبا الشرقية بأكملها، ومضى أيضًا في الجنوب حتى عم الإسلام شمال أفريقيا، ولم يزل . بحمد الله . الإسلام يمتد إلى يومنا هذا، لا يوجد دين على وجه الأرض ينخرط الناس فيه ويعتنقونه كما الإسلام، وهي حقيقة مذهلة ومدوية، لكن تتواطأ الآلة الإعلامية الغربية على إخفائها وعدم إظهارها، مع أنهم يعتنون بقضايا دون ذلك بكثير، ويبرزونها، وأي ظاهرة مهما كانت تافهة يتحدثون عنها، لكنهم يخشون من إبراز هذه الظاهرة الملفتة، خشية أن تتنامى بشكل أكبر، وإلا فالذين يعتنقون الإسلام يوميًا في أركان الأرض في أوروبا وأمريكا وأفريقيا كثير، مع قلة الدعم والموارد، لكنه دين الله الموافق للفطرة، فتحقق بذلك موعود الله { لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [التوبة: 33، الفتح: 28، الصف: 9].

(**وَأَشْهَدُ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**): بعد أن حمد الله تعالى ثنى بالشهادتين، ومعنى (**أشهد**): أي أقر وأعترف وأجزم، كما لو كنت مشاهدًا لذلك بعيني رأسي، والشهادة الأولى أعظم شهادة لأعظم مشهود له، { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ} [آل عمران: 18]، ولا إله إلا الله كلمة التوحيد، أول الإسلام وأوسطه وآخره، فلا يُحكم بإسلام امرئ حتى يلفظ بالشهادتين، وهي بوابة الإسلام، لا بد أن يتلفظ بلا إله إلا الله، (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ)[1]، فهي أول الإسلام وهي آخر الإسلام أيضًا، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ)[2].

وإله بمعنى معبود، فمعناها لا معبود بحق إلا الله، وما الذي أحوجنا أن نقدر بحق؟ لأن الله أخبرنا أن ثم آلهة مدعاة، {أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا} [الأنبياء: 43]، {وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً} [الفرقان: 3]، وهذا النفي ليس منصبًا على الوجود، وإنما منصب على الصحة والأحقية، فإذا قلت: لا إله إلا الله. أي لا إله بحق إلا الله، لا معبود بحق إلا الله، فهو شعار الإسلام، بل هو دين الله للأولين والآخرين، وهذا لا يختص بدين الإسلام، فهو دين الله منذ أرسل الله رسله وأنزل كتبه، ما من نبي بعثه الله إلا ليبادر قومه بهذه الجملة: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} قالها نوح صلى الله عليه وسلم وهود وصالح وشعيب كما رتبهم الله في سورة الأعراف، وكذلك في سورة هود، وكذلك في سورة المؤمنون، جميعهم يقول: {يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [الأعراف: 59، 65،73،85] [هود: 50،61،84] ، [المؤمنون: 23،32]. وقال الله على سبيل الإجمال: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا

[1] صحيح البخاري (1399)، صحيح مسلم (20).

[2] سنن أبي داود (3116)، صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (6479).

فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 25]، فيجب أن تعتصم بهذه الكلمة، فإنها المنجاة في الدنيا والآخرة، ومن لم يأت بها فلا حظ له ولا نصيب.

و(**لا إله**): نفي، و (**إلا الله**): إثبات، وهذا أبلغ ما يكون في التوحيد والإفراد، لأنه إذا جاء الإثبات بعد النفي أفاد الحصر، فلو قلت لكم: زيد قائم. أفادنا قيام زيد، لكن هل ينفي وجود قائم مع زيد؟ لا، فربما قال قائل: أيضًا محمد قائم، وإبراهيم قائم، وعمرو قائم. لكن حينما أقول لكم: لا قائم إلا زيد. فقط زيد هو القائم ومن سواه جلوس، فكذلك لا إله إلا الله، فدل ذلك على كمال الإفراد، ولما ذكر الله التوحيد بغير هذه الصيغة أتى بما يثبت الإفراد، فقال تعالى في سورة البقرة: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } [البقرة: 163]، حتى لا يقول قائل: هناك إله آخر وثالث ورابع.

(**وَحْدَهُ**): تأكيد للنفي، أم تأكيد للإثبات؟ تأكيد للإثبات.

(**لا شَرِيكَ لَهُ**): تأكيد للنفي.

ولهذا كانت التلبية لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، وسماها جابر بن عبد الله: التوحيد، قال: (فأهلَّ بالتوحيد، لبيك اللهم لبيك...)[1]

(**إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا**): أي أني أتيت بهذه الشهادة مقرًا له سبحانه بذلك، موحدًا له دون ما سواه.

(**وَأَشْهَدُ**): أي أُقر وأعترف وأجزم، اعترافًا وإقرارًا لا شك ولا تردد فيه.

(**أَنَّ مُحَمَّدًا**): علم على نبينا صلى الله عليه وسلم، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي.

(**عَبْدُهُ**): في وصفه بالعبودية رد على أهل الغلو.

(**وَرَسُولُهُ**): في وصفه بالرسالة رد على أهل الجفاء.

وهكذا الحق دومًا وسط بين طرفين، وعدل بين عوجين، فنحن نصف نبينا صلى الله عليه وسلم بما وصفه به ربه، {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ } [الإسراء: 1]، فوصفه بالعبودية ثناء لله، وأي ثناء، فإن الله تعالى إنما وصفه بالعبودية في أشرف المقامات، في أشرف ليلة مرت به وهي ليلة الإسراء والمعراج، ووصفه بالعبودية في أشرف أحواله، وهو حال تنزل القرآن واتصال كلام الله تعالى به، { تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ } [الفرقان: 1]، ووصفه بالعبودية في أشرف وظيفة يقوم بها بشر، وهي الدعوة إلى الله عز وجل، {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً} [الجن: 19]، فالوصف بالعبودية شرف وأي شرف:

ومما زادني شرفًا وتيهًا وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك: يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيًا

[1] صحيح مسلم (1218).

فالوصف بالعبودية وصف كريم، ومَن ادَّعى الخروج عن العبودية فهو كافر زنديق، فمَن ادَّعى أنه في حل من الأوامر والنواهي وأنه بلغ درجة سقطت عنه التكاليف، فقد تزندق، وهذا يصدر من زنادقة الصوفية، فيزعم أحدهم أنه خرج عن الحالة الشرعية إلى الحالة الكونية، ويقول:

أصبحت منفعلًا لما تختاره مني ففعلي كله طاعات

ويرخي لنفسه الزمام، ويطأ المحارم بدعوى أنه بلغ درجة اليقين، { وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر: 99]، هكذا تتلاعب بهم الشياطين.

فالمقصود: أن أكمل العبوديات هي العبودية التي وصف الله بها محمدًا صلى الله عليه وسلم، ثم عبوديات من دونه بحسبها، أما الوصف بالرسالة فهو لا شك وصف شرفي للنبي صلى الله عليه وسلم، حيث اصطفاه الله تعالى لكي يكون مهبط وحيه، ومحضن كلامه، { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ } [الحج: 75]، ولما قال بعض المشركين: {لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ } [الزخرف: 31]، فرد الله عليهم: { أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ } [الزخرف: 32]، فالله هو الرزاق وهو الوهاب، {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: 124]، فاصطفاء الله لنبيه بالرسالة مبني على علم وحكمة.

فوصفنا إياه بالعبودية رد على أهل الغلو الذي يطرون النبي صلى الله عليه وسلم إطراء لا ينبغي إلا لله، وهذا يقع من المداحين في الموالد وغيرها، يتجارى بهم الفتنة والمديح والغلو كما يتجارى الكَلَب بصاحبه، حتى إنهم يخلعون على النبي صلى الله عليه وسلم أوصافًا لا تنبغي إلا لله، ومن القصائد المشهورة في هذا قصيدة البوصيري التي يقول فيها:

يا أكرم الخلق: ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن يوم معادي آخذًا بيدي عفوًا وإلا فقل: يا زلة القدم

فمن الذي يعفو، ومن الذي يُلاذ به؟ الله، ثم يقول:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا غلو فاحش، فماذا أبقى لله إذا كان يجعل هذا كله بعض ما للنبي صلى الله عليه وسلم، فهو قد استخدم من التي للتبعيض؛ فهذا من الغلو الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل عليه نفر من الأعراب وقالوا: أنت سيدنا وابن سيدنا وأعظمنا طولًا وأفضل... قال: (قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلاَ يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ)[1].

وفي وصفنا إياه بالرسالة رد على أهل الجفاء الذين لا يعطون النبي صلى الله عليه وسلم حقه من الإكرام والإجلال والتوقير، { لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ } [الفتح: 9]، فيجب نصرة النبي صلى الله عليه وسلم ظاهرًا وباطنًا، وتوقيره لفظًا ومعنى.

[1] سنن أبي داود (4806)، صححه الألباني صحيح الجامع (3700).

(**وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ**): لذا قيل: آله أتباعه على دينه إلى يوم القيامة. لأن الآل مشتقة من الأَوْل، وهو الرجوع، فكل من انتمى إلى النبي صلى الله عليه وسلم واتبعه فهو من آله، وذهب بعض الشراح إلى أن الآل إذا قُرنت بالأصحاب فإن الآل تنصب على المؤمنين من أهل بيته [1]، وهم البطون الخمسة: آل عقيل، وآل علي، وآل جعفر، وآل الحارث بن عبد المطلب، وآل العباس، الذين لا تحل لهم الصدقة، فالمؤمنون من هذه البطون هم آل النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا قُرن الآل بالأصحاب انصرف الآل إلى المؤمنين من أهل بيته، والأصحاب إلى صحابته، ومن الصاحب؟ هو من لقي النبي صلى الله عليه وسلم في حياته مؤمنًا به ومات على ذلك[2]، وهذا خير من قول بعضهم: من رأى. لأنه ربما كان أعمى.

وقيدها بعض العلماء بقوله: في حياته. لأنه ربما ادَّعى أحد . وقد وقع. أنه رآه في المنام ثم ادَّعى الصحبة، كما وقع هذا من بعضهم، وأيضًا لكي يخرج بذلك من رآه بعد موته، وهذا ليس له إلا مثال واحد، رجل هاجر إلى المدينة في اليوم الذي مات فيه النبي صلى الله عليه وسلم، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم بعين رأسه وهو مسجى قد توفي، فلا يُعد صحابيًا، لأنه لم يلق النبي صلى الله عليه وسلم في حياته.

مؤمنًا به: فلو أنه لقي النبي صلى الله عليه وسلم حال كفره لم يثبت له وصف الصحبة، حتى لو أسلم بعد ذلك، وهذا ينطبق على كثيرين لقوا النبي صلى الله عليه وسلم في الموسم حينما كان يعرض نفسه على القبائل وفي مكة ولم يؤمنوا به، ثم آمنوا بعد أن أظهر الله الإسلام، ولم يلقوا النبي صلى الله عليه وسلم حال إيمانهم.

ومات على ذلك: فلو لقيه مؤمنًا به ثم ارتد زال عنه وصف الصحبة، لأن الردة تبطل جميع العمل، لكن ماذا لو أنه لقيه مؤمنًا وارتد ثم عاد إلى الإسلام أيعود له وصف الصحبة؟ **القول الصحيح**: أنه إذا رجع إلى الإسلام رجع له وصف الصحبة، وهذا يمكن أن ينطبق على كثيرين ممن وقعت منهم ردة وحاربهم الصديق ثم فاءوا إلى الإسلام، ومنهم طليحة بن خويلد الأسدي الذي كانت له صحبة، ثم ارتد وادّعى النبوة، ثم منّ الله عليه ورجع إلى الإسلام.

(**وَسَلَّمَ تسليمًا مَزِيدًا**): التسليم دعاء بالسلام، أو تحية، فحينما تقول: السلام. فأنت تقصد الدعاء بالسلامة للنبي صلى الله عليه وسلم، أو تقصد التحية، أو كلاهما، ولا مانع من اجتماعهما، وقد يقول قائل: أما الدعاء له بالسلامة في حياته فهذا أمر بيِّن، حتى يدفع الله عنه السوء ويعصمه من الناس، لكن بعد موته كيف ندعو له بالسلامة؟. الجواب: أن هذا دعاء له بالسلامة في دينه، وقد يقال: المقصود بهذا سلامة جسده الشريف، وهذا قليل، فإنه قد وقع في غضون التاريخ أن قومًا من الزنادقة أرادوا سرقة الجثمان، وسعوا في ذلك، وذلك إبان حكم عماد الدين زنكي، حتى تمكن من الإيقاع بهم في قصة مشهورة.

والله أعلم.

الدرس(3)

[1] انظر: التمهيد لابن عبد البر(306/17)، جلاء الأفهام لابن القيم (277) دار ابن الجوزي.

[2] الإصابة في تميز الصحابة (353/1).

أركان الإيمان

📖قال المؤلف –رحمه الله–: أَمَّا بَعْدُ؛ فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: وَهُوَ الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خِيْرِهِ وَشَرِّهِ.

قال: أَمَّا بَعْدُ: هذه كلمة يؤتى بها عند إرادة الدخول في صلب الموضوع، ومعناها مهما يكن من شيء، ففيها نوع من الإقبال عما هو بصدده، وبعض الشراح يقول: هي كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر. وهذا غير دقيق، لأنه لو كان كذلك فمقتضى ذلك أننا كلما أردنا أن ننتقل من فكرة إلى فكرة نقول: أما بعد. والصحيح أنه يؤتى بها للدخول في صلب الموضوع، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعملها في خطبه، فيحمد الله ويثني عليه ثم يقول: أما بعد.

ففعلها من باب السنة، سواء في الخطب أم في المكاتب، والفصاحة تقتضي أن يكون ما بعد أما بعد حرف الفاء الرابطة.

قال: فَهَذَا: المشار إليه ما سطره بنانه في هذه الصفحات، أو ما ينوي كتابته فيما يأتي.

قال: اعْتِقَادُ: مأخوذ من العقد، والعقد هو الشد والحزم والجزم، تقول: عقدت الحبل. أي شددته وربطته، فسميت المعارف اليقينية والمعاني القلبية المؤكدة: عقائد، لأنها تفيد معنى الربط والحزم، وهكذا في أمور العقائد، لا بد من الحزم والجزم، ولا يصلح فيها التردد، فكلمة اعتقاد تدل على الأمور المقطوع بها المجزوم بها.

قال: الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: وصف الشيخ أهل الحق بأربعة أوصاف:

الوصف الأول: الفرقة الناجية. وهي ناجية من البدع والضلال في الدنيا، ومن النار في الآخرة، فإنهم قد نجاهم الله تعالى من البدع والضلالات في الدنيا، وذلك أنهم اعتصموا بالكتاب والسنة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: [افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة]، قالوا: من هي يا رسول الله؟. قال: [هم من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي]، ولما نجوا في الدنيا من البدع والضلالات أعقبهم ذلك نجاة في الآخرة من النار، ولهذا سميت: الفرقة الناجية.

الوصف الثاني: المنصورة. هذا الوصف أتى به الشيخ من الحديث الصحيح في الصحيحين: (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ)[1]، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم ببقاء طائفة من الأمة منصورة، [ظاهرين]، والظهور معناه النصرة، والظهور إما بالحجة والبيان، أو بالسيف والسنان، أو بهما معًا، فهذه ـ ولله الحمد ـ لم تخل منها الأرض من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا، لكن هذه الفرقة الناجية المنصورة تقوى وتضعف، وتزيد وتنقص، وتكثر وتقل، بما يبتلي الله عز وجل به عباده، { وَلَكِن

[1] صحيح مسلم (1920).

لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ} [محمد: 4]، فأحيانًا تنتشر أعلام السنة وينتشر العلم ويتبين الحق، وأحيانًا العكس، يفشو الجهل وتكثر البدع، ويصبح أهل السنة في الناس قليل.

قال: إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أي إلى قرب قيامها، لأنه صلى الله عليه وسلم قال (لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ، اللهُ)[1]، فينقطع ذكر الله من الأرض، فلا يبقى إلا شرار الخلق ينزو بعضهم على بعض كما تنزو الحمر، فعليهم تقوم الساعة؛ فهي إلى قرب قيام الساعة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن الله تعالى يبعث في آخر الزمان ريحًا مسها ألين من مس الحرير، وريحها أطيب من ريح المسك، فتدخل خياشيم كل مؤمن فتستل روحه، فحينئذٍ لا يبقى على وجه الأرض مؤمن، فهؤلاء يستنقذهم الله تعالى من بين البشرية الذين تقوم عليهم الساعة.

الوصف الثالث: أهل السنة. السنة: لغة: الطريقة، من سن سنة، أي من رسم دربًا وطريقًا، وليس المراد بالسنة هنا ما عند المحدثين أو الفقهاء، لأن لفظ السنة له استعمالات متعددة، فالسنة عند الفقهاء: ما يثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه، فهي تأتي ضمن الأحكام التكليفية الخمسة: الوجوب، والتحريم، والاستحباب، والكراهة، والإباحة، لكنها ليست هي المرادة هاهنا، كما أنها ليست هي المرادة عند المحدثين، التي بمعنى ما أُثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلقية أو خُلقية.

وإنما المراد بالسنة هنا الطريقة التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم في أمور الدين كلها الاعتقادية والعملية، ولهذا درج المصنفون الأوائل من أهل السنة والجماعة أن يسموا مصنفاتهم: كتاب السنة، كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد، "**كتاب السنة**" للأثرم... وكثير جدًا عند المتقدمين التعبير بالسنة، ويقصدون بالسنة الاعتقاد.

الوصف الرابع: الجماعة. فهم أهل الحق، وهم الجماعة، وهم السواد الأعظم، وغيرهم أهل التفرق، ذلك أن الله تبارك وتعالى قد أمر عباده بالاجتماع والائتلاف، ونهاهم عن التفرق والاختلاف، فقال سبحانه: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } [الشورى: 13]، فإقامة الدين تكون بالاجتماع عليه، فهذه هي الجماعة، أن نجتمع على الحق ونتناصر على الحق، ومن ذلك أن نجتمع على إمام واحد، وأن تكون كلمتنا واحدة، وأن نقاتل تحت راية واحدة، وأن نصلي جماعة واحدة، وأن يكون لنا بيعة لإمام واحد، كل هذا يحصل به الاجتماع، وقد قال الله عز وجل: { وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ } [آل عمران: 103]، ومن شذ عن الجماعة شذ في النار، فدومًا على مدار التاريخ أهل السنة والجماعة هم العمود الفقري للمسلمين، وهم أهل الاجتماع والائتلاف، وغيرهم أهل التفرق والاختلاف.

ودائمًا أهل السنة أوصافهم معنوية موضوعية، وأما أهل البدع فإنهم يُنسبون إما إلى مقالاتهم، وإما إلى قائليها، كما يقال: القدرية. نسبة إلى إنكارهم القدر، والجبرية نسبة إلى قولهم بالجبر، وكل هذا نسبة إلى بدعة، والخوارج نسبة إلى خروجهم، والواصلية نسبة إلى واصل بن عطاء، والجاحظية نسبة إلى الجاحظ، أما أهل الحق فيُنبسون إلى الأوصاف

[1] صحيح مسلم (148).

الحميدة التي زينهم الله تعالى بها، ولو تعددت، فإن تعددها لا يعني أنهم فرق مختلفة، فهم أهل السنة، وهم أهل الحديث، وهم الطائفة الناجية، وهم الفرقة المنصورة، فهذه أسماء لمسمى واحد.

وما هو هذا المشار إليه على سبيل الإجمال؟

قال: وَهُوَ الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خِيْرِهِ وَشَرِّهِ : لله دره! هذه بركة لزوم نصوص الوحيين، عندما أراد أن يبين العقيدة بيّنها كما بيّنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما بينها الله في كتابه، لا كما درج عليه المتكلمون، فلو رأيتم كتب العقائد لدى المتكلمين لوجدتم أنها في واد وكلام الله في واد، لكن نبينا صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل لما ابتعث الله تعالى أكرم رسول ملكي، إلى أكرم رسول بشري، جبريل إلى محمد، سأله عن الإيمان، (قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . أو قال: والبعث بعد الموت . وتؤمن بالقدر خيره وشره)[1] ، هذه أركان الإيمان، أهي ستة، أم خمسة؟ اختلف العلماء:

. فمنهم من يقول: أركان الإيمان ستة، نظرًا للمعدودات.

. وبعضهم يقول: بل هي خمسة. كما يعبر شارح الطحاوية، يقول: الأصول الخمسة. فأين ذهب الإيمان بالقدر؟ الإيمان بالقدر هو جزء من الإيمان بالله، لأن الإيمان بالقدر في الواقع هو إيمان بعلم الله وكتابته ومشيئته وخلقه، وهذا يرجع إلى الإيمان بالله، لكن لما كان الغلط فيه كثيرًا، والشبهات فيه واقعة، خصه النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر، وفصّل بعد إجمال، فقال: [وتؤمن بالقدر خيره وشره]، من باب التأكيد عليه.

وهذه الأصول سواء قلنا: خمسة، أم ستة. خلاف لفظي، ولا يصح إيمان امرئ إلا بها، فلهذا كانت أصولًا يجب أن يعقد عليها القلب، وتفاصيلها موجودة في كتب العقائد، والشيخ في هذه الرسالة قد ركز على موضوع الإيمان بالله، ومر مرورًا سريعًا على ما يتعلق بالملائكة والكتب والرسل، وأفاض في ذكر الإيمان باليوم الآخر، لأنه قرين الإيمان بالله، فكثيرًا ما يذكر الله الإيمان به، ثم يثني بالإيمان باليوم الآخر، {لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ } [البقرة: 177]، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ} [الأحزاب: 21]، {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ } [المائدة: 69].

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَهُوَ الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خِيْرِهِ وَشَرِّهِ.

قال: وَهُوَ: مرجع الضمير إلى الاعتقاد حينما قال: وهذا اعتقاد الفرقة الناجية.

قال: الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خِيْرِهِ وَشَرِّهِ: انتزع الشيخ هذه الجمل من حديث جبريل حينما ابتعث الله أفضل رسول ملكي، لأفضل رسول بشري، فسأله عن الإيمان، فأجاب

[1] صحيح مسلم (8).

النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجواب المنظم البين الجلي، قال: [أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره]، هذه أصول الإيمان، فإذا أراد الإنسان أن يعرف الإيمان فلن يجد تعريفًا خيرًا من تعريف النبي صلى الله عليه وسلم، واعلموا ـ يا رعاكم الله ـ أنه إذا جاء مبحث الإيمان عند أهل السنة والجماعة فإما أن يُراد به المؤمَن به، أو يُراد به حقيقته، والمؤمَن به هو أركان الإيمان، كما وقع في جواب النبي صلى الله عليه وسلم، وهي الأصول الستة، وإن شئت فقل: الخمسة. على اعتبار أن القدر داخل في الإيمان بالله.

وإما أن يُراد بالإيمان حقيقته من أنه قول وعمل، وزيادته ونقصانه، وما يعارضه من الكفر وأنواعه.

والمقصود هاهنا ذكر المؤمَن به وهي أركانه، ونشير إليها بإجمال:

الركن الأول: الإيمان بالله، وهو أعظمها وأجلها، **ولا يتم الإيمان بالله إلا بالإيمان بأربعة أمور**:

الأمر الأول: الإيمان بوجوده سبحانه.

الأمر الثاني: الإيمان بربوبيته.

الأمر الثالث: الإيمان بألوهيته.

الأمر الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

فلا يتم الإيمان بالله إلا بتحقيق هذه الأربعة، فيؤمن الإنسان بوجود الله وأن وجوده هو الوجود الحق، حتى المتكلمون يقولون: واجب الوجود؛ لأن وجوده لا يفتقر إلى وجود غيره، ومن سواه يعبرون عنه بقولهم: ممكن الوجود، أو الوجود الممكن. لأن وجود غيره مفتقر إلى وجوده، فلا بد من الإيمان بوجود الله تعالى، وقد تضافرت الأدلة من العقل والشرع والحس والفطرة على وجود الله، ولا نسترسل في بسطها.

والإيمان بربوبيته: هو اعتقاده الخالق المالك المدبر، فعلى هذه الثلاثة تدور معاني الربوبية، وبعضهم يفسر توحيد الربوبية بأنه توحيد الله بأفعاله كالخلق والملك والرِّزق والتدبير وما إليه.

والإيمان بألوهيته: هو اعتقاد أنه المستحق للعبادة وحده دون ما سواه، فلا يحل صرف أي نوع من أنواع العبادة لغيره سبحانه.

والإيمان بأسمائه وصفاته وهو ما أفاض فيه المؤلف بعد هذه الجمل.

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة، ولا يتم إلا بتحقيق أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بوجودهم. وأن وجودهم حق، فليسوا كما يزعم بعض الزاعمين أنهم قوى معنوية، أو أنهم قوى الخير المبثوثة في الكون، لا، بل الملائكة خلق حقيقي وعالم غيبي خلقهم الله من نور.

الأمر الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم بالاسم، ومن لم نعلم اسمه فإننا نؤمن به إجمالًا. فنعلم من أسمائهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ومنكر ونكير وهاروت وماروت ومالك، ومن لم نعلم اسمه . وهم الأكثر ـ فإننا نؤمن بهم إجمالًا.

الأمر الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم . فقد وصفهم الله تعالى بجملة من الأوصاف، {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ} [فاطر: 1]، وقال نبينا صلى الله عليه وسلم: [أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِئَةِ عَامٍ][1]، فما علمنا من صفاتهم آمنا بها دون تكييف، وما لا فإننا نكله إلى الله.

الأمر الرابع: الإيمان بما علمنا من أعمالهم ووظائفهم. وللملائكة الرحمن وظيفة عامة مشتركة وهي عبادة الله وتسبيحه، {بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (26) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ} [الأنبياء: 26، 27]، {وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (165) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ} [الصافات: 165، 166]، {وَمَنْ عِندَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (19) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ} [الأنبياء: 19، 20]، {يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ} [فصلت: 38].

الركن الثالث: الإيمان بالكتب، ولا يتم أيضًا إلا بتحقيق أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بأنها من عند الله حقًا. فليست كلام ملك ولا كلام رسول، بل هي كلام الله حقًا.

الأمر الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه، ومن لم نعلم اسمه فإنا نؤمن به إجمالًا. فنعلم من كتب الله: التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، ويمكن أن نضيف صحف إبراهيم، فنعلم أن الله تعالى أمد أنبياءه بكتب لتبقى حجة على الناس، فنؤمن بها، وما لا نعلمه منها فإنا نؤمن به إجمالًا.

الأمر الثالث: تصديق ما صح من أخبارهم. فما ثبت من أخبار الكتب السابقة فإننا نقبله ونصدق به، والواقع أننا لا نستطيع القطع بصحة ما في الكتب السابقة إلا أن نجد لها شاهدًا في كتابنا أو من كلام نبينا صلى الله عليه وسلم، ذلك أن ربنا عز وجل أخبرنا بأن من قبلنا {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ} [النساء: 46، المائدة: 13]، و{يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} [المائدة: 41]، وأنهم {يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً} [البقرة: 79]، فلما كان الأمر كذلك وصارت محل الريبة والظنة ما كان لنا أن نصدق شيئًا من أخبارها إلا بآثارة من علم ودليل ساطع، **فلهذا قسم العلماء المأثور من كتب أهل الكتاب قبلنا . ويسمونها: الإسرائيليات . إلى ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: ما شهد كتابنا بصحته. فإنا نؤمن به، كذكر خلق آدم، وذكر الطوفان، وقصة موسى ويوسف، وآيات عيسى ابن مريم من إبراء الأبرص والأكمه وإحياء الموتى، فهذا نؤمن به لشهادة كتابنا به.

القسم الثاني: ما شهد كتابنا ببطلانه. وهو ما أدخلوه في كتب الله عز وجل من الباطل، كزعمهم أن لوطًا صلى الله عليه وسلم شرب الخمر وزنى بابنتيه، وهذا موجود في أسفارهم، وزعمهم أن سليمان صلى الله عليه وسلم عبد الأصنام بعل وعشتروت وغير ذلك مما ادعوه عليه، وغير ذلك مما قالوه في كتبهم، تجرأوا فيه على الله تعالى وعلى أنبيائه.

القسم الثالث: ما لا نجد في كتابنا ما يشهد بصحته، ولا يشهد ببطلانه. فهذا النوع لا نصدقه ولا نكذبه، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: {آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ

[1] سنن أبي داود (7724)، صححه الألباني السلسة الصحيحة (151).

إِلَيْكُمُ} الآيَةَ)[1]، ولكن هذا النوع تجوز روايته لمن كان مدركًا وعارفًا بالمعاني، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: [وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج]، وإنما قلت ذلك لأن بعض من يروي الإسرائيليات لا يتبين له الباطل فيها، فكان لا بد أن يكون من يحدث بهذا على علم بالأمر، وقد قال معاوية . رضي الله عنه . عن كعب الأحبار: وإنا لنبلوا عليه الكذب. وما أراد . رضي الله عنه . تكذيبه أو أنه يتعمد الكذب، وإنما قصد أننا نجد في مروياته ما يكون كذبًا.

الأمر الرابع: العمل بما أُنزل إلينا منها. وهو القرآن العظيم، فلا بد من العمل به، فإن الله تعالى ذكر التوراة ثم الإنجيل ثم القرآن، قال: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ} [المائدة: 48]: أي حاكمًا ومؤتمنًا وقاضيًا وشاهدًا وناسخًا، {فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ} [المائدة: 48]، فيجب العمل بما أُنزل إلينا من الكتب وهو القرآن العظيم، ولا يجوز العمل بما سبق إلا أن يقره شرعنا، فإن أقره شرعنا فشرع من قبلنا شرع لنا إذا أقره شرعنا، بدليل أن الله تعالى قال: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ} [المائدة: 45]: {فِيهَا}: أي في التوراة، أقر الله سبحانه وتعالى هذا، ثم زاد: {فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ}[المائدة: 45]، هذا هو الأصل في هذا الأمر، وإلا فإن القرآن ناسخ لما قبله، وقد جاء عن عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب، أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم فغضب وقال (أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي)[2].

الركن الرابع: الإيمان بالرسل، ولا يتم أيضًا إلا بتحقيق أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بأن رسالتهم من عند الله حقًا. بمعنى أن الله اصطفاهم واختارهم عن علم وحكمة، {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: 124]، {وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ} [الزخرف: 31، 32]، {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ} [الحج: 75]، فالنبوة لا تُنال بالكسب، ولا تُنال بالرياضة، ولا تُنال بالمجاهدة كما زعمه بعض زنادقة الصوفية، كما أنها أيضًا لا تُنال بالقوى العقلية، كما ادعى ذلك ابن سينا والفلاسفة، حيث زعموا أن للنبوة شرائط: القوة القدسية، والقوة الحدسية، والقوة التخييلية.. إلخ مما ادعوه، وقالوا: من توفرت فيه هذه الخصائص صار نبيًا، وكل هذا من الباطل؛ فهي اصطفاء من الله.

الأمر الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم، ومن لم نعلم اسمه فإنا نؤمن به إجمالًا. أما في القرآن العظيم فقد ورد ذكر خمسة وعشرين رسولًا نبيًا، كل من سماهم الله تعالى فهم أنبياء ورسل، وعدتهم خمسة وعشرون نبيًا رسولًا، وفي السنة ما قد يضيف إلى هذا واحدًا أو اثنين، فهذا أقصى علمنا بأسمائهم، وإلا فإن رسل الله كثر، {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ

[1] صحيح البخاري (7362).

[2] السمند (15156) ضعف إسناده شعيب الأرنؤوط.

رَّسُولاً} [النحل: 36]، {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} [غافر: 78]، فيكفي الإيمان المجمل بما لم يسم الله تعالى، فنؤمن به إجمالًا.

الأمر الثالث: تصديق ما صح من أخبارهم. كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ، إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ)[1]، ومن أخبارهم ما قص الله تعالى علينا في كتابه، كما قص علينا قصة موسى وفرعون وسائر أنبيائه، وما حدَّث به نبيه صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة مما كان في الأنبياء السابقين.

الأمر الرابع: العمل بشريعة من أُرسل إلينا منهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم. فيجب علينا أن نعمل بشريعته ولا نلتفت إلى ما سواه.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر، ويتطلب أيضًا أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بما يكون في القبر. والذي يكون في القبر أمران: فتنة القبر، وعذاب القبر أو نعيمه، وسيأتي الكلام عليهما، وقد أفرد الشيخ لهما حيزًا كبيرًا.

الأمر الثاني: الإيمان بالبعث. وهو إخراج الناس من قبورهم أحياء يوم القيامة،[حفاة عراة غرلًا]: حفاة غير منتعلين، عراة غير مكتسين، غرلًا غير مختونين، وفي رواية: [بُهمًا]: أي ليس معهم شيء.

الأمر الثالث: الإيمان بالحساب. وسيأتي ذكر التفريق بين محاسبة الكفار ومحاسبة المؤمنين، وذكر نوعي حساب المؤمنين، وأنه إما عرض وإما مناقشة.

الأمر الرابع: الإيمان بالجزاء. وهو الجنة أو النار، فالجنة هي الدار التي أعدها الله كرامة لأوليائه المتقين، والنار هي الدار التي أعدها الله مكانًا لأعدائه الكافرين.

الركن السادس: الإيمان بالقدر، ولا يتم إلا بتحقيق أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء.

الأمر الثاني: الإيمان بكتابة الله للمقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

الأمر الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

الأمر الرابع: الإيمان بخلق الله لجميع الأشياء. ذواتها وصفاتها وحركاتها، فالله الخالق وما سواه مخلوق.

وبهذا البيان . يا رعاكم الله . ينتظم مفردات أركان الإيمان الستة، وينبغي لطالب العلم أن يُحسن تصوره وتقسيمه ليتمكن من بيانه لعموم الناس، فإن الناس في أمس الحاجة إلى إدراك هذه التفاصيل.

ومبحث القدر أولاه الشيخ في هذه الرسالة عناية خاصة، فأكثر ما ركز عليه الشيخ في العقيدة الواسطية الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر، وأما الإيمان بالكتب والرسل والملائكة فجرت إشارة عابرة إليه.

والله أعلم.

[1] صحيح البخاري (3483).

الدرس (4)

الأيمان بصفات الله

قال المؤلف –رحمه الله–: وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ.

بعد أن ذكر الشيخ التأطير العام لمجمل العقيدة الإسلامية دخل في شيء من الخصوص.

قال: وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ: من هنا للتبعيض، فقد أسلفنا أن الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، فاختار منها الشيخ ما مست الحاجة إليه في سؤال السائل، وما كان سادًّا في زمنهم من اللغط في هذا الأمر المهم، وهو ما يتعلق بأسمائه وصفاته، فذكر قاعدة أهل السنة والجماعة في هذا الباب.

قال: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ: اعلموا ـ يا رعاكم الله ـ أن الناس تفرقوا في هذا الباب الشريف فرقًا شتى، فقوم زعموا أن الله سبحانه وبحمده لا اسم له ولا صفة، وهؤلاء هم غلاة المعطلة من الجهمية، فقالوا: إن الله تعالى لا اسم له ولا صفة، وأن الوجود المطلق بشرط الإطلاق. فلا يُثبتون فيما يتعلق بالله إلا أنه وجود مطلق، أي وجود لا يتقيد بصفة، فيزعم هؤلاء أنه ليس بسميع ولا بصير ولا عليم ولا قدير، وليس له سمع ولا بصر ولا علم ولا قدرة، هؤلاء هم غلاة المعطلة، وهم الجهمية، والجهمية قد كفرهم أهل السنة بشناعة مقالتهم، حتى قال ابن القيم:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

يعني خمسمائة عالم أُثر عنهم تكفير الجهمية، وذلك أن مقالتهم تعني في الواقع إنكار وجود الله، لأنه لا يُتصور وجود موجود ليس له وصف، وناطق الكتاب وصحيح السنة في إثبات الأسماء والصفات، فلا مسوغ لمقالتهم أبدًا، فلذلك استحقوا التكفير.

ودون هؤلاء قوم من المعطلة وهم المعتزلة، فإن المعتزلة أرادوا تلطيف شناعة مقالة الجهمية، فقالوا: نعم، نثبت له الأسماء دون ما دلت عليه من الصفات. فيقولون: نعم، هو سميع لكن بلا سمع، وبصير بلا بصر، وعليم بلا علم، وقدير بلا قدرة. بمعنى أنهم أثبتوا أسماء فرغوها من الصفات، فحقيقة الأمر أن لا فرق بين مذهب المعتزلة ومذهب الجهمية، لأن الجميع يعتقد أنه ليس لله تعالى صفة ثبوتية، حتى إنهم إذا جوبهوا بصراحة الأدلة وقيل لهم: ها هو الله تعالى قد سمى نفسه سميعًا وقال: {قَدْ سَمِعَ} [المجادلة: 1]، وقال: {وَاللَّهُ يَسْمَعُ} [المجادلة: 1]، {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ} [البقرة: 181، 244، الأنفال: 17، الحج: 75، لقمان: 28، الحجرات: 1، المجادلة: 1]، كما في صدر سورة المجادلة: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: 1]، قالوا: المقصود بالسمع انتفاء الصمم، والمقصود بالعلم انتفاء الجهل، والمقصود بالقدرة انتفاء العجز. بمعنى أنهم يفسرون الصفات الثبوتية بالسلبية، بأن أضدادها مسلوبة عن الله، وكل ذلك فرارًا من إثبات الصفة، وكل هذا من تلاعب الشياطين ومن شؤم تلقيهم الفلسفة

اليونانية وغيرها، التي أفسدت مداركهم وطرائقهم في التفكير، بخلاف السلف فإنهم اعتصموا بالكتاب والسنة ولزموا دلالتهم، وعصمهم الله، فأثبتوا ما أثبت لنفسه.

وهذا في جانب التعطيل.

وعلى النقيض من هؤلاء تمامًا قوم غلوا في الإثبات، وهم أهل التمثيل والتكييف ، فلما سمعوا الله تعالى يسمي نفسه بأسماء ويصف نفسه بأوصاف قالوا:لا نعهد هذا إلا في الموجودات فيعتقدونها في الله بحسب ما عهدوها في الموجودات فيقول قائلهم:

سمع كسمعنا، وبصر كبصرنا، ووجه كوجوهنا، ويد كأيدينا. تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

أرأيتم كيف افترقوا؟ قوم غلوا في التنزيه حتى وقعوا في التعطيل، وقوم غلوا في الإثبات حتى وقعوا في التمثيل، وهدى الله تعالى أهل السنة والجماعة لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، فسلكوا مسلكًا وسطًا بين طرفين، وعدلًا بين عوجين، فأثبتوا إثباتًا بلا تمثيل، ونزهوا الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل، فقالوا: نؤمن بما وصف الله به نفسه...

قال: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ: لله درهم! هذه بركة اعتصامهم بالكتاب والسنة، قالوا: الله سبحانه وتعالى غيب، ولا سبيل لنا أن نقول شيئًا إلا ببرهان من الله، ولا يمكن أن نعلم ما ينبغي لربنا وما يُنزه عنه إلا بخبر صادق عنه، ذلك أن العقول تقطع أن أي شيء من الأشياء لا يمكن معرفة صفته إلا بإحدى ثلاث طرائق: الأول: رؤيته، الثاني: رؤية مثيله، الثالث: خبر صادق عنه.

فأنت لو قيل لك مثلًا: إنه قد ظهر جهاز معين، حاسب أو موديل سيارة معينة. فلا يمكنك أن تخبر عن هذا الشيء أو عن هذه السلعة، إلا بأحد هذه الثلاث طرق: إما أن تكون رأيت هذه السلعة بنفسك فوصفتها، أو رأيت نظيرًا لها مثلًا في كتالوج أو غير ذلك فوصفتها بناء على رؤية نظيرها، أو جاءك إنسان حاذق يعي ما يقول ويعني ما يقول فحدثك فنقلت عنه، هذه هي الطرق الممكنة، فلله المثل الأعلى: لا يمكن أن نُخبر عن ربنا عز وجل إلا بالطريق الثالثة، لأننا لم نر ربنا، ولا نبينا صلى الله عليه وسلم رآه، فكيف بنا، فبالتالي لا يمكن أن نصف ربنا بناء على رؤية، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: هل رأيت ربك؟. قال : (نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ) ، أو قال: (رَأَيْتُ نُورًا) [1]، وذلك أنه رأى الحُجُب، قال: (حِجَابُهُ النُّورُ – وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ – لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ) [2].

[1] صحيح مسلم (178).

[2] صحيح مسلم (179).

فالقول الصحيح: أنه ولا النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربه، ولهذا لما سئلت عائشة. رضي الله عنها . هل رأى محمد ربه؟ قالت للسائل: لقد تكلمت بشيء قف له شعري، قلت: رويدا ثم قرأت {لقد رأى من آيات ربه الكبرى}، قالت أين يذهب بك؟

إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمدا رأى ربه، أو كتم شيئا مما أمر به، أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى {إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث} فقد أعظم الفرية، ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في جياد له ست مئة جناح قد سد الأفق[1].

والثاني: أشد امتناعًا، لأنه لا نظير له سبحانه حتى يُقاس عليه، {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ} [النحل: 74]، {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً} [البقرة: 22]، {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ} [الإخلاص: 4].

فلم يبق إلا الطريق الثالث وهو الخبر الصادق، فقد أخبرنا الله تعالى عن نفسه في كتابه بأسمائه وصفاته، في مواضع عدة، وأخبرنا عنه نبيه صلى الله عليه وسلم في سنته الصحيحة، فكان متعينًا أن نلزم هذا الطريق، ولا نُثبت لله بمجرد العقل، بل نُثبت بما دل عليه النص الصحيح، فكانت طريقة أهل السنة والجماعة الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في سنته.

قال: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم: هذه طريقة أهل السنة، واحترز الشيخ من أربعة أمور، فالأول والثاني محذوران في جانب التنزيه، والثالث والرابع محذوران في جانب الإثبات.

قال: مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ: التحريف: لغة: التغيير، يقال: حرف الكلام. يعني غيّره عن مواضعه، تقول أنت مثلًا: كانت السيارة تسير في طريق ثم انحرفت. يعني تغير مسارها.

اصطلاحًا: تغيير النص لفظًا أو معنى.

فتبين بهذا أن التحريف نوعان:

النوع الأول: تحريف لفظي.

النوع الثاني: تحريف معنوي.

وقد ذكر العلماء للتحريف اللفظي ثلاثة أمثلة:

المثال الأول: زيادة حرف. كمن قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]: أي استولى. فقد زاد حرفًا.

المثال الثاني: زيادة كلمة. كمن قال في قوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً} [الفجر: 22] ، قالوا: وجاء أمر ربك، فزادوا كلمة.

[1] سنن الترمذي (3552).

المثال الثالث: تغيير الشكل. وأنتم تعرفون أن اللغة العربية تنضبط معانيها بالشكل والإعراب الذي يكون على أواخرها، فمثلوا لذلك بقول الله تعالى: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً} [النساء: 164]، فجاء منكرو صفة الكلام فغيروا الضمة، وحرفوها إلى فتحة، فقالوا: وكلم اللهَ موسى. وصنعوا ذلك ليجعلوا الله تعالى مُكلَّمًا لا متكلِّمًا، وإلا فإن الآية: (وَكَلَّمَ): فعل ماض مبني على الفتح، (اللَّهُ): لفظ الجلالة فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، (مُوسَى): مفعول به، (تَكْلِيماً): مفعول مطلق مؤكد للفعل.

وهم قالوا: وكلم اللهَ موسى. ليجعلوا الله مفعولًا به مقدمًا، وموسى فاعلًا مؤخرًا، وهذا تحريف بتغيير الشكل، وقد حاول بعضهم أن يستنطق أحد القراء المشهورين وهو أبو عمرو بن العلاء . رحمه الله .، فقال: أريدك أن تقرأ بهذه الآية على هذا النحو: وكلم اللهَ موسى تكليمًا. فتفطن لمراده، فقال: فما تصنع يا ابن اللخناء بقول الله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143]؟. هل يستطيع أن يعبث بها أو أن ينسب الكلام إلى غير الله؟ لا يمكنه ذلك، {وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143]، فالأمر جد صريح.

أما التحريف المعنوي فباب واسع لا حد له، وهو أن يقروا اللفظ على ما هو عليه، لكن يقولون: ليس المراد به كذا، والمراد به كذا وكذا. فيقولون: نعم، لله صفة هي الوجه، لكن المقصود بالوجه الثواب، لله صفة هي اليد، لكن المقصود باليد النعمة أو القدرة، ولله صفة المجيء، لكن المقصود بها مجيء أمره أو ملائكته أو رحمته أو نحو ذلك، والتحريف المعنوي أكثر ما وقع فيه المحرفون، لأن القرآن العظيم مصون لا يمكنهم أن يحرفوه لأنه منقول بالتواتر، فأكثر ما وقع التحريف في التحريف المعنوي.

واعلموا . يا رعاكم الله . أن أهل التحريف لا يسمون عملهم تحريفًا، وإنما يسمونه تأويلًا، تلطيفًا له، فيقولون: تأويل الوجه الثواب، وتأويل اليد النعمة، وتأويل كذا كذا. والواقع أن هذا تحريف لا تأويل، لأن كلمة تأويل في أصل وضعها في اللغة لا تدل على مرادهم، فأرادوا أن يلطفوا هذا، ويجب أن نسمي الأمور بأسمائها، وهذا مما وفق له شيخ الإسلام ابن تيمية أن سمى التأويل الذي عليه المتكلمون تحريفًا، وسمى التفويض الذي يدعيه المفوضة تجهيلًا، وهذا يدل على قوة العارضة والبيان والثقة بالحق الذي هو عليه.

قال: وَلاَ تَعْطِيلٍ: التعطيل: لغة: الخلو والفراغ، قال تعالى: {وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ} [الحج: 45]: أي خالية من الماء، وتقول العرب: امرأة معطال. إذا لم يكن عليها حلي، يعني أنها اكتفت بزينتها عن لبس الحلي، ونحن نقول: عُطلة صيفية. لخلوها من الدراسة أو نحو ذلك، ويقول الشاعر مخاطبًا محبوبته:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

أي لا تستغربي أنه ليس في يدي مال وجِدة، لأن الرجل الكريم إذا وقع شيء في يديه فرقه يمنة ويسرة، كما إذا نزل ماء السماء على رؤوس الجبال سح منها، عطل الكريم: أي خلوه من الغنى.

اصطلاحًا: جحد أو نفي أو إنكار أسماء الله تعالى كلها أو بعضها.

وتبين من خلال ما قررنا أن **التعطيل ينقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: تعطيل كلي. وهو ما عليه الجهمية والمعتزلة، فإنهم قد عطلوا الله تعالى من صفاته، والفرق بينهم فرق شكلي، فالجهمية أكثر صراحة؛ فقد قالوا: ليس له اسم ولا صفة. والمعتزلة قالوا: له الأسماء، لكن لا تتضمن أوصافًا. وهذا من الحذلقة، لأن العرب لا تسمي عليمًا إلا من كان ذا علم، ولا تسمي بصيرًا إلا من كان ذا بصر، ولا تسمي سميعًا إلا من كان ذا سمع، فكيف تقولون: سميع بلا سمع، عليم بلا علم، حكيم بلا حكمة.

القسم الثاني: تعطيل جزئي. وهؤلاء قوم يقال لهم: الصفاتية. وسموا بذلك لأنهم في الأصل يعتقدون ثبوت الصفات لله عز وجل، كما يعتقد أهل السنة ثبوت الصفات لله عز وجل، لكن أشكلت عليهم بعض شبهات المعتزلة والجهمية، فلم يتمكنوا من حلها، فأتوا بمذهب ملفق بين مذهب المعتزلة والجهمية ومذهب السنة المحضة، فصاروا يثبتون لله صفات المعاني، ويحرفون الصفات الفعلية والخبرية، وأوضح مثال على هذا الأشاعرة والماتُريدية، ومن قبلهم الكُلّابية، ويعدون من فرق الصفاتية أتباع أبي العباس القلانسي، وأتباع الحارث بن أسد المحاسبي، فهؤلاء يقال لهم: الصفاتية. إذ الأصل فيهم الإثبات، وهذه حسنة عظيمة أنهم اعتقدوا أن الله تعالى مستحق لثبوت صفات الكمال والجلال، لكنهم تشوشوا من شبهات المعتزلة فيما يتعلق بالصفات الفعلية، لأن المعتزلة أثاروا شبهًا فيما يتعلق بمجيء الله ونزوله واستوائه، فلم يتمكنوا من ردها، وكذلك في صفات الله الخبرية: كالوجه واليدين والعينين، فلم يتمكنوا من حل إشكالات المعتزلة، ولم يفقهوا طريقة السلف، ولم يُدركوا حقيقتها، فلأجل ذلك صاروا كالشاة العائرة بين القطيعين، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فمثل هؤلاء نسميهم: أصحاب التعطيل الجزئي.

أما أهل السنة فمذهب مطرد، يصدق بعضه بعضًا، لا يقولون في موضع ما ينقضه في موضع، بل هم ماشون موافقون لدلالة الكتاب والسنة، وهم أسعد الناس بقول الله تعالى: {مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى} [طه: 2]، فكما لم يشق نبيهم صلى الله عليه وسلم بالقرآن لم يشقوا به، بل فرحوا به واطمأنوا إليه واعتقدوا معناه ودلالته، هكذا المؤمنون دومًا، ألم تروا أن الله تعالى أثنى على طائفة من أهل الكتاب آمنوا فقال الله تعالى:{وَلَقَدْ وَصَّلْنَا [1] لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (51) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (52) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} [القصص: 51- 54]: لله درهم، فهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن مع كتاب الله، أن يكون أعظم مفروح به، وأن يعتقد أنه حق على حقيقته، وأنه دال بذاته على الحق، ألم يقل الله تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [الأنعام: 19]، فالقرآن بذاته كاف في النذارة، لا يحتاج إلى مساعدات خارجية كما يدعي هؤلاء المتكلمون، يقولون: لا بد من معرفة تأويل الآيات وكذا. ويأخذون يعبثون بها ويتجنون على النصوص، فأسعد الناس بالقرآن هم أهل السنة والجماعة، وأما من سواهم من المتكلمين من المعطلة والممثلة فقد شقوا بالقرآن، صاروا يحملونه على غير مراد الله تعالى

[1] لاحظ، حلقات متواصلة.

ومراد نبيه صلى الله عليه وسلم، ويتكلفون في ذلك أشد التكاليف، فلا بد من الاحتراز من التحريف والتعطيل، وهذا في جانب التنزيه، لأن هؤلاء المعطلة يدعون أنهم قصدوا بذلك تنزيه رب العالمين، فنقول: أي تنزيه هذا أفضى إلى تعطيل الرب عن صفات الكمال ونعوت الجلال؟! ما عاد تنزيهًا، بل عاد بأعظم المسبة والمذمة.

وفي مقابلهم من بالغ في الإثبات، وهم أهل التمثيل، ولهذا قال الشيخ: **ومن غير تكييف ولا تمثيل.**

قال: وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ: التكييف هو حكاية كيفية الصفة، كأن تحكي كيف جرى كذا وكذا وكذا، فقد يصف الإنسان مثلًا هبوط مظلي أو تسلق جبل فيقول: حصل كذا وكذا وكذا. فهذا اسمه: تكييف، فالتكييف المذموم هو أن ينتدب أحد لحكاية كيفية صفة من صفات الله، كاستواء الله عز وجل على عرشه، فهذا ممتنع عقلًا محرم شرعًا، فهو ممتنع عقلًا لأنه أي عقل يمكن أن يوزن به ما ينبغي لله؟! هذا من أعظم المستحيلات، ومحرم شرعًا لأن الله قال: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ} [النحل: 74]، ولما دخل رجل على أبي عبد الله مالك بن أنس إمام دار الهجرة وقال: يا أبا عبد الله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]، كيف استوى؟. فسأل عن كيفية الاستواء، فأطرق الإمام مالك برأسه، وعلته الرحضاء، وارفض جسده عرقًا تعظيمًا لله عز وجل واحترامًا لجنابه، أطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: **الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أظنك إلا صاحب بدعة** . ثم أمر به فأُخرج من المسجد، وفي رواية أخرى صحيحة عند اللالكائي أنه قال: **الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة**؛ فلا يجوز التكييف شرعًا، ولا يمكن عقلًا.

قال: وَلاَ تَمْثِيلٍ: أي إثبات مماثل للشيء، كأن نقول مثلًا: هذا الكأس مثل هذا الكأس، هذا الكتاب مثل هذا الكتاب. لأنهما خرجا من مطبعة واحدة، ولاحظوا دقة الشيخ، أنه استعمل لفظ التمثيل، ولم يستخدم لفظ التشبيه، لأن القرآن جاء بنفي التمثيل، فقال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]، ولم يقل: ليس كشبهه شيء.

فيجب على من أثبت لله سبحانه وتعالى ما وصف به نفسه أن يحذر من أن يبالغ في التكييف لدرجة أن يكيف كيفية مجيئه واستوائه أو نحو ذلك، وأن يحذر من الوقوع في التمثيل بأن يقول: وجه الله كوجه المخلوق، يد الله كيد المخلوق، سمع الله كسمع المخلوق، فهذه أمور لا بد من التفطن لها والتنبه لها، لكي يكون إيمان الإنسان إيمانًا على بينة. ولهذا قيل: **المعطل يعبد عدمًا، والممثل يعبد صنمًا** ، فالمعطل يعبد عدمًا لأنه في الواقع سار لا إلى شيء، كما عبر بعضهم للمعطلة فقال: ما مثلكم إلا كرجل قال: في بيتنا نخلة. فقيل له: ألها جذع؟. قال: لا. قيل: ألها جذور؟. قال: لا. قيل: ألها سعف؟. قال: لا. قيل: أتحمل الثمر؟. قال: لا. قالوا: فما في بيتكم نخلة. لأنه نزع جميع صفاتها وخصائصها، فصارت في الأذهان ولا وجود لها في الأعيان، فالمعطلة يصفون الله تعالى بالسلوب: ليس بكذا، وليس بكذا، وليس بكذا، لهذا قال السلف: إنما يحاولون أن ليس فوق السماء إله، والممثل يعبد صنمًا، لأنه تخيل صورة ذهنية اصطنعها في ذهنه، مهما بالغ في تكبيرها وتزويقها، لكن الله ليس كذلك، فكل ما خطر ببالك من الأشكال فالله ليس كذلك.

والله أعلم.

الدرس (5)

المحترزات الأربعة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد.،

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ.

بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ [لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ] [الشورى: 11].

قد تقدم بيان أن هذا المسلك هو مسلك أهل السنة والجماعة، وهو الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ثم ذكرنا لكم المحترزات الأربعة التي يحترز منها أهل السنة والجماعة: التحريف، والتعطيل، والتكييف، والتمثيل، فهم يحترزون من التحريف والتعطيل في جانب التنزيه، ويحترزون من التكييف والتمثيل في جانب الإثبات، لأنه كما قيل: كلا طرفي قصد الأمور ذميم؛ فمن حقق الإثبات فعليه أن يحذر من الغلو في الإثبات، لئلا يقع في التكييف والتمثيل، ومن أراد تنزيه الرب سبحانه وتعالى فليحذر من المبالغة فيه حتى لا يقع في التعطيل والتحريف، وبيَّنا لكم معاني هذه المصطلحات الأربعة، ونود الآن أن نبين الفرق بين التحريف والتعطيل، وبين التكييف والتمثيل، فإن التحريف والتعطيل في جانب النفي، والتكييف والتمثيل في جانب الإثبات.

ما الفرق بين التحريف والتعطيل؟ تقدم معنا أن التعطيل معناه النفي، الجحود، الإنكار، وأن التحريف معناه التغيير، فالتعطيل هو نفي أو جحود أو إنكار صفات الله تعالى كلها أو بعضها، والتحريف هو تغيير النص لفظًا أو معنى.

فهل كل محرف معطل؟ أو كل معطل محرف؟ الواقع أن كل محرف معطل، ولا عكس، وبيان ذلك: أن المعطل نفى ما أثبت الله تعالى لنفسه، والمحرف زاد على ذلك بأن اقترح معنى بديلًا من عنده، فصار المحرف قد نفى وزيادة، بمعنى أنه نفى المعنى المراد وأتى بمعنى بديل من عند نفسه، فيأتي إلى قول الله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]، فلا يثبت الاستواء بالمعنى الذي أراده الله تعالى، أي العلو، ثم يزيد على ذلك ويقول: المراد بالاستواء الاستيلاء. فقد عطل وحرف، أما المعطل فإنه ينفي الاستواء، وقد لا يذكر معنى بديلًا، كحال أهل التجهيل الذين يسمون أنفسهم المفوضة، فإنهم يقولون: لله صفة يقال لها: الاستواء. لكن لا نعقل لها معنى، فقط نثبت ألفاظها ولا نعقل لها معنى. فإن قيل لهم . كما يقول السلف .: أهي العلو؟. قالوا: لا. فإن قيل لهم . كما يقول الخلف .: أهي الاستيلاء؟. قالوا: لا، لا أحد يعلم، ولا النبي صلى الله عليه وسلم يعلم. زعموا أن هذا هو مراد الله تعالى بقوله: { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ} [آل عمران: 7]، وليس الأمر كذلك.

فإذا قيل لك: ما الفرق بين التحريف والتعطيل؟ فقل: التحريف تعطيل وزيادة، لأنه إنكار للمعنى الصحيح واستبدال له بمعنى باطل، أو بمعنى غير مراد، فصار التحريف أعم من التعطيل.

ما الفرق بين التكييف والتمثيل؟ تقدم معنا أن التمثيل يعني إثبات مماثل للشيء، وأن التكييف حكاية كيفية الصفة، فتقول: هذا الكتاب مثل هذا الكتاب. وإذا حكيت كيفية معينة فهذا يسمى تكييفًا، كأن تصف مشي أو جريان الماء في الأنهار أو سرعة القطار أو حفيف الأشجار، حينما تحكي كيفية يقال عن فعلك هذا: تكييف.

فما الفرق بين التكييف والتمثيل؟ وأيهما أعم؟ وأيهما أخص؟ الواقع أن بينهما فرقًا، فالتمثيل يعني إثبات مماثل للشيء، بحيث يطابقه في جميع الأشياء، وعلى هذا فالتمثيل يتعلق بالقدر والذات والصفة، بينما التكييف لا يتعلق إلا بالصفة، هذا أحد الفروق.

الفرق الأول: أن التمثيل يتعلق بالذات وبالقدر وبالصفة ، بينما التكييف لا يتعلق إلا بالصفة، فحينما تقول: هذه النسخة من الكتاب مثل هذه النسخة من الكتاب. فهي مطابقة لها في كل شيء، في الوزن، وفي عدد الصفحات، وفي الألوان، وفي المحتوى، هذا تمثيل، **وبهذا الاعتبار يكون التمثيل أعم من التكييف** ، لأن التكييف لا يتعلق إلا بالصفة فقط، كأن تكون نسخة من كتاب ونسخة من كتاب آخر غيره، فلا يشتركان إلا في أنهما ورق.

الفرق الثاني: أن التمثيل لا بد أن يكون مقيدًا بمماثل، أما التكييف فقد يكون مقيدًا بمماثل وبغير مماثل . كيف ذلك؟ حينما تقول: هذا مثل هذا. فلا بد من وجود شيء تُشير إليه وتُحيل إليه، فلا بد أن تقيده بمماثل، أما عندما تحكي كيفية فقد تحكي كيفية لمماثل، وقد تحكي كيفية مطلقة، أضرب لكم مثالًا: لو أن إنسانًا مثلًا لم ير يومًا في حياته الطائرة، لم ير يومًا في حياته كيف تهبط الطائرة على مدرج المطار، وقال لمن رآها: كيف تهبط الطائرة؟ هي في السماء، ثم لا تلبس أن تكون في الأرض، كيف يقع هذا؟ ألا تتحطم؟. وهو لا يدري، لأول مرة يتخيل مثل هذا الأمر، فأراد صاحبه أن يقرب له الأمر فقال: هل تعرف الطائر الفلاني الذي في السماء؟. قال: نعم. قال: كيف يهبط؟. قال: يبسط جناحيه ثم ينزل نزولًا تدريجيًا، فيحط قدميه في الأرض، ثم يجري على الأرض حتى يستقر. قال: الطائرة هكذا. فالآن حكى كيفية مقيدة بمماثل وهو هذا الطائر المعهود في ذهنه، وربما لم يذكر له شيئًا معهودًا في الذهن، وإنما يقول له: إن هذه الطائرة تهبط في أجواء الفضاء شيئًا فشيئًا، حتى إذا قاربت الأرض لامست عجلاتها مدرج المطار، ثم سحت فوق أرض المطار حتى تقف، فهو الآن لم يربطها بمماثل، **فبناء على هذا يكون التكييف أعم من التمثيل** ؛ إذ التمثيل لا بد أن يكون مقيدًا بمماثل، أما التكييف فربما كان مقيدًا بمماثل، وربما كان شيئًا مطلقًا لا يتقيد بمماثل.

هذان هما الفرقان بين التكييف والتمثيل، ألخصهما بأن نقول:

الفرق الأول: أن التمثيل يتعلق بالذات والقدر والصفة، والتكييف يتعلق بالصفة فقط. وبهذا يكون التمثيل أعم من التكييف، فكل مكيف ممثل، وليس كل ممثل مكيفًا.

الفرق الثاني: أن **التمثيل لا بد أن يكون مقيدًا بمماثل، وأما التكييف فربما كان مقيدًا بمماثل، وربما كان بوصف مطلق. وعلى هذا يكون التكييف أعم من التمثيل، فكل ممثل مكيف، وليس كل مكيف ممثلًا.**

وهذا من باب تلمس الفروق في معاني هذه الاصطلاحات، والمقصود بالجملة . معشر الطلبة ومن بلغ . أن نعلم بأن الطريقة الواجبة في الاتباع في صفات رب العالمين هو أن نُثبت لله تعالى ما أثبت لنفسه في كتابه، وما أثبته له نبيه صلى الله عليه وسلم في سنته، إثباتًا بلا تمثيل، وأن ننزه الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو معنى الآية التي ختم الشيخ بها: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى: 11].

قال: بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}: وفي هذا رد على أهل التمثيل وأهل التكييف.

قال: {وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}: وهذا رد على أهل التحريف والتعطيل.

فكانت هذه . وهي بعض آية، أو ختام آية . منهجًا لأهل السنة والجماعة في هذا الباب العظيم الخطير، فالواجب علينا أن نُثبت للرب ما أثبت لنفسه إثباتًا بلا تمثيل، وأن ننزهه عن العيب والنقص ومماثلة المخلوقين تنزيهًا بلا تعطيل.

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ، وَلاَ يُكَيِّفُونَ وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ ؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لاَ سَمِيَّ لَهُ، وَلاَ كُفْءَ لَهُ، وَلاَ نِدَّ لهُ، ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهَ وَتَعَالَى؛ فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ.**

هذه خمس جمل معللات.

قال: فَلاَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ: أي وصْف وصَف الرب به نفسه فلا يحل لكائن من كان أن ينفيه عن الله تعالى، لأنه كأنما يستدرك على الله تعالى ما أضافه إلى نفسه الشريفة، فإياك أن تستشنع شيئًا مما أثبت الرب لنفسه، فإذا وصف الله نفسه بالاستواء أو المجيء أو النزول أو الضحك أو الفرح أو العجب أو الساق أو اليدين أو الوجه، فلا تقل: كيف؟. أو يقف لها شعر رأسك، إنما يقع هذا لمن تبادر إلى ذهنه معنى التمثيل، أما من قدر الله حق قدره فإنه يعلم أن هذا الذي سمى ووصف الرب به نفسه على وجه يليق به، فلهذا كان أهل السنة يلزمون جانب الأدب في هذا، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، إذا جاء في كتاب الله، أو صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين، ويُبرأ سبحانه من كل نقص وعيب، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، فالجملة الأولى رد على أهل التعطيل، وقوله: ولا يحرفون الكلم عن مواضعه. رد على أهل التحريف.

قال: وَلاَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ : رد على أهل التحريف، والذين يحرفون الكلم عن مواضعه هم الذين ينقلون المعنى عن المعنى المراد لله، إلى معنى غير مراد لله، حتى ولو كان المعنى المنقول إليه معنى صحيحًا، لكن إن لم يكن هو مراد الله فهذا ضرب من التحريف، وعدوان وجناية على النصوص، فلا يحرفون الكلم عن مواضعه، ومن المعلوم أن الذين اشتُهروا بتحريف الكلم عن مواضعه هم اليهود، { يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ } [النساء: 46، المائدة: 13]، {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} [المائدة: 41]، ولما قيل لهم: قولوا: حطة. قالوا: حنطة. وحرفوا نوعين من التحريف:

النوع الأول: تحريف لفظي.

النوع الثاني: تحريف معنوي.

كل هذا وقع من يهود، فمن شابههم ففيه شعبة من يهودية، ومن برأ من طريقتهم فقد لزم السنة.

قال: وَلاَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ: الإلحاد هو الميل، ومنه سمي لحد القبر لحدًا، لأنه ميل عن سمت الحفر، فحافر القبر يحفر بشكل رأسي طويل، فإذا أراد أن يضع موضعًا للميت يحفر باتجاه القبلة لكي يوضع الميت في هذا اللحد، ثم يُصف عليه اللبن، فسمي اللحد لحدًا لميله عن سمت الحفر، هذا سبب تسمية الإلحاد بهذا الاسم، فهو الميل والعدول عن ما يجب اعتقاده أو عمله.

وأفادنا الشيخ بأن الإلحاد يمكن أن يقع في الأسماء، ويمكن أن يقع في الآيات، وبيان ذلك: أن الله في كتابه ذم كلا الصنفين، فقال في موضع: { وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَ ائِهِ} [الأعراف: 180]، فيقع الإلحاد في أسماء الله.

النوع الثاني: الإلحاد في آياته. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا} [فصلت: 40].

فيمكن أن يقع الإلحاد في الأسماء وفي الآيات، وكلاهما حرام، وقد يبلغان مبلغ الكفر أحيانًا، وقد يبلغان مبلغ البدعة أحيانًا.

وما دام أن الإلحاد في أسماء الله معناه الميل، **فالميل له صور متعددة، نذكر بعض هذه الصور**:

الصورة الأولى: تسمية الله بما لم يسم به نفسه. فمن سمى الله بما لم يسم به نفسه فقد ألحد في أسمائه، لأن أسماء الله توقيفية، ليس لأحد أن يسمي الله بأسماء مبتكرة مخترعة من عند نفسه، لا يُسمى الله إلا بما سمى به نفسه، أسماء الله قديمة منذ الأزل، لم يخترعها الناس، بل الله سمى بها نفسه، وأعلمها أنبياءه، ثم أنبياؤه أعلموها أممهم، فمن سمى الله بما لم يسم به نفسه فقد وقع في الإلحاد في أسمائه.

مثال: تسمية النصارى لله بالأب، يقول: الأب والابن وروح القدس إله واحد. فيسمون الله الأب، ويقولون: أبونا. يقصدون به الله عز وجل، فهذا ليس من أسماء الله الحسنى، لأن عقيدتهم في البنوة عقيدة كفرية، { وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة: 30]، فهذا من الإلحاد في أسمائه أن يمسى باسم الأب.

مثال: تسمية الفلاسفة له: العلة الفاعلة، فهذا أيضًا من الإلحاد في أسمائه.

مثال: بعض الناس قد يُطلق إطلاقات مخترعة على الله، مثل من يقول: مهندس الكون الأعظم. فلا يجوز أن يُسمى الله بهذا مهما كان، فلا يُسمى الله إلا بما سمى به نفسه، لكن بعض الإطلاقات تأتي من باب الإخبار لا من باب الأسماء، فمثلًا: المتكلمون يعبرون عن الله بقولهم: واجب الوجود. وهذا ليس معنى مذموم حتى نرده، وإنما هو خبر، فلا نسمي الله بالواجد، ولا نسمي أحدًا من الناس بعبد الواجد، وقولهم: واجب الوجود. أي أن وجوده لا يفتقر إلى وجود غيره، بل هو الواجب بذاته سبحانه، الموجد لغيره، فهم يعبرون بقولهم: واجب الوجود. ويجاريهم أهل السنة في هذا التعبير، لأنه ليس في هذا التعبير معنى مذموم، لكن لا ينبغ أن نقول: هذا من الأسماء الحسنى.

الصورة الثانية: إطلاق أسمائه الحسنى على الأصنام والمخلوقات. كما وقع من المشركين، حيث استلوا من أسماء الله الحسنى واشتقوا منها أسماء لأصنامهم، كقولهم: اللات، العزى، مناة. فأخذوا اللات من اسم الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فهذا ضرب من الإلحاد في أسمائه، لأنه عدوان على أسمائه، وتأنيث لها، وإطلاق لها على الأصنام، فهذا يُعد إلحادًا.

الصورة الثالثة: اعتقادها دالة على التمثيل. بأن يعتقد بأن هذه الصفة تدل على ما هو معهود في الأذهان، فيظن أن صفة الوجه كالوجه المألوف عند الآدميين، وأن اليد كيد الآدمي، وهكذا، فاعتقادها مماثلة لما للمخلوقين هذا إلحاد في صفاته.

الصورة الرابعة: تعطيلها عن مراد الله. هذا إلحاد فيها لأنه ميل بها وعدول عما يجب اعتقاده، فإذا زعم بأن المراد بالوجه الثواب، أو المراد باليد النعمة أو القدرة، أو المراد بالمجيء مجيء أمره أو مجيء رحمته، فهذا ميل بها عما يجب اعتقاده، فهو ضرب من الإلحاد.

الصورة الخامسة: وصفه تعالى بصفات النقص والعيب كما وقع من اليهود . عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . حينما قالوا: { إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ } [آل عمران: 181]، وقولهم: إن الله يسأل القرض. وقولهم: إنه خلق السماوات في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع. وزعمهم بأن الله ندم وبكى، إلى غير ذلك مما يضيفونه إلى الله تعالى من صفات العيب والنقص، إذن كل ميل وعدول عما يجب اعتقاده في أسماء الله وصفاته فهو ضرب من الإلحاد، وقد يبلغ أحيانًا مبلغ الكفر، ككفر الجهمية الذين أنكروا الأسماء والصفات، وقد يكون دون ذلك كما وقع لدى أصحاب التعطيل الجزئي.

أما الإلحاد في آياته، فإنه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: إلحاد في الآيات الكونية.

القسم الثاني: إلحاد في الآيات الشرعية.

لأن آيات الله نوعان: كونية، وشرعية، فآياته الكونية هي مخلوقاته، السماوات والأرض والجبال...إلخ وآياته الشرعية ما أنزله على أنبيائه من كتب تُتلى.

كيف يقع الإلحاد في آيات الله الكونية؟

يقع الإلحاد في آيات الله الكونية بنسبتها إلى غير الله، وادعاء مدبر لها سوى الله ، وهذا يقع من بعض الملاحدة . والعياذ بالله .، حينما يزعم أن الطبيعة هي التي أوجدت الكون، أو أن الطبيعة هي التي أبدعت هذه الصورة، أو أن الطبيعة غضبت فنشأ عن ذلك زلازل وبراكين، نسمع هذا على ألسنة بعض الكُتّاب والإلحاديين، وما هذا إلا من نضح الإلحاد القائم على الكفر بالله وأنه الخالق المالك المدبر، فهذا نوع من الإلحاد المخرج عن الملة، بنسبة الأشياء إلى غير الله، أو نسبة تدبيرها إلى غير الله عز وجل، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر إلا الله.

أما الإلحاد في آيات الله الشرعية فهو يكون بإنكارها وجحدها وهجر العمل بها ونحو ذلك، فإنكارها كأن يقول: هذا ليس كلام الله. وينكر نسبة الآية إلى كلام الله عز وجل ويجحد ما دلت عليه من المعاني وما تقتضيه من الأحكام، هذا ضرب من الإلحاد، أو يترك العمل بها.

إذن الإلحاد بنوعيه محرم، وقد يبلغ مبلغ الكفر بحسب درجته، فأهل السنة والجماعة بُرآء من هذا الإلحاد بنوعيه.

قال: وَلاَ يُكَيِّفُونَ وَلاَ يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ : لما أنكر الشيخ على المحرفين المعطلين بقوله: لا ينفون، لا يحرفون، لا يلحدون. وهذه الجمل الثلاثة تنصب على أهل التعطيل، انتقل إلى مقابليهم، وهم أهل التمثيل، فقال: ولا يكيفون ولا يمثلون. أي لا يكيفون صفات الله بصفات خلقه، فمن قال: كيفية نزول الله إلى سماء الدنيا كيت وكيت وكيت. فهو مكيف . والعياذ بالله . ومن قال: إن وجه الله مثل وجه المخلوق، أو سمع الله مثل سمع المخلوق. فهذا . والعياذ بالله . ممثل، وكلًّا من التكييف والتمثيل محرم شرعًا وممتنع عقلًا، فهو محرم شرعًا لتوالي الآيات وتكاثرها على منع التكييف والتمثيل، {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص: 4]، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى: 11]، {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ } [النحل: 74]، ونحوها، وهو ممتنع عقلًا لأنه لا يمكن أن يُقر العقل تسوية الإله الخالق الكامل من جميع الوجوه بالمخلوق المربوب الناقص من جميع الوجوه، هذا تأباه العقول، ولهذا كان التشبيه والتمثيل في الناس أقل من التعطيل، يعني الوقوع في شبهة التعطيل باسم التنزيه أكثر، بينما الوقوع في التمثيل والتكييف أقل، لأنه ظاهر الشناعة، وجميع الفطر السليمة، تستشنع تكييف الرب وتمثيله بالمخلوقين، لأنهم يعتقدون بفطرهم أن الإله الكامل لا يمكن أن يكون كالمخلوق الناقص، فلذلك يكون مذهب التمثيل مرفوضًا، أما التعطيل فإنه يسوغ باسم التنزيه، فيقع في حبائله كثير من الناس، والحق دومًا وسط بين طرفين وعدل بين عوجين.

قال: لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ: فهذه الجمل التالية بمنزلة التعليل لما تقدم من الجمل الخمس السابقة.

قال: لاَ سَمِيَّ لَهُ : أي لا أحد يستحق اسمه، لا أحد يساميه ويضاهيه ويستحق اسمه اللائق به حتى لو اتفق اللفظ، فلا يلزم من ذلك اتفاق المعنى، فالله تعالى لا سمي له، ودليلها قوله تعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: 65]، وهذا استفهام نفي، وأي شيء يكون جوابه لا فهو استفهام نفي، { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [مريم: 65]، لا، فهو نفي مشبع بالإنكار على من اعتقد ذلك.

قال: وَلاَ كُفْءَ لَهُ: أي لا مكافئ له، ودليله قوله تعالى: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 4].

قال: وَلاَ نِدَّ لهُ: الند هو النظير والمثيل، لهذا قال الله: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 22].

وهذه الثلاثة ألفاظ متقاربة.

قال: ولاَ يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهَ وَتَعَالَى : لأن من شرط صحة القياس اتفاق المقيس والمقيس عليه في العلة، بأن يكونا من جنس واحد، والله تعالى { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } [الشورى: 11]، وبالتالي لا يقاس بخلقه سبحانه وبحمده، لكن

اعلموا أن القياس المقصود هاهنا هو قياس التمثيل وقياس الشمول، أما قياس الأَوْلى فإنه يُثبت في حقه، **والقياس ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: قياس التمثيل. بأن تقول: هذا مثل هذا. أي مطابق له، فهذا يُنزه الله تعالى عنه ويبرأ.

النوع الثاني: قياس الشمول. وهو أن يشترك المقيس والمقيس عليه في قضية عامة شاملة، يكونان أحد أفرادها.

النوع الثالث: قياس الأَوْلى. وهذا يثبت لله تعالى، والمقصود أنه ما من كمال إلا ولله منه المثل الأعلى، ولله منه القدر الأعلى، فمثلًا: العلم، الحلم، القدرة، الحكمة، السمع، البصر، الحياة، هذه المعاني لدى المخلوقين، وهي أيضًا ثابتة لله، لكن إثباتها لله تعالى إثبات مثلٍ أعلى، أي لله تعالى منها المثل الأعلى، فالله الذي قال: { إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } [الإنسان: 2]، هو الذي قال: { سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ } [الإسراء: 1]، فهناك اشتراك في أصل الصفة وهو السمع والبصر، لكن للمخلوق منه المثل الأدنى، وللخالق منه المثل الأعلى، فليس سمع كسمع، ولا بصر كبصر، مع وجود الاشتراك في أصل المعنى، فهذا هو قياس الأَوْلى الذي كان يُثبته السلف، وتجد أنهم في حِجاجِهم يقولون: إذا كان المخلوق كذا وكذا، فالله أولى بكذا وكذا. ويسمى: قياس الأَوْلى، وكل كمال يكون للمخلوق فلله منه المثل الأعلى، سبحانه وبحمده، فهذا النوع من القياس نُثبته، وهو قياس الأَوْلى، وواهب الكمال أولى بالكمال، معطي الكمال أولى بالكمال، فإذا كان الله وهب سمعًا وبصرًا وعلمًا وقدرة وحياة وغير ذلك من الكمالات، فواهب الكمال أولى بالكمال، وله منه المثل الأعلى، لا مثل ما وهب، بل الغاية فيه، ولهذا قال الله: { وَلِلّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } [الأعراف: 180]: أي البالغة في الحسن غايته.

قال: فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ : هذه جملة تعليلية أخرى، وهي مسوغات قبول ما أخبر الله به عن نفسه، وما وصف به نفسه، لما ذكر ما تقدم من أن أهل السنة لا ينفون ولا يُلحدون ولا يُحرفون ولا يكيفون ولا يمثلون، بل يقبلون ما جاء عن الله وما وصف نفسه، وعلل ذلك بقوله: فإنه سبحانه أعلم بنفسه.

قال: فَإِنَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ : إذا كان هو سبحانه هو الذي أخبر عن نفسه بصفات الكمال ونعوت الجلال وأضاف إلى نفسه هذه الأسماء الحسنى والصفات العلى، فذلك صادر عن علم، هو أعلم بنفسه، من أنت تأتي في آخر الزمان لتقول: يجوز على الله كذا، ويمتنع على الله كذا. وتصادم خبر الله وخبر رسوله! الله أعلم بنفسه، { قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ} [البقرة: 140].

قال: وَأَصْدَقُ قِيلًا: ربما قال قائل: صحيح، العلم حاصل، لكن لا بد من التوثق من صدق القول. فالله تعالى حاشا وكلا أن يكون في كلامه ما لا يطابق الواقع، فهو منزه سبحانه عن الكذب، هو أصدق قيلًا، {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} [النساء: 122]، لا أحد، فلا أحد أصدق من الله قيلًا، فما أخبر به سبحانه في كتابه فهو عين الحق، عين الواقع،

فليس لأحد أن يفتات على كلام الله ويقول: لا، ليس المراد بـ{ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا } [الفجر: 22] أن الرب يجيء، المقصود وجاء أمر ربك. سبحان الله! أأنت أعلم بالله من الله؟! أأنت أصدق من الله قيلًا؟!.

قال: وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ : ربما قال قائل: الأمر يتعلق بالبيان والفصاحة. قلنا: لا أحد أحسن من الله حديثًا. كلامه غاية في البيان، القرآن موصوف بأنه بيان وتبيان ومبين ويبين، كل الاشتقاقات المتعلقة بهذه المادة قد وصف بها القرآن، فالله أحسن حديثًا.

فهذه مسوغات قبول الخبر، ما الذي يجعلني أقبل خبرًا من الأخبار؟ . دعك من خبر الله . إذا علمت أن المخبِر عالم وصادق ومُبين فصيح فإني أقبل الخبر، **لكن الذي يجعلني أرد الخبر**:

١) أن أعرف أن هذا المخبِر غير عالم، جاهل، فأرد الخبر.

٢) إذا علمت بأنه عالم لكنه كذوب، فأقول: صحيح، هو عالم، لكن ربما أخبرني بخلاف علمه. فأرد علمه، أما إذا علمت أنه عالم وصادق فينبغي أن أقبل

٣) ربما قال قائل: نعم، هو عالم وصادق، لكنه عييّ، فيه فهاهة، يريد أن يقول: أسود. فيقول: أبيض. ويريد أن يقول: طويل. فيقول: قصير. ومن الناس من يكون هكذا، فلا يُحسن أن يُعرب عما في خاطره، تكون فيه فهاهة، فإذا انتفى هذا وعلمنا بأن المخبِر فصيح بيّن يعرف ماذا يريد انتهى وقبلنا الخبر.

كذلك ثَمّ أمر رابع: وهو أن يكون ليس عنده غش ولا تدليس، بمعنى أن يكون ناصحًا، وكل المراتب الثلاثة السابقة . وصادق ومُبين فصيح . في حق الله تعالى وحق نبينا صلى الله عليه وسلم، ونُضيف في حق النبي صلى الله عليه وسلم أنه أنصح الأمة للأمة، فهو أعلم بربه، وأصدق كلامًا، وأوضح بيانًا من سائر الناس، وأنصح الأمة للأمة، لا يقصد الغش ولا التدليس ولا التغرير بالناس، فكل ذلك يدعو إلى قبول الخبر، فأين تذهبون يا معشر المعطلة والمتكلمين؟.

الدرس (6)

الجمع فيما وصف الله به نفسه بين النفي والإثبات

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُون ، بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (180) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (181) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الصافات: 180– 182]. فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلاَمَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.**

تأملوا حسن ترتيب المؤلف، فلما ذكر أن الله سبحانه وتعالى أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا من خلقه أوقفنا الآن على قاعدة صُلبة في قبول خبر الله، لكن ها هنا وصلة بيننا وبين كلام ربنا، فالواسطة بيننا وبين الله في التبليغ هم الرسل الذين نزل عليهم الوحي، فأراد أن يوثّق هذه الحلقة، حتى لا يدَّعي مدع بأن هذه الحلقة نقطة ضعف في الاتصال.

قال: ثُمَّ رُسُلُه: الرسل نوعان:

النوع الأول: رسول بشري.

النوع الثاني: رسول ملكي.

قال تعالى: { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ } [الحج: 75]، فزكاهم الله تعالى، فقال عن الرسول الملكي: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (19) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (20) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ } [التكوير: 19- 21]، ثم قال: { وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ } [التكوير: 22]، فزكى الرسول البشري، وزكاه أيضًا في سورة الحاقة بقوله: { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ } [الحاقة: 40- 42]، فنفى عنه الكهانة والشعر التي يُزخرف بها القول، وبيّن أن مصدره أصيل، وأنه ثابت، ولهذا قال: { وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (44) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ } [الحاقة: 44- 46]، فلا يمكن أن يقر الله تعالى أحدًا يكذب عليه وينسب إليه الباطل، ولو جرى . وحاشا . لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين، ولهذا كانت هذه من أقوى دلائل النبوة، فأثبت بأن الواسطة بيننا وبين ربنا واسطة ثابتة قوية ليس فيها مجال للتشكيك.

قال: صَادِقُونَ: أي فيما يُخبرون به.

قال: مصدوقون: أي فيما أُخبروا به.

قال: مُصَدَّقُون: أي أُخبروا بالصدق.

قال: بِخِلاَفِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لاَ يَعْلَمُونَ : القول على الله بغير علم من أعظم الذنوب، كما قال الله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ } [الأعراف: 33]، جعل هذا من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى، حتى جعل هذا فوق الشرك، فالقول على الله بغير علم من أعظم الطوام، والقائلون على الله بغير علم أصناف كثر، منهم الأفَّاكون الكذابون، ومنهم المنجمون، ومنهم السحرة، ومنهم الكهان، ومنهم المتنبئون الكذابون الذين يزعمون أنهم ينزل عليهم وحي من السماء، ومنهم أيضًا هؤلاء المتهوكون الذين يحرفون الكلم عن مواضعه في باب العقائد ويقولون: ليس المراد كذا وكذا، بل المراد به كذا وكذا. فهل عندكم أثارة من علم؟ هل عندكم دليل على ما تدعونه؟ فهذا قول على الله بغير علم، ولو سألت أحدًا من المتكلمين: من أين لك أن استوى بمعنى استولى؟ من أين لك أن الوجه بمعنى الثواب؟ من أين لك أن اليد بمعنى القدرة أو النعمة؟ أعندك أثارة من علم؟ هل تروي في ذلك حديثًا واحدًا عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو عن صاحب، أو عن تابع؟ لم يجد أبدًا، ولا يدعيه، ولو كان عندهم شيء من ذلك ما ادخروه، لكنهم يقولون: نحن نجتهد في أن نبحث عن المعاني اللائقة بالله، سبحان الله! أأنتم أغير على الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تدَّعوا أن هذا

من باب البحث عن المعاني؟ ألم يكن الله أعلم بنفسه وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا؟! فهذا ضرب من القول على الله بغير علم، فلهذا قال الشيخ: بخلاف الذين يقولون على الله ما لا يعلمون.

قال: وَلِهَذَا قَالَ: {سُبْحَانَ رَبِّكَ}: اسم فعل بمعنى تنزيهًا لله.

قال: {رَبِّ الْعِزَّةِ}: هذا من إضافة الموصوف إلى الصفة، والعزة بمعنى الغلبة والامتناع، لأن الله تعالى عزيز في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته، فله العزة المطلقة سبحانه: عزة الامتناع، وعزة الغلبة، وعزة القدرة، وأصل معنى العزة: تقول العرب: أرض عزاز. أي شديدة، ولا زال الناس إلى زماننا هذا يقولون: أرض عزة. من نفس الاشتقاق، وهي الأرض الصلبة القوية المتماسكة.

قال: {عَمَّا يَصِفُونَ}: أي عما يصفه به مخالفو الرسل.

قال: {وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِين}: هذا دعاء لهم بالسلامة وتزكية لهم وثناء عليهم.

قال: { وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }: ابتدأ بالتنزيه، وختم بالتحميد، لأن الحمد وصف لله بصفات الكمال، فجمعت الآية التنزيه والتحميد، [وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض].

قال: فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ : فالمخالفون للرسل تارة يصفونه بصفات العيب أو النقص أو مماثلة المخلوقين، كما قالوا: {عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة: 30]، {الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ} [التوبة: 30]، الملائكة بنات الله. أو بتعطيله عما ينبغي له من الصفات والأسماء الحسنى.

قال: وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ : لقوله: [وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ] [الصافات: 181]: والسلام إما حكم لهم بالسلامة، أو تحية لهم.

قال: لِسَلامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ : فتعين الصيرورة إلى ما جاء عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم وعدم الالتفات إلى شيء سوى ذلك.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ.

فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ.

قال: وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ : أشار –رحمه الله– إلى ضابطٍ أو قاعدةٍ من قواعد الأسماء والصفات، وهو أن الله تعرف إلى عباده بالنفي والإثبات، والنفي معروف، والإثبات معروفٌ في اللغة، الإثبات أمرٌ وجودي، والنفي أمرٌ عدمي، وأي قضية من القضايا لا تتبين إلا بإثبات عنصرها ومضمونها، ونفي ما ينافيها، فلأجل ذا ربنا سبحانه وبحمده تعرف إلى عباده بهذين الأسلوبين، تارةً بذكر الأسماء والصفات الثبوتية، وتارةً بنفي ما يُنزَه عنه سبحانه من صفات النقص، أو العيب، أو مماثلة المخلوقين، لهذا قال: **قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ**

نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ. والواقع أن هذا الأسلوب أسلوبٌ مطلوب في كل شيء، فإنك لا تتمكن من معرفة حقيقة شيء من الأشياء إلا بالجمع بين النفي والإثبات، فلو أنك مثلًا أردت أن تشتري سلعةً ما، كجهاز حاسب، أو جوال، أو غير ذلك، فإنك تسأل عن مميزاته، فيقال لك: هو كذا، وهو كذا، وهو كذا. من المزايا، ثم يُردف ذلك بذكر الأشياء التي لا تحسن فيه، ولا يحسن فيه كذا، ولا يحسن كذا، كذلك مثلًا لو تقدم إنسانٌ إلى عمل، أو تقدم شابٌ لخطبة فتاة، أو نحو ذلك، تجد أنه يُسأل عن الصفات الوجودية، وهي الصفات الثبوتية، وعن الصفات العدمية، فيقال مثلًا: هو كذا، وهو كذا، وهو كذا. من الصفات الماثلة فيه، وليس بكذا، وليس بكذا، وليس بكذا.

فلا تكتمل المعرفة إلا بالجمع بين النفي والإثبات، فلما علم الله تعالى من حال عباده أنه لا يحصل لهم العلم، إلا بالجمع بين الأمرين، تعرف إلى عباده بالنفي والإثبات، فتارةً يثبت لنفسه أسماء الكمال وصفات الجلال، وتارةً ينزه نفسه عن صفات النقص والعيب، ومماثلة المخلوقين، وتارةً يجمع بين الأسلوبين في نصٍ واحدٍ كما سيتبين في الأمثلة.

قال: قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ : الواقع أن الأسماء كلها ثبوتية، وليس هناك أسماء منفية، الأسماء كلها ثبوتية، أما الصفات فهي التي تنقسم إلى صفاتٍ ثبوتية، وصفاتٍ منفية، فيقال الصفات الثبوتية: العلم والإرادة والقدرة، والسمع والبصر. والصفات المنفية أضدادها، كالجهل والعمى والصمم وغير ذلك من صفات النقص، ففي العبارة شيءٌ من الإجمال، فإن قوله: **جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ** . النفي والإثبات يتعلق بالصفات، أما الأسماء فإنها كلها ثبوتية.

قال: فَلاَ عُدُولَ: أي لا ميل.

قال: لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛: لأنهم على خطاهم يسيرون.

قال: فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ : يعني ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم، وما معنى الصراط؟ الصراط هو الطريق الواضح، فإنه الصراط المستقيم، فهو واضح مستقيم، جمع بين الوضوح والاستقامة، وهو الذي ندعو الله تعالى في كل صلاةٍ، أن يهدينا إليه، { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ } [الفاتحة: 6]، هذا هو الصراط المعنوي، ومن استقام في الدنيا على الصراط المعنوي، كان حقيقًا وحريًا يوم القيامة أن يستقيم على الصراط الحسي، الذي يُضرب على متن جهنم، ومن كان في هذه الحياة الدنيا سريعًا مبادرًا للخيرات في الصراط المعنوي، كان يوم القيامة حقيقًا وحريًا أن يكون سريعًا على الصراط الحسي، الذي يُضرب على متن جهنم، سواءً بسواء.

صراط من؟ أضافه إلى سالكه، فالشيء قد يضاف إلى الله، وقد يضاف إلى خلقه، فيقال: { صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ } [الشورى: 53]، باعتبار أن الله هو الذي نصبه، وقد يضاف إلى سالكيه كقوله: {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ } [الفاتحة: 7]، فالإضافة تكون لعدة اعتبارات، فتارةً يضاف الصراط إلى الله، لكون الله هو الذي نصبه لعباده، { وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ }

[الشورى: 52، 53]، وتارةً يضاف إلى سالكيه؛ لأنهم هم الذين مشوا فيه، كقول الله تعالى: { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ} [الفاتحة: 7]، بهذا عرفه هنا بالثاني.

قال: صِرَاطُ الَّذِينَ: لماذا جعل هنا الرفع؟ لأنها بدل؛ لأنه قال: فإنه الصراط. فكانت خبر إن، وجاء صراط بدلًا عنها، والبدل يتبع المبدل.

قال: صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ : هؤلاء هم أطباق المنعم عليهم، الذين ذكرهم الله تعالى في سورة النساء بقوله: { فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً}[النساء: 69]، فلا تخرج أيها المؤمن عن هؤلاء، قال: { وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا } [النساء: 69]: وهو المعنى الذي قصده النبي صلى الله عليه وسلم عندما قبضت روحه، كان يشير بيده يقول: [إلى الرفيق الأعلى]، فأعلى هذه الطبقات هم النبيون، وهي منحة ربانية واصطفاء إلهي، لا سبيل للحصول عليه، بمعنى أن النبوة مقام لا يُنال بالتكسب، ولا بالرياضة، ولا بالمجاهدة، وإنما هو محض اصطفاء من الله: { اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ} [الحج: 75]، {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ} [الأنعام: 124]، وقد خُتم هذا الباب ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم، كما قال الله: {وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ } [الأحزاب: 40]، فهذه أعلى الطبقات، وأنبياء الله هم أنفسهم يتفاضلون: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [البقرة: 253]، فأفضل الأنبياء والمرسلين هم الخمسة أولو العزم من الرسل، الذين ذكرهم الله مجتمعين في موضعين في كتابه: في سورة الأحزاب، وفي سورة الشورى، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

وأفضل هؤلاء الخمسة هو محمد صلى الله عليه وسلم، (أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ)[1]، يليه في الرتبة إبراهيم أبوه عليه الصلاة والسلام، خليل الرحمن، وكلاهما خليلان للرحمن، ثم يليهما في الرتبة موسى عليه السلام، ثم اختلف في نوحٍ وعيسى أيهما يُقدم؟ فإذن محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم نوح وعيسى، على خلافٍ في أيهما أفضل من الآخر؟ ثم بقية أنبياء الله، والله تعالى يفاوت في الفضل، لكن الفضل موجود {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [البقرة: 253].

فإن قال قائل: فما موقفنا من النصوص الواردة في النهي عن المفاضلة والتخيير بين الأنبياء، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ) [2]، وقوله: [لا تفضلوني على يونس بن متى]؟. فيقال: إن هذا النهي فيما إذا وقع على سبيل المفاخرة المجردة، أو على سبيل التنقص والعيب للطرف الآخر، أما إذا كان على سبيل حكاية الحال، فلا شك أن الله قد قابل بين أنبيائه ورسله.

قال: الصِّدِّيقِينَ: الطبقة التالية هم الصدِّيقون، والصديقون جمع صديق، وهي صيغة مبالغة، والمقصود بالصديق: الذي بلغ الغاية في التصديق؛ لأن التصديق درجات، ليس التصديق كما تزعم المرجئة شيءٌ واحد، إما أن يُوجد كله، أو

[1] صحيح مسلم (2278).

[2] صحيح البخاري (2412).

يُعدَم كله، لا، الناس ليسوا سواء في التصديق، من الناس مَن تصديقه كالجبال الراسيات الراسخات، ومنهم من تصديقه على مهب الريح، ربما لو عرضت له فتنة لعصفت به، فليس التصديق سواء، ولهذا سمي أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ صديقًا لقوة تصديقه، ويُقال: إنه سمي بذلك لما وقع حادث المعراج، الإسراء والمعراج، فجاءت قريش إليه، وقالت: إن صاحبك يزعم أنه أتى مسجد إيلياء في ليلة واحدة، ونحن نضرب إليه أكباد الإبل شهرًا ونعود شهرًا. فقال: إن كان قد قال فقد صدق. لم يقل: اصبروا انتظروا أروح أسأل أتبين. قال على الفور: إن كان قاله فقد صدق، فإني أصدقه في خبر السماء يأتيه في المجلس الواحد. أو كما قال، فسمي صديقًا.

ومما يدل على صديقيته وصديقية عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم حدث مرةً فقال: (بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ)، سبحان الله بقرة تكلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، -وَمَا هُمَا ثَمَّ- وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ، فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ هَذَا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، يَوْمَ لاَ رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي " فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: «فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، -وَمَا هُمَا ثَمَّ)[1]، حكم غيابي لعلمه بأنهما يصدقان ما يخبر به، فلهذا نقول: إن التصديق درجات ومراتب ومنازل، يتفاوت الناس فيه تفاوتًا كبيرًا، فلهذا {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ } [إبراهيم: 27]، فكلما كان العبد قوي الإيمان، راسخ التصديق، فإنه حينما يسائله الملكان في قبره: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ يكون على هذا جوابه، فأما المؤمن فيقول: ربي الله، والإسلام ديني، ونبيي محمد. وأما الكافر، أو المرتاب، أو الشاك فتعلوه هزة، ويقول: هه، هه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته. كان قد سمع، لكنه لم يتغلغل ويتجذر في قلبه.

قال: الشُّهَدَاءِ: الطبقة الثالثة: الشهداء، وهي جمع شهيد، والشهيد من قُتل في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، ولهذا لما كان هذا أمرًا خفيًا لا يطلع عليه إلا رب البريات سبحانه وبحمده، نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يقال: فلانٌ شهيد. لأننا لا نعلم عن خبيئة قلبه، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم على سبيل التعيين: فلان شهيد. لأننا لا نعلم، هل قاتل رياءً؟ هل قاتل سمعةً؟ هل قاتل شجاعةً؟ هل قاتل حميةً؟ هل قاتل ليُرى مكانه؟ أم قاتل لتكون كلمة الله هي العليا؟ فلهذا عرَّف النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقول: (مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)[2]، ولا شك أن الجود بالنفس، أقصى غاية الجود، فإذا كان الإنسان يجود بنفسه لله، فهذه مرتبةٌ عليا، تدل على كمال صاحبها وعلو مرتبته، فلهذا تكاثرت الأحاديث في فضل الشهادة في سبيل الله، وهي فعلًا شهادة لله تعالى؛ لأنه جاد بروحه، وعفَّر وجهه بالتراب لإعلاء كلمة الله، مما يدل على أنه يشهد لدين الله بأنه هو الحق، فلهذا سمي شهيدًا.

[1] صحيح البخاري (3471).

[2] صحيح البخاري (123)، صحيح مسلم (1904).

قال: الصَالِحِينَ: أما الطبقة الرابعة: فهي طبقة الصالحين، والمقصود بالصالحين جمع صالح، وهو الممتثل لأمر الله، المجتنب لنهيه، هذا هو الصلاح، وضده الفساد، فالصالحون هم الممتثلون لأوامر الله، المجتنبون لمناهيه.

فعلى العبد المؤمن أن يختار لنفسه، ويطمح إلى إحدى المراتب الثلاث: الصديقية، أو الشهادة، أو الصلاح، هذه مراتب المؤمنين، ويسأل الله تعالى أن يلحقه بالمنعَم عليهم: { فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69].

الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من القرآن الكريم: هذه العنوانات ليست من كلام شيخ الإسلام.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيثُ يَقُولُ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص:4].

قال: وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ: الإشارة إلى ماذا في قوله: هذه الجملة؟ يعني الجمع بين النفي والإثبات، ما تقدم من ذكر الجمع بين النفي والإثبات، دخل فيها ماذا؟ المثال الأول، وهي سورة الإخلاص، سورة الإخلاص لم سميت بهذا الاسم؟ قيل: إنها سميت بهذا الاسم؛ لأنها أخلصت في وصف الرحمن. فهي من أولها إلى آخرها خالصة في صفة الله، ولهذا لما قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: انسب لنا ربك. أنزل الله تعالى سورة الإخلاص[1]، وكذلك أيضًا قيل: إنها سميت سورة الإخلاص؛ لأنها تخلص قارئها من الشرك. وبالفعل إذا قرأ الإنسان سورة الإخلاص وكررها، تجرد قلبه من الشوائب، وأرشد النبي صلى الله عليه وسلم من علق في نفسه شيء من الشبهات ووساوس الشيطان أن يقول: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. فإذا أطاف بنفسك شيء من الشبهات المتعلقة بذات الباري سبحانه وتعالى، فافزع إلى هذه السورة، قل: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد؛ فإنها تنقي قلبك من هذه الخطرات الشيطانية، والواردات المذمومة، إذن هذا هو سبب تسميتها بسورة الإخلاص للسببين.

قال: الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ: من أين لنا ذلك؟ من كلام مَن لا ينطق عن الهوى، فقد عن أبي سعيد الخدري، أن رجلا سمع رجلا يقرأ: {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} يرددها، فلما أصبح، جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى الله عَلَيه وسَلم: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)[2]، وقال في حديثٍ آخر: (احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ) فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقرأ: قل هو الله أحد، ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبر جاءه من السماء فذاك الذي أدخله، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقال:: (إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)[3]، إذن الذي أخبر بهذا نبينا صلى الله عليه وسلم.

---

[1] سنن الترمذي (3365).

[2] صحيح البخاري (5013).

[3] صحيح مسلم (812).

الأمر الثاني: لماذا؟ أو ما وجه كونها تعدل ثلث القرآن؟ لماذا استحقت هذا الوصف؟ الجواب عن هذا أن يقال: إن القرآن العظيم، إما عقائد أو أحكام أو أخبار. من تأمل القرآن بمجمله، فيجد أنه لا يخرج عن أحد هذه الأبواب الثلاثة، إما أنه عقائد، معتقد، وإما أخبار، كالذي جرى بين الأنبياء وأممهم، أو أحكام في الحلال والحرام، فكانت سورة الإخلاص تتعلق بالثلث الأول، بل هي أسه وأصله، فلهذا كانت تعدل ثلث القرآن، فجميع ما في القرآن من عقائد يؤول إليها؛ لأنه مرجوعه إلى التوحيد العلمي، هذا وجه كونها تعدل ثلث القرآن.

هل هي تعدل ثلث القرآن في الإجزاء، أم في الأجر والثواب؟ الثاني، لا في الإجزاء، يعني بمعنى لو أن إنسانًا نذر أن يختم القرآن، فقال: الحمد لله، إذن أقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات فأكون وفيت بنذري. نقول: كلا، هي لا تعدله في الإجزاء، لا يجزئك إلا أن تقرأ القرآن، ما بين دفتي المصحف. لكنها تعدله في الثواب والأجر، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ينطبق على أمثالها من النصوص، يعني مثلًا قد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ، يَوْمَهُ ذَلِكَ، حَتَّى يُمْسِيَ وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ)[1]، فقال: أنا عليَّ كفارة قتل خطأ، وكفارة ظهار، وكفارة يمين، وكفارة جماع في نهار رمضان، أقول: لا إله إلا الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عشر مرات، وتبرأ ذمتي. يستقيم؟ لا يستقيم، يقال: إنها تعدل في الأجر، لا في الإجزاء. وعلى هذا قس.

لنتأمل في هذه السورة العظيمة، كيف جمعت بين النفي والإثبات؟.

قال: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}: نفيٌ؟ أم إثبات؟ إثبات، إثبات وحدانية الله، فالله أحد، واستدللنا بهذا على أن أحد من الأسماء الحسنى، فيجوز أن يُعبّد به، فنقول: عبد الأحد، { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } [الإخلاص: 1]، إذن أثبتت وحدانية الله تعالى.

قال: {اللَّهُ الصَّمَدُ}: نفيٌ؟ أم إثبات؟ إثبات، أثبتت صمدية الله سبحانه وتعالى، أو صمدانيته سبحانه وبحمده، وما معنى الصمد؟ **الصمد قيل في معناها أقوال لا تعارض بينها:**

القول الأول: قيل: إن الصمد هو من تصمد إليه الخلائق بحاجاتها. من تصمد له الخلائق بحاجاتها، بمعنى أنها تتوجه إليه بحاجاتها، وهذا هو الحال بالنسبة لله، فالله تعالى يدعوه من في السماوات ومن في الأرض، الجميع يتوجه إلى الله سبحانه وبحمده، تأمل حال الناس يوم عرفة، الجميع رافعٌ يديه يبكي ويسأل ويتضرع، يسأل الله تعالى طلبته، والله يصمد، يسمع جميع الدعوات، على اختلاف اللغات واللهجات لمختلف الحاجات، ويجيب دعوة الداعي سبحانه وبحمده، لهذا كان صمدًا، فهذا أحد المعاني للصمد، من تصمد إليه الخلائق بحاجاتها.

[1] صحيح البخاري(3293)، صحيح (2691).

القول الثاني: قيل: الصمد أي الذي لا جوف له. لأن الصمد بمعنى الصمت، فالمصمد هو المصمت، ووجه ذلك أن الله سبحانه وبحمده غنيٌ عما سواه، فالذي له جوف فيه شيءٌ يدخل وفيه شيءٌ يخرج، فيكون غير مستغنٍ، أما الرب تعالى فإنه صمد بمعنى أنه صمت لا يحتاج إلى شيء داخل وشيء خارج، الآدميون يحتاجون إلى أفواهٍ يدخل منها الطعام والشراب، وإلى مخرج للفضلات؛ لأنهم بحاجة، لهذا ورد في الحديث: أن الله لما خلق آدم من صلصالٍ كالفخار، جعل الشيطان يطيف به، مستريبٌ في أمره، فلما رآه أجوف، علم أنه خلقٌ لا يتمالك، يعني أنه ضعيف، فالله تعالى صمد، فقول بعض المفسرين: لا جوف له. المقصود بذلك أنه مستغنٍ عما سواه، لا يحتاج سبحانه إلى شيء.

القول الثالث: قيل: معنى الصمد أي السيد الشريف الذي بلغ الغاية في سؤدده وشرفه.

ولا تعارض بين هذه الأقوال كما أسلفنا، فالله تعالى هو السيد الشريف الذي تصمد إليه الخلائق بحاجاتها، وهو غنيٌ عما سواه سبحانه وبحمده.

قال: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}: نفيٌ؟ أم إثبات؟ نفي، نفى قضيتين: الولادة من الطرفين، من أعلى ومن أسفل، يعني نفى التسلسل من جهة الأعلى ومن جهة السفل، فهو سبحانه لم يلد، فلا يتسلسل منه مولود، كما ادعى اليهود بقولهم: عزير ابن الله. والنصارى بقولهم: المسيح ابن الله. ومشركو العرب بقولهم: الملائكة بنات الله. تعالى الله عن ذلك، وهذا وهمٌ وخاطرٌ يطرأ على العقول، يظنون أن من كمال الله أن يكون له ولد، قياسًا على المخلوقين، والأمر ليس كذلك، المخلوق يحتاج إلى الولد؛ لأنه في حال كبره وضعفه يحتاج إلى من يعينه، أما الرب سبحانه فهو غنيٌ عما سواه، فهو لا يحتاج إلى الولد.

أيضًا من شأن الولد أن يكون شبيهًا بأبيه، والله تعالى لا ند له ولا نظير ولا مثيل، {ليس كمثله شيء}، فلو كان له ـ وحاشاه ـ ولد، لكان الولد من جنس أبيه، هذا طبيعي، فلأجل ذا نزه الله نفسه عن الولد، فلكمال وحدانيته لا ولد له، {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ } [الفرقان: 2]، فعاب الله تعالى على مدَّعي ذلك فقال: { وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ } [التوبة:30]، وذلك أن الأمم الكافرة من الهندوس واليونان وغير ذاك عندهم قضية تعدد الآلهة، فهم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل، {قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [التوبة: 30]، سبحانه وبحمده.

أيضًا لم يولد سبحانه، فليس متسلسلًا عن غيره، والواقع أنني لا أعلم قائلًا بأن الله تعالى متولدٌ عن كذا وكذا، لكن ذلك في الآية لكمال القسمة، لنفي التسلسل من الجهتين، من جهة العلو ومن جهة السفل، يعني من الأعلى والأدنى، لكي لا يبقى أي باقية وأي احتمال يتنافى مع وحدانية الله سبحانه وبحمده، {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ} [الإخلاص: 3].

قال: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}: نفيٌ؟ أم إثبات؟ نفي، إذن آيتان في الإثبات، وآيتان في النفي، ما معنى: { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص: 4]؟ أي ليس له مكافئ سبحانه، ليس له من يكافئه ويعادله سبحانه وبحمده.

ولهذا كانت هذه السورة فيها من تعظيم الرب وتنزيهه والتعريف به، ما لا يوجد في غيرها، فينبغي الإكثار منها وتلاوتها، وورد فيها فضائل خاصة مبسوطة في كتب التفسير والسنة.

الدرس (7)

الجمع بين النفي والإثبات (2)

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } [البقرة: 255]، {وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا }: أي لا يكرثه ولا يثقله، ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلةٍ، لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح.**

هذا هو المثال الثاني في قاعدة الجمع بين النفي والإثبات فيما وصف وسمى به نفسه.

قال: وَمَا: الواو هذه عطف على قوله: وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه. أي وما وصف به نفسه في أعظم آية في كتابه. من أين لنا أن هذه هي أعظم آية في كتاب الله؟ ففي الحديث الصحيح عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟)، فقلت: الله ورسوله أعلم، قَالَ: يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟ قَالَ: قُلْتُ: {اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}. قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ)[1] ، يعني هنيئًا لك العلم أبا المنذر، فقد كان من فقهه أن رأى أن هذه الآية أعظم آية في كتاب الله، فأقره النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك وهنأه، فلو تأملنا في هذه الآية العظيمة لوجدناها مكونة من عشر جمل، وهي تدور حول النفي والإثبات، تأملوا معي

قال: {اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}: لا إله إلا هو، نفيٌ وإثبات؛ لأن كلمة التوحيد لا إله إلا الله نفيٌ وإثبات، فلا إله: نفي، إلا الله: إثبات، فقد نفى الله تعالى كل آلهةٍ سواه، وأثبت الألوهية له وحده، وقد تقدم معنا أن معنى الإله هو من تألهه القلوب محبةً وتعظيمًا، الإله من تألهه القلوب يعني تنجذب إليه محبةً وتعظيمًا، فلا إله إلا الله، الله لا إله إلا هو، هذا

[1] صحيح مسلم (810).

أعظم تعريف يمكن أن نعرف به هذا الاسم الشريف، إذا قيل: ما الله؟. يقال: لا إله إلا هو. إذن هذه الجملة الأولى متضمنة الجمع بين النفي والإثبات.

قال: {الْحَيُّ الْقَيُّومُ}: هذه الجملة الثانية، نفيٌ؟ أم إثبات؟ إثبات، وقد أثبت في هذه الجملة اسمين كريمين وهما: الحي

والقيوم، فمن أسماء الله الحسنى الحي، والحي هو من له الحياة التامة الكاملة، فحياة الله تعالى غير مسبوقةٍ بعدم، ولا يلحقها فناء.

قد يطلق اسم الحي على غير الله، كقول الله تعالى: { يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ }[يونس: 31]، فيمكن أن يطلق على غير الله الحي، كما نقول مثلًا: الأشجار هذه من الأحياء، أو غيرها من الحيوانات. يطلق، أنت يقال عنك: حي. لكن فرقٌ بين حياة وحياة، حياتك وحياتي وحياة كل حي مسبوقة بعدم، ويلحقها فناء، قال: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} [مريم: 9]، ويلحقها فناء: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [غافر: 16]، فلا يجيبه أحد {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: 16]، هكذا حياة المخلوقين، أما حياة الربِ سبحانه فهي حياةٌ كاملةٌ تامة، غير مسبوقة بعدم ولا يلحقها فناء.

أيضًا هو القيوم، ما معنى القيوم؟ القيوم أي القائم بنفسه المقيم لغيره، القائم بنفسه بمعنى أنه سبحانه وبحمده غنيٌ عما سواه، مستغنٍ عما سواه، لا يحتاج إلى شيءٍ من خارجه، فهو لا يستكثر بخلقه من قلة، ولا يستعز بهم من ذلة، سبحانه وبحمده، وأيضًا مقيم لغيره، فلا قيام لشيءٍ إلا بالله: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ } [الروم: 25]، فالعرش فما دونه لا قيام لهم إلا بالله، { إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا } [فاطر: 41]، فلا قيام لشيء إلا بالله عز وجل، ولهذا قال من قال: إن هذين الاسمين هما اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى. وقد وردا مقترنين في ثلاثة مواضع في القرآن:

الموضع الأول: هذا الموضع آية الكرسي.

الموضع الثاني: في مستهل آل عمران: {الم (1) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} [آل عمران: 1، 2].

الموضع الثالث: في طه: {وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ} [طه: 111].

وقيل: إن سبب كونهما اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، أنهما دالان على مجموع الصفات الذاتية والفعلية. فاسمه الحي يدل على اتصافه بالصفات الذاتية الملازمة لذاته سبحانه، فحياته كاملة فيها جميع الصفات المستلزمة للحياة من السمع والبصر والإرادة والعلم والكلام وغير ذلك، فالحياة التامة الكاملة مستلزمة لهذه الصفات الأخرى، والقيوم يدل على صفاته الفعلية؛ لأن القيوم من يقيم غيره، فهو سبحانه الفعال الخلاق الرزاق، فاجتماع هذين الاسمين يدل على كمال الله تعالى في أسمائه وصفاته الذاتية والفعلية.

قال: {لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ}: نفيٌ؟ أم إثبات؟ نفي، نزه الله تعالى نفسه عن هذين الحالين: السنة والنوم، أما السنة فهي النعاس، النوم الخفيف، وأما النوم فهو أثقل من ذلك، فالله تعالى قد نزه نفسه عن قليله وكثيره، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُهُ)[1]، فهو سبحانه وتعالى منزهٌ عن النوم، النوم ناتج عن ضعف، نحن الآدميين مهما أرق الإنسان لا بد أن ينام، لا بد أن يتهاوى بدنه ويضعف ذهنه، فيخلد إلى الراحة، شاء أم أبى، لكن الرب عز وجل منزهٌ عن هذا الضعف، فلهذا لا تأخذه سنةٌ ولا نوم، ولا ينبغي، كما جاء في أثر أن موسى بن عمران سأله قومه فقالوا: يا نبي الله! أينام ربك؟. فقال: اتقوا الله، ولا تكونوا من الجاهلين. استعظم هذا السؤال منهم، قالوا: نريد آية أو علامة على ذلك. فأوحى الله تعالى إليه أن يا موسى إذا كان من الليل فقم بجرتين، خذهما معك وأنت تصلي، فقام عليه الصلاة والسلام يصلي، فغلبه النعاس، فاصطكت يداه وانكسرت الجرتان، كما جاء في الأثر، فأوحى الله إليه أن يا موسى أينبغي لمن يمسك السماوات والأرض أن تزولا أن ينام؟. يعني لو كان كذلك. وحاشاه. لفسد أمر السماوات والأرض؛ لأن قيامهما يحتاج إلى حياةٍ تامة، لا يلحقها سنة ولا نوم.

قال: { لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ }: نفيٌ؟ أم إثبات؟ إثبات، لاحظوا كيف يجمع الله بين النفي والإثبات؟ فهو سبحانه وتعالى له الملك المطلق، له ما في السماوات وما في الأرض، إذن إذا قلت أنت: بيتي وسيارتي ومالي. فهذه ملكية مؤقتة، {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [مريم: 40]، الله خير الوارثين، الله يرث كل شيء، فملكك ملك نسبي، وإن صحت إضافته إليك، وتمليكك إياه، لكنه مؤقت، أما ملك الله فهو ملكٌ مطلق، { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: 22].

قال: {مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ}: هذا الاستفهام يراد به النفي، أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، إذن هذه الجملة نفي، أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، فدل ذلك على أنه يُشترط في الشفاعة المثبتة إذن الله للشافع، ما يمكن لأحد أن يشفع عند الله إلا بعد إذن مسبق؛ لأن الشفاعة لله جميعًا، وثم شرطٌ آخر وهو المذكور في قول الله تعالى: {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى } [الأنبياء: 28]، وجمع الله بين الشرطين في آية النجم فقال: { وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى } [النجم: 26]، فهذا هو معنى أن الشفاعة لله جميعًا، فالشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند ملوك الدنيا، الشفاعة عند ملوك الدنيا تحصل وتمضي إما رغبةً أو رهبة، إما لكون المشفوع عنده يريد أن يستميل الشافع ويرغبه، أو يدفع أذاه وشره، أما الله عز وجل فغنيٌ عن خلقه لا يرغب بموالاة أحد، ولا يستدفع شر أحد سبحانه وبحمده، { وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ}[الإسراء: 111]، يعني بسبب الذل، {وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: 111].

[1] صحيح مسلم (295).

قال: {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ}: نفيٌ؟ أم إثبات؟ إثبات، لاحظ نفي إثبات، نفي إثبات، والمعني أن الله تعالى له العلم المطلق، فهو سبحانه يعلم ما يستقبله الناس وما استدبروه، وقيل بالعكس، والمقصود أن علم الله تعالى محيط بالناس جميعًا، فقد أحاط علمه بكل شيء، ما كان وما يكون وما سوف يكون، بل وما لم يكن كيف لو كان يكون؟.

قال: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ}: نفي، نفى أن ينال أحدٌ من علمه إلا بالقدر الذي يأذن ويفسح به، ولما خرج موسى صلى الله عليه وسلم مع الخضر في الرحلة المعروفة، حينما صحبه ووقفا على سيف البحر جاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر من ماء البحر نقرةً أو نقرتين بمنقاره، فقال الخضر لموسى: ما تظن أن العصفور نقص من ماء البحر؟. فقال موسى: وما عسى أن ينقص من ماء البحر؟. يعني منقار العصفور ماذا يمكن أن ينقص من ماء البحر؟، قال الخضر: فإن علمي وعلمك وعلم الناس جميعًا في علم الله كما نقص هذا العصفور من ماء البحر. تبارك الله، {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 85]، وتأسف حينما تجد بعض المتهوكين السفهاء الذين يقولون: الآن تمكن العلم استكشاف كل شيء، وتقدم الطب وتقدم الفلك. كل هذا بمجموعه وأضعافه ليس في علم الله إلا نقطة من بحر، ليس بشيء، {وَمَا أُوتِيتُمْ} [الإسراء: 85]، يعني أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 85]، فلا يذهب بك الوهل إلى أن هذا كان فيما مضى، وأن الآن اختلف الحال، لا، هذه لا تمثل من علم الله شيئًا، نقطة من بحر.

قال: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ}: ما الكرسي؟ الكرسي فسره ابن عباس -رضي الله عنه- بأنه موضع القدمين، فالكرسي غير العرش، العرش هو أعظم المخلوقات وأعلاها وأكبرها، وهو سقف العالم، والعالم كله تحته، أما الكرسي فقد فسره ابن عباس بتفسير لا يمكن إلا أن يكون له حكم الرفع؛ لأن مثل هذا لا يمكن أن يقال إلا عن طريق معصوم، فقد تلقاه ابن عباس ـ والله أعلم ـ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: هو موضع القدمين. وقد جاء في حديث: [ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة من حديد ألقيت في فلاة من الأرض]، أرأيت لو أنك ألقيت حلقة من حديد في الربع الخالي أو في صحراء الدهناء، ماذا تمثل؟ كذلك السماوات السبع والأرضون السبع بالنسبة للكرسي.

قال: {وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا}: فسر قوله: { وَلَا يَئُودُهُ} أَيْ: **لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ**، فقد يتوهم متوهم كما توهمت يهود أن هذا مدعاة للتعب والكلال، أن كيف يُدار أمر السماوات والأرض، أجرامها العلوية ومخلوقاتها الأرضية، كيف تدار؟ هذه مما يستدعي التعب والعنت، فقال: { وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا} [البقرة: 255] أَيْ: لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ حفظ السماوات والأرض، إذن الجملة {وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا} [البقرة: 255]، نفي، نفى الله عن نفسه التعب والعنت والمشقة كما قال: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ} [ق: 38]، خلافًا لما ادعته

يهود في كتبهم في العهد القديم في سفر التكوين: إن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع. تعالى الله عما يقولون، فنزه الله نفسه عن هذا.

قال: {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}: إذن الجملة الأخيرة إثبات، أثبت الله لنفسه اسمين عظيمين وهما العلي والعظيم، فالله تعالى من أسمائه الحسنى العلي، فله العلو المطلق، والعلو ثلاثة أنواع: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، وكلها ثابتة لله تعالى، فعلو الذات هو إثبات أن الله تعالى بذاته سبحانه وبحمده فوق سماواته مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه ولا في خلقه شيءٌ منه، فيجب على كل مؤمن أن يعتقد أن الله تعالى بذاته في أعلى ما يكون، يعني فوق السماوات والأرض وجميع الملكوت، فوق عرشه سبحانه مستوٍ على عرشه، لا يجوز أن يعتقد أحد أن الله في كل مكان كالهواء والنور، وأنه كما يقول بعض الناس يقول: ربنا في كل مكان. لا، هذا غير صحيح، علمه في كل مكان، أما هو بذاته سبحانه وبحمده فمنزهٌ عن مخالطة خلقه، لا يمكن أن يحويه شيءٌ من مخلوقاته، بل له العلو المطلق سبحانه وتعالى، وهو على علوه فهو قريب، يعلم ويسمع ويرى ويدبر الأمر ويكشف الضر، إلى غير ذلك من صفات ربوبيته.

أيضًا له علو القدر، والمقصود بعلو القدر يعني كمال الصفات، فكل صفة كمال فهو مستحقٌ لله، { وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} [الروم: 27].

أما النوع الثالث فهو علو القهر لقول الله تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام: 18، 61] فقد قهر جميع مخلوقاته، فلا شيء يخرج عن ملكه.

قال: {الْعَظِيمُ}: يعني من له صفة العظمة، ولاشك أن الله تعالى عظيمٌ في ذاته وأسمائه وصفاته، لا يحيط به عقل، ولا تبلغه الأوهام، ولا تدركه العقول سبحانه وبحمده.

فلهذا كانت هذه الآية آية عظيمة، بل هي أعظم آية في كتاب الله، كان من آثارها ما نبه عليه الشيخ في قوله: **ولهذا من قرأ هذه وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ**. قد دلَّ على هذا حديث أبي هريرة حينما استودعه النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة، يعني جعله حافظًا وأمينًا على طعامٍ لبيت المال، فلما كان من الليل أتى حاثٍ يحثو من الصدقة، يعني يأخذ منها العيش والبر الموجود، فقبض عليه أبو هريرة، فجعل يتوسل لأبي هريرة ويقول: إنه صاحب عيال وقليل ذات اليد. فرقّ به أبو هريرة وأطلقه، فلما أصبح قال له النبي صلى الله عليه وسلم: [ما حال أسيرك البارحة يا أبا هريرة؟]، قال: يا رسول الله إنه ذكر حالًا وعيالًا فرققت عليه فأطلقته، قال: [أما إنه سيعود]، فلما كان من الليلة الثانية جاء يحثو من الصدقة، فقبض عليه أبو هريرة، فذكر ما ذكر فرق له أبو هريرة وأطلقه، فأصبح النبي صلى الله عليه وسلم يسأله، قال: [أما إنه سيعود]، فما كان في الثالثة استجمع أبو هريرة وقبض عليه قال: هذه ثالث مرة تأتي، والله ما أطلقك حتى أسلمك لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال: إني أعلمك شيئًا. وما كان أحد أحرص على العلم من أبي هريرة. فتطلقني. فشارطه على هذا الشرط، فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} فإنه لا يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان، حتى

تصبح. فأطلقه، لشغفه وحبه للعلم، فلما أصبح حدث النبي صلى الله عليه وسلم بما جرى، قال: [صدقك وهو كذوب]، فقوله: [صدقك] إقرارٌ لهذه الفائدة، وهي أن من أوى إلى فراشه فقرأها لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان، حتى يصبح، حرزٌ أمين، إذا قالها الإنسان معتقدًا لها، فإن الله يحفظه، فلا يلحقه أذى بنص إقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم، [أتدري من تخاطب يا أبا هريرة منذ ثلاث؟]، فذكر له أنه شيطان، لذلك قال: [وهو كذوب].

إذن تبين لنا أن آية الكرسي جمعت بين النفي والإثبات.

📖قال المؤلف –رحمه الله–:

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[الحديد: 3]. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [الفرقان: 58]. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَه: {الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [التحريم: 3].

هذه أيضًا آيات دالة على النفي والإثبات، أو تقابل الصفات.

قال: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ}: هذه أربعة أسماء حسنى لله تعالى، أثبتها لنفسه في كتابه، وأثبتها نبيه صلى الله عليه وسلم له في سنته، فقال في مناجاته لربه: (اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ)[1]، إذن كفينا تعريفها، عرفها لنا نبينا صلى الله عليه وسلم بأوضح عبارة، فلا نحتاج أن نقول: الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء. لا، ما دام قد عرفها النبي صلى الله عليه وسلم بهذا التعريف فلا تعدل به شيء، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، فهو أقرب من كل شيء إلى كل شيء.

إذن هذه أربعة أسماء متقابلة قال عنها ابن القيم ـ رحمه الله ـ: (إنها تضمنت إحاطة الله الزمانية والمكانية)، فإحاطة الله الزمانية باسميه الأول والآخر، وإحاطة الله المكانية باسميه الظاهر والباطن، فدل على إحاطته بكل شيء.

قال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ}: جمعٌ بين النفي والإثبات؛ لأن الحي يدل على إثبات صفة الحياة، وقوله: {لَا يَمُوتُ} لضد الحياة وهو الموت، ومعنى توكل أي اعتمد بقلبك اعتمادًا صادقًا، هذه حقيقة التوكل، التوكل هو اعتماد القلب على الله عز وجل في جلب المنافع ودفع المضار، فهذه حقيقة التوكل وهي من أجل العبادات، ليست من أضعفها كما يدعي الصوفية، لا بل هي من أجلِّ العبادات في الواقع؛ لأنها تدل على الثقة بالله سبحانه وتعالى، وتأمل قوله: {الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ} [الفرقان: 58]، من توكل على غير الله فقد توكل على من يموت، وإذا مات وكيلك بقيت بلا وكيل، أما الله تعالى فهو وكيلٌ لا يموت سبحانه وبحمده، فهذا يؤدي إلى طمأنينة القلب: { الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ } [الفرقان: 58].

أنا عندي في نسختي {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}، وقد تقدم بيانها في آية الكرسي، ثم {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}.

[1] صحيح مسلم (2713).

قال: {الْحَكِيمُ}: من له الحكمة، والحكمة مأخوذة من الإحكام وهو الإتقان، وهو وضع الشيء في موضعه، فالله سبحانه وتعالى حكيمٌ بمعنى أنه حكيم في شرعه وحكيم في قدره سبحانه وبحمده.

قال: {الْخَبِيرُ}: أيضًا، ومعنى الخبير يعني من يعلم بتفاصيل الأمور ودقائقها، يعني فهو علمٌ تفصيلي.

كل هذا مما يدل على الإثبات فيما وصف وسمى به الرب نفسه سبحانه وبحمده.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والله أعلم.

الدرس (8)

إحاطة علمه بجميع مخلوقاته

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وقوله: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: 18]، [يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} [سبأ: 2]، {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: 59]، [وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ] [فصلت: 47]، [لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12]، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 58].

الشيخ –رحمه الله– قد ذكر جملة من الآيات الدالة على الجمع بين النفي والإثبات في صفات رب العالمين، أو ذات المعاني المتقابلة كقوله تعالى: {هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[الحديد: 3] ثم إنه شرع –رحمه الله– في ذكر آيات تدل على صفات معينة انتخبها من كتاب الله عز وجل، لم يقصد بها الحصر والإحاطة، وإنما أراد أن يبين أن طريقة أهل السنة والجماعة طريقة مطردة في الإثبات سواء في ذلك الصفات الذاتية، وهي التي تسمى عند بعضهم: المعنوية، والصفات الخبرية والصفات الفعلية وأن القول فيها واحد، وأنه يساق فيها الإثبات سوقًا واحدًا لا يفرق بين صفة معنوية ولا صفة فعلية، بل يطرد القول فيها على نسق واحد، فالقول فيها جميعًا هو الإثبات والإمرار والإقرار، لا يُتعرض لها بتحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

فهذه الآيات على سبيل المثال تدل على علم الله تعالى المحيط بكل شيء، وصفة علم الله من أخص صفاته وأشهرها فالله تعالى يعلم كل شيء تأمل قال الله تعالى: {وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام: 18]، أين الدلالة على العلم؟ قوله: [الْخَبِيرُ]، لأن الخبير هو الذي يعلم دقائق الأمور وتفاصيلها والآية دلت على اسمين اثنين من أسمائه الحسنى وهما الحكيم والخبير، فالحكيم هو من له الحكمة، وأظن هذا تقدم في شرح سابق، والحكمة تعني وضع الشيء في موضعه، وهي

تعني الإحكام والإحكام هو الإتقان، ومنه سميت الحَكَمَة التي توضع في لجام الفرس حَكَمَة لأنها تحكم سيره، والله تعالى حكيم في شرعه حكيم في قدره، فلا يشرع أمرًا إلا وفيه مصلحة متحققة حالًا ومآلًا، كذلك هو حكيم في قدره فكل ما يقضيه الله تعالى ويكتبه فهو الموافق للحكمة قطعًا، سواء بدت لنا هذه الحكمة أم لم تبد، فربما تساءل بعض الناس لم كان كذا؟ لم كان كذا؟ لم خلق الله كذا؟ هذا قد يظهر لأحد ويخفى على أحد لكنه على كل تقدير له الحكمة البالغة في كل شيء.

كما أن من معاني الحكيم من له الحكم، فالله تعالى له الحكم في الدنيا والآخرة فهو سبحانه وتعالى يحكم ما يشاء ويقضي ما يريد في هذه الحياة الدنيا، ويحكم في الآخرة ففريق في الجنة وفريق في السعير.

إيمانك أيها المؤمن بأن الله حكيم يسكب في قلبك الطمأنينة، وهذا معنى أرجو أن تنتبهوا إليه معشر طلبة العلم أن كل اسم من أسماء الله الحسنى فله أثر على المؤمن، له أثر مسلكي، وله أثر علمي، ما أخبرنا الله تعالى بهذه الأسماء لمجرد أن نعدها عدًّا بأصابعنا، لا، بل لها ثمرة ولها أثر بالغ على قلب الإنسان، فأنت على سبيل المثال حين تعلم أن الله تعالى حكيم يذهب عنك كل وسواس بعدم حصول حكمة فيما قضاه أو فيما شرعه، بل يمتلئ قلبك يقينًا بأنه لا يقضي الله على المؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، وأنه لا يوجد في هذه الدنيا شيء يقع فلتة أو خبط عشواء أو ضربة لازب، كما قد يعبر بعضهم، أبدًا قد وزن الله تعالى الأمور بميزان دقيق فثق بالحكيم، واعلم أنه سبحانه وتعالى منزه عن ضد الحكمة، ما ضد الحكمة؟ السفه والطيش، حاشاه سبحانه أن يكون شيء في أفعاله، أو شيء في أقداره، أو شيء شرعه شيء من ذلك، فهو سبحانه وتعالى حكيم فحينئذٍ يطمئن المؤمن إلى قدره ويطمئن إلى شرعه تأمل: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} [الحديد: 22] ما الثمرة؟ {لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد: 23].

قال: {الْخَبِيرُ}: كذلك هو سبحانه الخبير وهذا هو موضع الشاهد بما يتعلق بالعلم، فقد علم ربنا دقائق الأمور وتفاصيلها، وذلك أنه قد وجد من أهل البدع من يزعم أن الله يعلم علمًا كليًا لا جزئيًا، ومنهم من يقول: إنه يعلم علمًا مجملًا لا تفصيليًا. والحق أن ربنا سبحانه وبحمده يعلم بالأشياء كليًا وجزئيًا، إجماليًا وتفصيليًا لا تخفى عليه خافية، ويبينها الآيات التي بعدها قال سبحانه وبحمده: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} [سبأ: 2]، إذن جميع هذه الأمور هي أشياء متقابلة قد أحاطت بكل شيء.

قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ}: في نظركم ما الذي يلج في الأرض ماذا يلج في الأرض؟ المطر حينما يسلكه الله في الأرض، وحينما تلقى البذور في الأرض هذه تلج في الأرض، والدواب الدويبات التي تتخذ لها جحورًا في الأرض الله تعالى يعلم ما يلج في الأرض، أنت ترى النملة تسير لكن لا تدري أين تمضي؟ تدخل في شق من شقوق الأرض تأوي إليها من كبير الحيوانات وصغيرها مما يتخذ له في الأرض مسكنًا، الأموات ممن يلج في الأرض ويدفنون ويرون الثرى أشياء كثيرة تلج في الأرض.

قال: {وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا}: ما الذي يخرج من الأرض؟ يخرج النبات، تنبع العيون، يبعث الناس يوم القيامة فيخرجون من الأجداث، وهكذا المعادن البترول وما غير ذلك كل ذلك يخرج من الأرض صورتان متقابلتان.

قال: {وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا}: ما الذي ينزل من السماء؟ المطر ينزل من السماء، الوحي ينزل من السماء، الملائكة تنزل من السماء، الشهب النيازك تسقط من السماء إلى غير ذلك.

وما الذي يعرج فيها؟ أشعة الشمس تأتي، ومعنى يعرج أي يصعد ماذا يصعد إلى السماء؟ {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10]، أرواح بني آدم تصعد إلى السماء، الملائكة تعرج في السماء وهكذا أشياء كثيرة.

يعني إذا ذهبنا لوجدنا أن كل شيء إما داخل في الأرض وإما خارج منها، إما نازل من السماء وإما صاعد فيها، إذن هذا يدل على إحاطة علم الله بكل شيء.

أيضًا تأمل الآيات التي بعدها: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ} [الأنعام: 59]، مفاتح جمع ماذا؟ مفتح، ومفاتيح جمع مفتاح، وهما بمعنى واحد، {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} [الأنعام: 59] انتهى، إذن أصل الغيب وسره عند الله عز وجل، لا يعلمه إلا هو، وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه المفاتح بما تلاه من آخر سورة لقمان: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 34] فقال: [مفاتح الغيب خمس]، وإذا تأملت في هذه الخمس وجدت أن الله سبحانه وتعالى مستقل بعلمها.

قال: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ }: والدنيا الأرض إما بر وإما بحر، ويعلم ما، وما بمعنى الذي، ولم يقل: من. بل أتى بما التي تشمل العاقل وغير العاقل، {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام: 59] وماذا في البر من كائنات مرئية وغير مرئية؟ شيء لا يحيط به وصف، وماذا في البحار؟ أضعاف ذلك من يتاح له أن ينظر في بعض البرامج التليفزيونية التي تحكي حياة البحار انبهر وأذهله ما فيها من أنواع المخلوقات العجيبة، كلها في البحر، فالله تعالى يعلم ما في البر والبحر.

قال: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا }: الله أكبر، ما تسقط من ورقة، ورقة شجر أو غيرها إلا يعلمها يعلم متى انفكت من أصلها ويعلم حتى وصلت إلى الأرض، أنت لو استعلمت على شجرة واحدة أمام بيتك، أو داخل بيتك، لتحصي ما يسقط منها من ورق، لوجدت عناء شديدًا ولم تحط، وربنا سبحانه وبحمده {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا} [الأنعام: 59]، تخيل هذه الغابات الممتدة في الكرة الأرضية كل ورقة تسقط فالله يعلمها {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا} [الأنعام: 59].

قال: {وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ}: الله أكبر، ولا حبة، أحيانًا يتاح لك مثلًا في البرية أن ترفع حجرًا فتجد حبيبات قد حملتها الحشرات وغيرها وأخفتها في هذا الموضع، الله يعلمها.

قال: {وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ}: والأشياء إما أن تكون رطبة أو أن تكون يابسة، اليابسات كالحجر، والرطب كالنبات ونحو ذلك.

قال: {إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}: ما ذاك الكتاب؟ هو اللوح المحفوظ الذي أحصى الله تعالى فيه كل شيء.

هذه الآية العظيمة معشر طلبة العلم تملأ قلب المؤمن إيمانًا باطلاع الله تعالى على كل شيء، وأن الله لا تخفى عليه خافية، والأثر المسلكي بعلم المؤمن بعلم الله المحيط لكل شيء يورثه رقابة الله، فهو إذا أوصد الأبواب وأرخى الستور علم أن الله يراه، وإذا حدثته نفسه بشيء علم أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفيه الصدور، يعني يجعل الإنسان مكشوفًا أمام الله عز وجل، فيحمله ذلك على التعرض لمراضيه، ويحمله ذلك على البعد عن مساخطه، لعلمه بأن الله تعالى يعلم جميع حاله.

كما أنه أيضًا يسكب في قلبه الطمأنينة فإذا ضاقت به المذاهب وتعرض للأزمات وغير ذلك، وشعر أن الله تعالى يعلم بحاله ويسمع كلامه ويرى مكانه، اطمأن وشعر بأنه ليس مفردًا ولا متروكًا، بل هو في عين الله وتحت سمع الله وبصره وفي علمه، وكل هذه من الآثار العظيمة للإيمان بأسماء الله الحسنى وصفاته، فتجده يقول: يا من ترى مكاني وتسمع كلامي وتعلم بحالي. فهذا يجعله قريبًا من ربه عز وجل فلا تخفى عليه خافية.

قال: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى}: لاحظوا، أنثى هنا نكرة في سياق النفي أو الشرط {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ} [فاطر: 11]، إذن أنثى تدل على العموم، فلا يختص هذا بإناث بني آدم كما قد يتبادر إلى الذهن، بل أي أنثى من الإناث، والله تعالى خلق المخلوقات من زوجين، ففي الطيور ذكور وإناث، وفي الدواب والحشرات ذكور وإناث، بل حتى في الكائنات الميكروسكوبية ذكر وأنثى، فضلًا عن بني آدم، كذا في الأسماء، كذا في الطيور إلخ، وبالتالي فإن علم الله تعالى محيط بهذا كله.

ثم تأمل أنه قال: {وَمَا تَحْمِلُ} {وَلا تَضَعُ} فالأمر يتعلق أيضًا بالتوقيت، فقد يقع الحمل ولا يشعر به لا الزوج ولا الزوجة لكن الله يعلمه، يعلم مبتدأه، والوضع كذلك لا يعلمه إلا هو، ولهذا قال {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ}[فاطر: 11]، وقال في الآيات الأخرى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: 8]، فهذا يدلنا على إحاطة علم الله تعالى بجميع المجريات، ليمتلئ القلب بهذا، فإن امتلأ القلب بعلم الله المحيط بكل شيء يعلق القلب به، ويشعره بالانجذاب إليه وهذا فضل العلم بأسماء الله الحسنى.

قال: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}: هذا ختم الله به الآية التي صدرها: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} [الطلاق: 12]، ما ثمرة هذا؟ {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12].

إن الناظر بعين البصيرة في خلق السماوات والأرض، وما أودع الله تعالى فيها من الآيات، وما ركبهما عليه من النظام البديع والتناسق العجيب، يثمر عنده العلم بهاتين الحقيقتين: قدرة الله، وعلم الله، فما كان هذا البناء العظيم وهذا النسق البديع ليتم وليجري، إلا لكون خالقه قديرًا وكونه عليمًا، فلهذا قال: {لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12]، إذن ربنا سبحانه وتعالى علمه محيط بكل شيء، لا تخفى عليه خافية، لا يغيب عنه، بل {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ} [سبأ: 3] ، فرق بين من يعلم هذا ومن لا يعلم فرق: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 9]، فهذا من صفات الله التي أجمع عليها كل من ينتسب إلى لإسلام ويستقبل القبلة، بل وجميع أهل الملل يثبتون لله العلم المطلق.

قال: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}: هذه جاءت وقد لا يكون لها صلة بآيات العلم، الرزاق يعني صاحب الرَّزق، فالله تعالى هو الرزاق الحق، ورَزق الله نوعان: رَزق حسن، ورَزق غير حسن، لأن الله تعالى لما ذكر قال: {وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا} [النحل: 67]، فعلمنا أن الرَّزق منه ما يكون حسنًا، وهو ما كان على وجهه وفي طاعته، ومنه ما يكون سوى ذلك؛ لأن الله تكفل لكل دابة برزقها: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا} [هود: 6]، ومن الناس من يسترزق بغير ما أحله الله لكن الله تعالى تكفل بالرزق لجميع خلقه، فهو الرزاق سبحانه، وإن كان هو الرزاق ما هي الثمرة المسلكية التي تنعكس على المؤمن؟ أن يطلب الرزق منه، ولهذا قال في سورة العنكبوت: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ} [العنكبوت: 17]، إذن الرزق يطلب من الرزاق لا يطلب ممن سواه، بعض الناس يجري على لسانه أن يقول: والله فلان قطع رزقي. لا يقطع رزقك فلان ولا علان، الرزاق حقًا هو الله عز وجل، وإنما جعل الله تعالى يعني الأسباب يمنة ويسرة، أما الرازق الحق فهو الله سبحانه وتعالى، لا تظن أن أحدًا يحول بينك وبين رزقك، فإنه كما قال صلى الله عليه وسلم: (هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ جِبْرِيلُ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَلَيْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَأْخُذُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ)[1]، فاعلم أن رزقك مقسوم، وعليك أن تطلبه، ليس معنى ذلك أن يتواكل الإنسان فلا يطلب رزقه، ولهذا عقب النبي صلى الله عليه وسلم على قوله: [لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها]، قال: [فاتقوا الله وأجملوا في الطلب]، لم يقل: دعوا الطلب سيأتيكم رزقكم في بيوتكم. لا، قال: [وأجملوا في الطلب]: يعني اطلب رزقك دون أن تذهب نفسك حسرات، ودون أن تشعر نفسك بالشغف والتلهف، فرزقك مقسوم، فهذا من آثارها الإيمان بهذا الاسم الشريف الرزاق والصفة المتضمنة فيه.

قال: {ذُو الْقُوَّةِ}: أي صاحب القوة، ولا ريب أن الله تعالى له القوة المطلقة وما معنى القوة؟ القوة هي التمكن من الفعل من غير ضعف، والفرق بينها وبين القدرة، أن القدرة هي التمكن من الفعل من غير عجز، والقوة هي التمكن من الفعل من غير ضعف، لأنه ربما تمكن أحد من فعل لكن ناء بالحمل، فلا يقال عنه: قوي. والقدرة هي التمكن من

[1] مسند البزار (2914)، مصنف عبد الرزاق (20100)، قال الألباني حسن صحيح في صحيح الترغيب(1702).

الفعل من غير عجز، فالله قوي قادر سبحانه وبحمده، منزه عن الضعف ومنزه عن العجز، ولا ريب أيضًا أن اقتناع القلب بأن الله هو القوي يقوي ثقة المؤمن بربه، فإذا قيل لك: أعداء الإسلام أقوياء يملكون أسلحة، وأسلحة دمار شامل وقنابل ذرية وهيدروجينية وكيمائية. فاعلم أن الله هو القوي القادر سبحانه وبحمده، فيمتلئ قلب المؤمن ثقة بالله وتوكلًا عليه، فهذا من آثار علمك بالله بأنه هو القوي، إذا استقوى أحد عليك وأراد أن يظلمك، فاعلم أن الله أقوى منه، كل هذا يشيع في القلب الطمأنينة الحقيقية لا الوهمية، فيلجأ إلى ربه ويلوذ بجنابه فحينئذٍ يحصل له من الطمأنينة ما لا يحصل لسائر الناس.

قال: {الْمَتِينُ}: معنى المتين أي الشديد وهي قريبة من معنى القوي، فالله تعالى ذو القوة المتين فهو من أسمائه الحسنى القوي، ومن أسمائه الحسنى المتين.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} [الشورى: 11]، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58].

هاتان الآيتان ساقهم المؤلف لإثبات اسمين شريفين من أسمائه متضمنين لصفتين من صفاته، وهما السميع البصير المتضمنان للسمع والبصر، أما الآية الأولى فقد سبق الكلام عنها.

قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}: وهذا التعبير أبلغ من أن يقول: ليس مثله شيء. فإذا كان المشبه به ليس كمثله شيء، فمن باب أولى أن لا يكون مثله هو شيء.

وقيل: إن الكاف زائدة. وللمفسرين وأهل اللغة فيها توجيهات، فالله تعالى يقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11] إذن نزه سبحانه نفسه عن المثيل والنظير والند والشبيه والكفء، كما تقدم معنا، وشيء نكرة جاءت في سياق النفي فأفادت العموم، أي أي شيء من الأشياء لا يمكن أن يماثل الله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]، فهذا أمر من مرتكزات العقيدة فإذا قال قائل: فما بال الأسماء متشابهة؟ والصفات متشابهة؟. قلنا: هذا التشابه إنما هو في اللفظ وفي أصل المعنى فقط، أما في الحقيقة والكيفية فلا نسبة للتشابه البتة. فالرب سميع والرب بصير، والعبد سميع والعبد بصير، لكن ليس سمع كسمع ولا بصر كبصر، فهناك اتفاق في الأسماء، أما الحقائق والكيفيات فلا يوجد بينهما نسبة من التماثل، إنما يقع فقط في أصل المعنى، فالسمع هو إدراك الأصوات، والبصر هو إدراك المرئيات، ولا سبيل لنا أن نعرف صفات ربنا إلا بشيء معهود في أذهاننا، فنعرف معنى السمع إدراك الأصوات، فالله هو السميع له المثل الأعلى في السمع، والله هو البصير له المثل الأعلى في البصر، وإن كان العبد سمعيًا وإن كان بصيرًا، لكن سمعه وبصره يليق به، ولله المثل الأعلى، فلهذا كان هذا الاشتراك اشتراكًا في الأذهان، فإذا خرج إلى الأعيان يعني خارج الأذهان وأضيف تخصص وزال الاشتراك بالكلية، فإذا قلت: سمع الله بصر الله. فهذا ليس فيه اشتراك البتة، لكن إذا قلت: السمع. مطلقًا، البصر، مطلقًا، فالسمع في الأذهان يدل على إدراك الأصوات، والبصر يدل على إدراك المرئيات، لكن إذا أضفت تخصص فصار سمع الله يليق به، وبصر الله يليق به.

قال: {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ}: معنى {نِعِمَّا} أي نعم ما، فوقع الإدغام بين الميمين لتماثلهما فصارت نعما، يعني نعم ما يعظم به، إي والله وأي موعظة أبلغ من موعظة الله؟ من أراد أن يعظ نفسه أو يعظ غيره فليعتصم بموعظة القرآن، قال الله تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ اللَّهِ} [الأنعام: 19]، ووصفه الله بأنه موعظة، والموعظة هو الكلام الرقيق الذي يحصل به الترغيب أو الترهيب، فالله تعالى نعما يعظنا به سبحانه وبحمده، فلا أبلغ من موعظة القرآن، ولذلك يا عبد الله ويا أمة الله ومن بلغ إذا أردت أن تداوي نفسك من آفاتها فعليك بالقرآن العظيم، ففيه الدواء الناجع، وفيه الغذاء النافع، لا شيء يعدله، بعض الناس قد يلجأ لشيء مثلًا من الرقائق والقصائد وكذا كذا، يستلين بها قلبه، لكن لن يكون أثرها كأثر الموعظة في القرآن، بعض الناس يلجأ إلى مثلًا القصص والروايات والأحداث ونحو ذلك، لا بأس، لكن لن يكون شيء أبلغ وأعمق وأرسخ من موعظة القرآن، فاتخذ القرآن يا طالب العلم منهجًا في الموعظة والتربية، فلا يمكن أن يعدل القرآن شيء {إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ} [النساء: 58]، فما سواه دونه.

قال: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً}: تضمن إثبات هذين الاسمين، وما دل عليه من إثبات صفة السمع والبصر.

ما هو الأثر المسلكي بإيماننا بهذين الاسمين الشريفين؟ أثر عظيم، من علم أن الله تعالى سميع حمله إيمانه ذلك على أن يسمع منه ربه ما يرضيه، وأن لا يسمع منه ما يسخطه، إذا كنت حقًا مؤمنًا بأن الله سميع فإنك تحاول أن تتقرب إليه بالكلم الطيب الذي يرضى به عنك، (إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ)[1]، وإذا كنت ممتلئ القلب أن الله سميع، فهذا يحملك على أن تتحاشى أن يبدر منك ببنت شفة شيء يسخط منك لأجله، فتجتنب الغيبة والنميمة والشتيمة والخوض في الباطل إلخ، فـ(وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)[2]، أرأيتم أثر هذا الاسم الشريف السميع؟ كيف أن الإنسان لو تمثله لعقل لسانه عما لا يرضي الله، ولأطلقه بالخير، (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)[3]، {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 18] ، فهذا من أثر أسماء الله الحسنى إيمانك بأنه سميع، قل مثل ذلك في اسمه البصير، فمن امتلأ قلبه بأن الله بصير، فإنه يحب أن يراه ربه على حال يرضى بها عنه، يحب أن يراه قائمًا قانتًا آناء الليل ساجدًا يرجو الآخرة ويخاف من عذاب ربه {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ} [الزمر: 9]، يحب أن يراه الله تعالى على عمل صالح من حج أو عمرة أو صيام أو صدقة أو غير ذلك، هذا من آثار اسم الله البصير.

كذلك بالمقابل يتحاشى أن يراه الله على حال يسخط عليه بها، أن يراه على فجور، فحش، ظلم عدوان، يرى أن الله يراه على هذا الحال، ولهذا جاء في المواعظ: لا يكن الله أهون الناظرين إليك. فإذا كنت أنت تتحاشى أن يراك

---

[1] صحيح البخاري (6478).

[2] صحيح البخاري (6478).

[3] صحيح البخاري (6018).

أبوك أو أخوك أو من تجله على أمر ما، فلا يكن الله أهون الناظرين إليك، تذكر أن الله يراك، هذه يا كرام من آثار إيمان الإنسان بأسماء الله الحسنى، وقد حكيت لكم مرة بأن رجلًا خلا بامرأة في ليلة قمراء، فقال لها: إني أحبك. قالت: وأنا أحبك. قال: وإني أحب كذا وكذا. يعرض بشيء، فقالت: وأنا أحب كذا وكذا. قال: فما يمنعنا ولا يرانا إلا الكواكب؟. قالت: فأين مكوكبها؟. فخر مغشيًا عليه، انظروا معنى قول الله: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ} [الملك: 12] يعني انبعث في قلبه من المعاني ما أثر فيه حتى وقع مغشيًا عليه لما قالت له فقط: فأين مكوكبها؟. مكوكب الكواكب الذي يرانا:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت. ولكن قل: علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل برهة ولا أن ما تخفي عليه يغيب

هو سبحانه يعلم ويسمع ويبصر، فهذا هو أثر أسماء الله الحسنى.

كذلك علمنا بأن الله سميع – هذا من الآثار المسلكية– يجعلك إذا رفعت يديك وقلت: يا رب يا الله. وأنت موقن بأنه يسمع اطمأننت، ولهذا قال عمر –رضي الله عنه–: إني لا أحمل هم الإجابة ولكني أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء ألهمت الإجابة. يعني إذا تكيفت النفس تكيفًا إيمانيًا فدعا الإنسان معتقدًا أن الله يسمع كلامه، ويرى مكانه، ويعلم بحاله اطمأنت ووثقت أنها وضعت طلبها في الموضع المناسب، هذا من هذه الآثار.

أيضًا حينما يعلم أن الله سبحانه وتعالى يراه وهو مقدم على أمر من الأمور التي يريد بها وجهه أو يريد من الله فيها نصرته فإنه يطمئن، تأملوا قول الله عز وجل لموسى وهارون: {قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46]، هذا سمع خاص، وبصر خاص، ورؤية خاصة، فاستصحب هذه المعاني أيها المؤمن تنتفع بأسماء الله وصفاته.

الدرس (9)

الإرادة الكونية والشرعية

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وقوله: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ} [الكهف: 39]. وقوله: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: 253]. وقوله: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة: 1]. وقوله: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: 125].

هذا شروع من المؤلف في بيان الإرادة الربانية، وهي من صفاته سبحانه وتعالى . صفة الإرادة .، وينبغي أن نعلم أن إرادة الله الربانية تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية، وإرادة شرعية، فذكر المؤلف طائفة من الآيات الدالة على الإرادة الكونية،

ثم أتبعها بما يدل على الإرادة الشرعية التي بمعنى المحبة، ودعوني قبل أن نمضي في الآيات أبين لكم الفرق بين الإرادتين؛ لأن من لم يميز بين الإرادتين وقع في أحد طرفي الضلالة: إما في ضلالة الجبرية، وإما في ضلالة القدرية، انتبهوا جيدًا، **إرادة الله نوعان: إما إرادة كونية قدرية، أو إرادة دينية شرعية:**

الفرق الأول: الإرادة الكونية القدرية لا بد من وقوعها، والإرادة الدينية الشرعية قد تقع وقد لا تقع.

الفرق الثاني: الإرادة الكونية القدرية قد يحبها الله ويرضاها، وقد لا يحبها ولا يرضاها، والإرادة الدينية الشرعية لا بد أن يحبها ويرضاها.

الفرق الثالث: الإرادة الكونية القدرية قد تكون مقصودة لذاتها وقد تكون مقصودة لغيرها، والإرادة الدينية الشرعية دومًا مقصودة بذاتها.إن شئت **– الفرق الرابع –** ولعله أن يكون نوعًا من التعريف: الإرادة الكونية معناها المشيئة، والإرادة الشرعية معناها المحبة.

أعيد ذكر ذلك بشيء من التفصيل:

الفرق الأول: الإرادة الكونية القدرية لا بد من وقوعها ، قال الله عز وجل: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} [النحل: 40]، إذن كل ما أراده الله كونا لا بد من وقوعه.

الإرادة الدينية الشرعية قد تقع وقد لا تقع، فالله تعالى يقول : {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ} [النساء: 136] ومن الناس من يؤمن ومن الناس من يكفر، أقيموا الصلاة، آتوا الزكاة، فمن الناس من يصلي ويزكي، ومنهم من لا يصلي ولا يزكي، مع أن الله أراد ذلك منهم {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} [البقرة: 185] ومع ذلك فإن من الناس من يقع في العسر، إذن هذه قد تقع وقد لا تقع.

الفرق الثاني: الإرادة الكونية القدرية قد تكون محبوبة لله وقد تكون غير محبوبة لله ، فمثلًا: أراد الله كونًا خلق محمد، محبوب لله هذا المراد، وأراد الله خلق إبليس، وإبليس غير محبوب لله، فقد يريد كونًا ما هو محبوب له، وقد يريد كونًا ما ليس محبوبًا له وهذا جار حاصل.

أما الإرادة الشرعية فكل ما أراده الله شرعًا فهو محبوب له، كل ما أراد الله تعالى به فهو محبوب له.

الفرق الثالث: ما أراده الله كونًا وقدرًا قد يكون مرادًا لذاته وقد يكون مرادًا لغيره فمثلًا: أراد الله خلق محمد صلى الله عليه وسلم لذاته، لما يترتب عليه من محبوباته كتوحيده وطاعته وامتثال أمره وغير ذلك، وأراد الله تعالى خلق إبليس لا لذاته وإنما لمآلاته، فلولا خلق إبليس ما تميز المؤمنون من الكفار، ولا الأبرار من الفجار، ولا قام سوق إلى جنة ونار، ولا وجدت التوبة والاستغفار، ولا رفع علم الجهاد ولا جرى الأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل ولما ظهرت معاني أسماء الله الحسنى المختلفة أسماء الجلال، وأسماء الكمال والجمال، فإن كل ذلك لا يظهر إلا بتقدير الله تعالى لخلق إبليس الذي يقع به الابتلاء، ويتمايز الناس فيه إلى مؤمن وكافر.

فتبين أن الله تعالى قد يقدر ما لا يحبه ولا يرضاه لمصلحة محبوبة مرضية له، فيكون ذلك باعتبار مآلاتها لا باعتبار ذاتها.

أما ما أراده الله شرعًا فهو مقصود دومًا لذاته، فكل ما أمر الله به من إيمان وصلاة وزكاة فهو مقصود لذاته.

وبناء عليه نفرق بين هاتين الإرادتين إذا وردتا في القرآن العظيم، فحيثما وجدت مادة أراد في القرآن تعرضها على هذه الفروق الثلاثة، وانظر أهي تنتمي إلى المشيئة؟ أم تنتمي إلى المحبة؟ فإن كانت بمعنى المشيئة فهي إرادة كونية قدرية، وإذا كانت بمعنى المحبة فهي إرادة دينية شرعية.

قال: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}: القائل هو الرجل المؤمن في قصة صاحب الجنتين، يعظ صاحبه ويقول: {وَلَوْلا}، ومعنى ولولا أي هلا، فهي عبارة تحريض.

قال: {وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ}: أي بستانك.

قال: {قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ}: أي ما شاء الله كان، فهذه إرادة كونية، فهو يذكره بأن كل شيء بإرادة الله، وليس هذا راجعًا إلى كسبه وحفظه وذكائه إلى غير ذلك، بل هو فضل من الله، وبتقدير الله ما شاء الله كان، لا قوة إلا بالله.

قال: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}: إذن ما هي هذه الإرادة؟ هي المشيئة، فلما ذكر الله تعالى اختلاف الناس واقتتالهم {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ} [البقرة: 253]، إذن هذا يدل على أن اقتتالهم جرى بإرادة الله الكونية.

والآية الثالثة جعلها الشيخ من آيات الله أو من دلائل الإرادة الكونية مع أن الأمر محتمل لأنها متعلقة ببعض تشريعات الحلال والحرام، تأملوا: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ} [المائدة: 1] الأنعام ما هي؟ الإبل والبقر والغنم.

قال: {إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}: ما الذي استثناه الله تعالى؟ {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ} [المائدة: 3] فالمستثنى من الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية من بهيمة الأنعام لا تحل، إذن هذا معنى الاستثناء في قوله: {أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ}.

قال: {غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ}: فلا يجوز لمن تلبس بإحرام أو دخل منطقة الحرم أن يحل الصيد، لكنه هنا يتعلق بحال الإحرام، قال: {غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ} [المائدة: 1] حال الإحرام، ولهذا كان من محذورات الإحرام الصيد، والصيد هو كل حيوان بري متوحش بطبعه حلال، هذا لا يحل صيده.

قال: {إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ}: كأن الشيخ – رحمه الله –رأى أن هذا بالحكم الكوني السابق، لكن لها وجه في إرادة الله الشرعية لأنه متعلق بالحلال والحرام، لكن كأنه لحظ فيها معنى سبق قضاء الله تعالى بتحريم ذلك.

ثم الآية بعدها صريحة في إرادة الله الكونية القدرية قال: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ} [الأنعام: 125] الهداية والإضلال معشر طلبة العلم حق خالص لله تعالى، بخلاف المعتزلة والقدرية الذين يقولون: إن الله تعالى لا يهدي ولا يضل. بمعنى أنه لا يخلق ذلك في العبادة، فتزعم المعتزلة أن معنى أن الله يهدي يعني فقط هداية الدلالة والبيان والإرشاد، لا هداية التوفيق والإلهام، هكذا زعمت المعتزلة، ويقولون: معنى أنه يضل أن يسميه ضالًا أي يسميه ضالًا إذا هو ارتكب من المخالفات ما يجعله ضالًا. فهذا مذهب المعتزلة وسيأتينا –إن شاء الله تعالى– في باب القدر.

قال: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ}: يعني من أراد الله كونًا أن يجعله من أهل الهداية فإنه ييسر أسباب ذلك، فيشرح صدره لقبول الحق فتجده مغتبطًا بنعمة الله، مصغيًا لدعاء الرسول، فيقبل الحق.

قال: {وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا}: يعني من سبق في علمه سبحانه وتعالى أن يجعله من أهل الضلالة، يجعل صدره ضيقًا والضيق معروف.

قال: {حَرَجًا}: أي شديد الضيق يجعل صدره ضيقًا حرجًا، ثم شبه من يصعد في السماء أي من يرقى في أجواء الفضاء فإنه يعني يحس بالضيق، وهذا أمر معروف في التجربة والعلوم الحديثة، أن نسبة الأكسجين تقل كلما ارتفع الإنسان، ولهذا بعض الناس الذين عندهم ضيق تنفس ينهون عن سكنى المناطق الجبلية وغيرها، لقلة الهواء.

قال: {كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ}: أي في العلو.

إذن هذه الآيات دلت على إثبات إرادة الله الكونية، وأن الله سبحانه وتعالى له إرادة كونية، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [البقرة: 195]، {وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: 9]، {فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [التوبة: 7]، {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222].

وهذه الطائفة من الآيات تتعلق بإثبات الإرادة الكونية التي بمعنى المحبة وهي الإرادة الدينية، وضابطها: أنه لا يلزم وُقوعها، فتأملوا في هذه الآيات.

قال: {وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}: هل لزم من محبته سُبحانه للإحسان أن يكون جميع الخلق مُحسنين؟ لا لم يلزم هذا، وهكذا فيما بعدها، لكن لنتناولها على سبيل التفصيل.

قال: {وَأَحْسِنُوا}: فعل أمر، وهو أمر بالإحسان، والإحسان له معنى باعتبار حقيقته، فقد فسره النبي صلى الله عليه وسلم تفسيرًا لا مزيد عليه فقال: (الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)[1]، ففسر صلى الله عليه وسلم الإحسان في مراتب الدين بأحد أمرين: إما بعبادة الطلب، وإما بعبادة الهرب:

فأما عبادة الطلب وهي أعلاهما: فأن يعبد العبد ربه عبادة الراغب إليه، المشتاق إليه، [أن تعبد الله كأنك تراه]، فأنت مُنجذب إليه، تسعي في الوصول إليه، مُتوجه إليه.

وأما عبادة الهرب: [فإن لم تكن تراه فإنه يراك]، يعني إن لم تبلغ مرتبة المحبة والانجذاب والشوق أثناء عبادتك، فلا تنزل عن رُتبة الخوف والشعور برقابته، [فإن لم تكن تراه فإنه يراك].

فعلى الإنسان أن يضبط حاله بين هذين الأمرين: بين حال الرجاء وحال الخوف، فالمؤمن دومًا بين الخوف والرجاء، {يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ} [الإسراء: 57].

هذا تعريف الإحسان باعتبار حقيقته.

وأما الإحسان من حيث أصل الوضع والمعنى فهو بمعنى الإتقان (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ)[2]، بمعنى أن يأتي به على الصورة الكاملة، فتكون العبادة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسُننها، فمن طلب الإحسان وسعى فيه نال محبة الله تعالى، وقد أتى الله بهذه الآية بعد قوله سبحانه: { وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [البقرة: 195] فهذه الجُملة وقعت تعليلًا لما سبق، فالذي يُنفق نفقة واجبة أو مُستحبة، فقد أحسن، والله يُحب المحسنين.

قال: { وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ }: { وَأَقْسِطُوا}: أمر بالقسط وهو العدل، ولهذا أمر الله تعالى بالقسط في أكثر من آية فقال تعالى: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } [الحُجرات: 9]، فالله تعالى يُحب المقسطين، وهم أهل العدل [الذين يعدلون في أموالهم وأهليهم وما ولوا]، هؤلاء هم أهل العدل حقًا، ولنعلم أن العدل واجب وأن الفضل مُستحب، فيجب على الإنسان أن يأتي على الحد الأدنى الذي هو العدل، فشريعة الإسلام قائمة على العدل، فما زاد عن ذلك فهو فضل، وتأملوا في مثل قول الله تعالى: { لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} [الممتحنة: 8]، فالبر فضل، والقسط عدل، فالعدل واجب، والبر فضل مُستحب، فلا يجوز للمُسلم أن ينزل عن مرتبة العدل حتى في تعامله مع الكافر، فإن من الناس من يظن أنه إذا تعامل مع كافر يهودي أو نصراني أو بُوذي أو غير ذلك من الملل الباطلة أن له أن يستطيل عليه بخدعة أو غش، أو أن ينال منه بكلام أو مسبة، وهذا لا يجوز، فإن هذا يُخالف أصول الإسلام القائمة على العدل،

[1] متفق عليه، صحيح البخاري (4777)، صحيح مسلم (8).

[2] مسند أبي يعلى (4386)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (1113).

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كما في صحيح البخاري عبد الله بن رواحة إلى يهود ليخرص عليهم ثمرة خيبر، جمعوا له من حُلي نسائهم يُريدون رِشوته، خشوا أن يُشدد عليهم، فلما قدموها له، قال: أتطعموني السحت يا إخوان القردة والخنازير، والله لقد جئتكم من أحب الناس إليَّ – يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم – ولأنتم أبغض إليَّ من عدادكم من القردة والخنازير، والله لا يحملني حُبي إياه، وبُغضي إياكم أن أظلمكم مثقال ذرة. قالوا: الله أكبر، بهذا قامت السماوات والأرض. فالعدل قيمة من قيم الإسلام، لا نقول: من القيم الإنسانية. كما يُقال حاليًا، لا، نقول: هي قيمة وخُلق من أخلاق الإسلام وأُصوله الأخلاقية. فالله تعالى أمر بالقسط، وبين أنه يُحب المقسطين، الذين يعدلون في أموالهم وأهليهم وما ولوا.

قال: {فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }: هذا في شأن المعاهدين، فإن الله تعالى لما أنزل سورة براءة وقد تضمنت آية السيف، كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين بعض قبائل العرب عُهود لا تزال باقية، فلم تكن آية السيف لتقطعها، لأنه ليس من شأن أهل الإسلام الغدر، وغاية ما في الأمر أن إذا خِفنا منهم خيانة أن ننبذ إليهم على سواء، {وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ} [الأنفال: 58]، لكن ما لم يكن كذلك فالأصل الوفاء بالعهود إلى مُددها.

قال: {إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ }: فما داموا مُلتزمين بالعهد فأنتم تُقابلونه بالمثل، وبيَّن أن هذه الاستقامة عُنوان تقوى الله عز وجل، لأن النفس قد يُزين لها إذا رأت من الطرف الآخر ضعفًا أن تثب عليه، فلا يحجزها من ذلك إلا تقوى الله عز وجل، لهذا كانت الجُملة مُعللة لما مضى {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة: 7]، ومن المتقون؟ التقوى هي امتثال أوامر الله واجتناب مناهيه، وحقيقتها أن يقوم في القلب حاجز يمنع الإنسان من الوُقوع في محارم الله، ويحمله على فعل أوامره:

خل الذنوب كبيرها وصغيرها ذاك التُقى
واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

فتقوى الله أعظم ما أُعطي العبد، { إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } [الحُجرات: 13]، فأكرم الناس على الله أتقاهم كما قال الله وكما قال نبيه صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح، فتحصيل تقوى الله تكون بأن يزرع العبد في قلبه ورعًا وخشية تحجزه عن الوُقوع في محارم الله، وقاية، وهذه الوقاية تكون في المستقبل وقاية له من عذاب الله، فمن تقوى الله عز وجل حفظ العُهود، وعدم هدرها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إني لا أخِيسُ بالعَهْدِ ولا أحبِسُ البُرُدَ)[1]، فنحن أهل الإسلام أكثر الناس التزامًا بالعُقود والمعاهدات، [لا نخيس العهد ولا نقتل البُرد]، يعني صاحب البريد.

[1] سنن أبي داود (2758)، مسند أحمد (23857)، صححه الأرنؤوط.

قال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }: {التَّوَّابِينَ}: جمع تائب، فالله يُحب التوابين، وما التوبة؟ التوبة هي الأوبة والرجوع إلى الله، واصطلاحًا: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة، فهي رجوع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة، وهي من أشرف العبادات، فالله تعالى يُحب التوابين، بل يُحب من يُكثر التوبة، قال: (وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)[1]، (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ)[2]، [لله أشد فرحًا بتوبة عبده...] كما سيأتينا لاحقًا -إن شاء الله-، فالتوابون هم الذين يُكثرون التوبة، وهذا ليس بعيب، لأنه لقائل أن يقول: إن من يُكثر التوبة يعني أنه يُكثر الذنب. وهذا من طبيعة بني آدم، وقد جاء في حديث عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال: (أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ)[3]، أي ما دام أنه يُذنب فيستغفر مُستوفيًا لشروط التوبة فإني لا أزال أغفر له، فلهذا كان الله تعالى يُحب التوابين، إذ التوبة عبادة تُنبئ عن تجدد الإيمان في القلب، لكن التوبة الممدوحة هي التوبة النصوح التي تكون مُقترنة بالإيمان والعمل الصالح: { إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ} [الفرقان: 70]، {إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا } [مريم: 60]، {وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى } [طه: 82]، فهذه ثلاث أمور مُتلازمة: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح، فمجيؤها سويًا يدل على أن التوبة نصوح.

واعلموا أن التواب يكون اسمًا للعبد، واسمًا للرب، فالعبد تواب والرب تواب، فالعبد تواب لأنه يتوب إلى الله، والرب تواب لأنه يتوب على العبد، قال الله عز وجل: { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ} [التوبة: 118]: ف {تَابَ عَلَيْهِمْ}: هذه توبته سبحانه، {لِيَتُوبُواْ}: أي لتقع منهم التوبة، ثم إن توبة الرب على عبده تكون على صورتين:

أُولاهما: بتوفيق العبد للتوبة، **ثانيهما**: بقبول التوبة منه.

وهذا يُفسر لك معنى قوله: { ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ } [التوبة: 118]: {تَابَ عَلَيْهِمْ}: وفقهم للتوبة فتابوا، ثم تاب الله تعالى عليهم، {لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ } [التوبة: 117]، فتكون توبة الله على العبد بأن يُلهمه ويُوفقه للتوبة فيتوب، ثم تكون توبته عليه بقبول هذه التوبة منه، فهكذا تكون توبة الرب على العبد، وأما توبة العبد إلى الرب فبالرجوع عن المعصية إلى الطاعة.

---

[1] سسن الترمذي (2667)، سنن ابن ماجه (4285)، حسنه الألباني.

[2] صحيح مسلم (2749).

[3] صحيح البخاري(7507)، صحيح مسلم (2758).

قال: {وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}: جمع مُتطهر، والطهارة نوعان:

النوع الأول: الطهارة الحسية. وتكون من الحدث والنجس.

النوع الثاني: الطهارة المعنوية. وتكون من الشرك والفسوق والعصيان والبدعة وما أشبه من الأمور المعنوية.

وكلا الأمرين مطلوب قال تعالى: {وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ} [المدثر: 4]، فالمؤمن طاهر، فالمؤمن طاهر ظاهرًا وباطنًا، فثوبه طاهر، وبدنه طاهر، وبُقعته التي يُصلي عليها ويجلس عليها طاهرة، فهو لا يتلبس بالنجاسات، ولا يُباشر النجاسات، ولا يأكل النجاسات، مُتطهر، وهو أيضًا مُتطهر في أُموره المعنوية، فلا يُلابسه شرك ولا فسق ولا معصية، وإن وقع شيء له من ذلك تطهر منه، ولهذا قال: { وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222]، ولم يقل: الطاهرين، قال: { الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222]: لأنهم يتطهرون ففيها معنى التفعّل.

كل الآيات السابقة دلت على إثبات صفة المحبة لله تعالى، وهذا أمر جلي، فإن قارئ القُرآن لا يشك في إثبات صفة المحبة لله تعالى، هذه آيات ناطقات، تُسند فيها المحبة إلى الله عز وجل، فيجب علينا أن نعتقد بأن من صفات الله تعالى صفة المحبة، وهي صفة تليق به سبحانه وبحمده، لا تُشبه محبة المخلوقين، فلئن كانت محبة المخلوق فيها شيء من الانعطاف والرقة ونحو ذلك، فهذه محبة المخلوق، أما محبة الله فلا يلزمها شيء من اللوازم البشرية، فلهذا أقر أهل السنة والجماعة إثبات هذه الصفة، وغصّ بها أهل البدع من المتكلمين النُفاة من الجهمية والمعتزلة، بل حتى من الصفاتية كالأشاعرة، فقالوا: لا يُمكن أن نُثبت لله صفة المحبة. لم؟ قالوا: لأن المحبة رقة في القلب وانعطاف ولين. فقِيل لهم: هذه محبة المخلوق، ومحبة الله تليق به، والله ليس كمثله شيء، فأنتم تُثبتون لله سمعًا وبصرًا –أي أيها الأشاعرة– مع أن المخلوق له سمع وبصر، فأثبِتوا لهم محبة. فقالوا: لكن سمع الله يليق به، وبصر الله يليق به. قلنا: وأيضًا محبة الله تليق به، لا فرق. كل ما أثبته الله تعالى لنفسه فإنا نُثبته لأن الله أعلم بنفسه، وبغيره، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا من خلقه، كما تقدم معنا في مبادئ هذه الرسالة، فنُثبت ذلك لله تعالى، ولا يلزم من إثباتنا لصفة المحبة لله أن يلحق الله شيء من اللوازم البشرية، فالله تعالى ليس كمثله شيء.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدرس (10)

إثبات محبة الله ومودته لأوليائه على ما يليق بجلاله

وَقَوْلُهُ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: 31].وَقَوْلُهُ: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: 54].وَقَوْلُهُ: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ } [الصف: 5].وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ} [البروج: 14].

قال: {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ }: وهذه الآية دليل على أن المحبة تقع من الطرفين، فالمؤمنون يُحبون ربهم، والرب يُحب عباده المؤمنين، لكن هذه المحبة من الله مشروطة { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي

يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [آل عمران: 31]، تُسمى هذه الآية: آية المحنة، وقد ادعى محبة الله قوم من اليهود والنصارى زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فابتلاهم الله بهذه الآية وامتحنهم، فقال: { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ} [آل عمران: 31]: إن كُنتم صادقين في دعواكم محبة الله { فَاتَّبِعُونِي} [آل عمران: 31]: أي اتبعوا محمدًا صلى الله عليه وسلم {يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ}، ودلت هذه الآية على أن العبد يُحب، والرب يُحب، فالعبد يُحب ربه، يُمكن أن تقع منه المحبة، والرب يُحب عبده.

ومرة أخرى: شرق بهذا أهل البدع، وقالوا: لا يُمكن أن تقع المحبة من الطرفين. قالوا: لأنه لا تجانس بينهما. حتى محبة العبد لربه، قالوا: لا يُمكن تقع. إذن ماذا تصنعون بهذه الآيات؟ قالوا: المقصود بمحبة العبد لربه هي طاعته، امتثال أمره، واجتناب نهيه. ففسروا المحبة بغير حقيقتها، مع أن الحق أن هذا أمر يجده كل مؤمن، أنه يجد في قلبه شوقًا وميلًا ومحبة إلى الله عز وجل حقيقة غير فعل الأوامر واجتناب النواهي، بل إنه أحيانًا ربما يقع من العبد إخلال بطاعة الله وتثبت له المحبة، كالرجل الذي كان يؤتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب شُرب الخمر، فضارب له بثوبه، وضارب له بنعله، وضارب بيده، حتى قال رجل فيه قولًا شنيعًا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : [لا تقل كذا، فإنه يُحب الله ورسوله]، يعني حتى ولو كان عنده شيء من معصية، لكنه يُحب الله ورسوله، لكن ليست كمحبة أهل الإيمان التام، لكنه عنده محبة.

إذن المحبة تقع من الطرفين، ودعوى أنه لا يُمكن أن يقع محبة بين غير مُتجانسين دعوى ساقطة، بل نقول: إنه تقع محبة بين الأشياء غير المتجانسة، ألست أنت مثلًا تُحب شُرب الماء؟ أنت جنس والماء جنس، ألست تُحب لعق العسل؟ بلى، وأنت جنس وهو جنس، لا يلزم من وجود المحبة التجانس بين الطرفين، أليس الرجل أحيانًا يُحب دابته؟ أليس بعضكم مثلًا يُحب سيارته؟ يُحبها مع أنها حديد، ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم: [أُحد جبل يُحبنا ونُحبه]، وهو جبل، وهذا أمر معروف عند بني آدم، يُحب الإنسان أحيانًا بعض المجالس، وبعض البيوت، وبعض المراكب، وبعض الثياب، تجد مثلًا بعض ثيابك أحب إليك من بعضها مع أنها من جنس يختلف عنك تمامًا، فوجود المحبة بين شيئين غير مُتجانسين موجود بين المخلوقات نفسها، فكيف يقولون: لا يُمكن أن تقع محبة بين غير المتجانسين؟! بل يُقال: هذه محبة تليق بهذا، وهذه محبة تليق بهذا، وهذه محبة تليق بهذا، ولا تُواجه النصوص المحكمات بمثل هذه التعليلات الخاطئات.

قال: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ }: جاء ذلك بعد قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ } [المائدة: 54] فتكرر المعنى: { يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ }، سبحان الله! هذا أمر بيَّن جلي، فيا عجبًا لهؤلاء المتكلمين الذين قالوا: لا، لا يُمكن أن تقع المحبة من الجانبين، وأن محبة العبد لربه هي طاعته، ومحبة الرب لعبده المراد بها إثابته. هذا يُسمى تأويلًا، بل هو في الحقيقة تحريف، لأنه خلاف مُراد الله تعالى، وقد مر بنا في أول هذه الرسالة أن أهل السنة والجماعة يُثبتون لله من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فهذا هو التحريف، إذا قال: محبة الرب

لعبده هي إثابته. قلنا هذا: تحريف، هذا لازم المحبة، وليس المحبة، ففرق بين المحبة والإثابة. أنت مثلًا قد تُحب صديقك محبة حقيقة، وقد نتيجة لهذه المحبة تُقدم له هدية، أليس كذلك؟ تقديمك للهدية هذه إثابة، لكنها غير المحبة، بدليل أنك من الممكن أن تُحبه ولا تُهدي له، لعدم قُدرتك أو لسبب من الأسباب، فالمحبة شيء ولازمها شيء أخر.

قال: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ }: هذه الآية في بيان محبة الله للمجاهدين في سبيله، المقاتلين صفًا كأنهم بُنيان مرصوص، ففيها إثبات محبة الله تعالى لمن قاتل في سبيله.

قال: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}: ما الشاهد منها على ما نحن فيه؟ الودود، لأن المودة هي أعلى درجات المحبة، فالله ودود، والمودة هي أعلى درجات المحبة، وأما الغفور فهو مُشتق من الغَفْر، والغَفْر هو الستر والتجاوز، فالله غفور بمعنى أنه يستر الذنب ويتجاوز عنه، ومنه سُمي المغفر الذي يُجعل على الرأس مغفرًا، لأنه يستر الرأس ويقيه.

فدلت هذه الآيات السابقات أولًا على إثبات إرادة الله الشرعية التي بمعنى المحبة، وأنه لا يلزم من محبة الله للشيء وقوعه وتحققه، فقد يُحب ما لا يشاء، وقد يشاء ما لا يُحب سبحانه وبحمده، وله في ذلك حكمة، فالله أحب منا الإحسان والقسط والتقوى، وأن نُقاتل في سبيله صفًا، ونحو ذلك من الأعمال الصالحات، ومع ذلك قد تقع وقد لا تقع، بخلاف الإرادة الكونية، فإنه لا بد من وُقوعها كما قال الله عز وجل: { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ} [النحل: 40]، أما الإرادة الشرعية فهي بمعنى: المحبة، قد تقع وقد لا تقع.

وفهمنا مما مضى إثبات صفة المحبة لله إثباتًا حقيقيًا، وأنه لا يلزم من إثباتها تمثيل الله بخلقه كما ادعى أهل البدع، واستفدنا أنه لا يجوز تحريف المحبة بخلاف ظاهرها كالإثابة ونحو ذلك، فإن هذا تحريف مذموم، إلى غير ذلك من الفوائد الجُزئية التي تضمنتها الآيات.

والأثر المسلكي لإثبات صفة المحبة هو أن يحرص الإنسان، على تحقيق محبة الله تعالى، وأن يكون حبيبًا إلى الله، ومحبوبًا لله، فإن هذه أعظم وشيجة بين العبد وربه، إذا علمت أن الله يُحبك، ما أسعدك! وما أهنئك!، إن الله لا يُعذب من يُحب، فيسعى الإنسان في تلمس أسباب محبة الله التي ينال بها الدرجات العُلى، وهي المنصوص عليها في كتابه، فالله سبحانه وتعالى يُحب من الأشخاص والأعمال والأحوال والأماكن والأزمنة ما يشاء، يُحب من الأشخاص: محمدًا صلى الله عليه وسلم، وسائر أنبيائه، يُحب من الأعمال: الصلاة على وقتها، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله، وسائر مُراداته الشرعية، كُلها محبوبة لله، وبعضها أحب من بعض، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ فقال: (الصَّلاَةُ عَلَى وَقْتِهَا)[1]، ويُحب كذلك أيضًا من الأحوال: كحال السجود، فـ (أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ)[2]، ويُحب سبحانه وتعالى من الأماكن: مكة شرفها الله، والمدينة، وبيت المقدس، ويُحب سبحانه من الأزمنة:

[1] صحيح البخاري (527).

[2] صحيح مسلم (482).

رمضان، وعشر ذي الحجة، وهكذا، فلله تعالى أن يُحب ما يشاء من الأشخاص والأعمال، والأحوال، والأزمنة والأمكنة، هو سبحانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد.

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا } [غافر: 7]، {وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا} [الأحزاب: 43]، {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } [الأعراف: 156]، {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } [الأنعام: 54]، {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ } [يونس: 107، الأحقاف: 8]، {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: 64].**

هذه الآيات دلت على إثبات صفة الرحمة لله سبحانه وتعالى، واستهلها، ببسم الله الرحمن الرحيم، وقد تقدم الكلام عنها في مُستهل هذه الرسالة، وتبين أن البسملة بعض آية من سورة النمل، وأنها آية مُستقلة تُفتتح بها جميع سور القرآن، سوى سورة براءة، وبيَّنا **الفرق بين الرحمن والرحيم من جهتين:**

الفرق الأول: أن الرحمن يدل على اتصاف الله تعالى بصفة الرحمة اتصافًا ذاتيًا، وأن الرحيم يدل على اتصاف الله بصفة الرحمة اتصافًا فعليًا. فالرحمن يدل على الرحمة الواسعة، والرحيم يدل على الرحمة الواصلة.

الفرق الثاني : أن الرحمن يدل على الرحمة العامة، والرحيم يدل على الرحمة الخاصة بالمؤمنين. كما تُبينه الآيات بعدها أيضًا.

قال: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا }: هذه جاءت في سياق دعاء الملائكة: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ} [غافر: 7] فقوله: { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ }، كل شيء، {كُلَّ} من ألفاظ العموم، { رَّحْمَةً وَعِلْمًا}، فرحمته وسعت كل شيء، وعلمه أحاط بكل شيء.

قال: { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا }: هذا يدل على اتصاف الله بالرحمة الخاصة بالمؤمنين، لأنه قال: { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ} [الأحزاب: 43]، فقدم الجار والمجرور ليدل على الاختصاص، فهو سبحانه رحمن، وهو رحيم، فهذان اسمان كريمان من أسماء الله الحُسنى، كما قال ابن القيم: اسمان رقيقان دالان على اتصاف الله بصفة الرحمة. كما دلت الآيات على ثبوت هذا الوصف.

قال: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ }: كما المعنى السابق وقد قالها الله تعالى في خطابه لموسى صلى الله عليه وسلم.

قال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}: أي أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يقول لضُعفاء المؤمنين الذين يأوون إليه {وَإِذَا جَاءكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } [الأنعام: 54]، ومعنى أن الله كتب على نفسه ذلك، أي أنه سبحانه هو الذي أوجب الرحمة على نفسه، لا كما تدعيه المعتزلة من دعوى أنه يجب على الله فعل الصلاح أو الأصلح، حتى إنهم يُوجبون على الله بمحض عُقولهم ما يستشنع الإنسان من قوله، ويدعون أن

العقل هو الذي يقضي بذلك، فيقولون: يجب على الله أن يفعل كذا، ولا يجب عليه أن يفعل كذا، ويمتنع كذا. وهكذا، فهم مُشبهة الأفعال، نُفاة الصفات مُشبهة الأفعال.

قال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}: كقوله: (إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ)[1].

قال: {وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}: تقدم معنى الغفور، والرحيم أيضًا تبين معناه، وهو ذو الرحمة البالغة، أو الواصلة.

قال: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }: هذا من كلام يعقوب صلى الله عليه وسلم لبنيه قال: { فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: 64]، فدل على إثبات صفة الحفظ لله تعالى، وأنه أرحم الراحمين، بمعنى أن له المثل الأعلى في صفة الرحمة، فالرحمة موجودة، وتُضاف إلى الخالق والمخلوق، لكن لله من الرحمة أعلاها.

واعلموا -يا رعاكم الله- أن أهل البدع أنكروا صفة الرحمة، وقالوا: لا يُمكن أن يُوصف الله تعالى برحمة حقيقة. سبحان الله! لماذا؟ وهذا من أعظم ما نتشبث به ونرجوه، قالوا: لأن الرحمة ضعف، وخور، ورقة، والله مُنزه عن ذلك. فما الجواب؟ نقول: هذا الذي وصفتموه رحمة من؟ رحمة المخلوق، المخلوق هو الذي إذا أدركته رقة ورحمة تضعضع وبكى، ولحقه ضعف ونحو هذا، أما رحمة الله فلا يلزم منها هذه اللوازم البشرية، فلله رحمة تليق به، فكما أنكم تثبتون لله حياة، وسمعًا، وبصرًا، وعلمًا، وإرادة، وقُدرة، وكلامًا، وتقولون: إنها على ما يليق به. فقولوا مثل ذلك في صفة الرحمة. فالرحمة الآيات مُتكاثرة في إثباتها وإضافتها إلى الله، فتحريف الرحمة بإرادة الإنعام هذا تحريف، وإن سميتموه تأويلًا، فهم يقولون: معنى الرحمة: إرادة الإنعام. بمعنى أنهم يُفسرون الرحمة إما بالإرادة التي يُثبتونها ضمن الصفات السبع، أو بالإنعام نفسه، وكُل هذه من مسالك المتكلمين الباطلة، بل نقول: لله صفة حقيقية تليق به هي صفة الرحمة، بها يرحم المرحومين، لكن اعلموا أن الرحمة المضافة لله عز وجل قد تكون أحيانًا الرحمة التي هي الصفة، وقد تكون أحيانًا الرحمة المخلوقة، **يتضح لكم ذلك بمثالين:**

المثال الأول: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم سبي، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم: (أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ ؟) ، قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال : [لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا)[2]، الله أكبر!، إذن هذه رحمة، رحمة الصفة، رحمة حقيقية.

---

[1] صحيح البخاري (7554).

[2] صحيح البخاري (5999)، صحيح مسلم (2754).

المثال الثاني: في الحديث: (جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِئَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلاَئِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ)[1]، إذن خلق مائة رحمة، إذن هذه الرحمة المخلوقة، وليست الرحمة الصفة.

فتبين بذلك وجوب إثبات اسم الله الرحمن، واسم الله الرحيم، ووجوب إثبات ما تضمناه من صفة الرحمة، وأنه لا يجوز تحريف صفة الرحمة إلى الإنعام أو إرادة الإنعام كما فعل أهل البدع.

والله أعلم.

الدرس (11)

ذكر رضا الله وغضبه، وسخطه، وكراهيته في القرآن الكريم، وأنه مُتصف بذلك

📖**قال المؤلف –رحمه الله–:**

وَقَوْلُهُ: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة: 119، التوبة: 100، المجادلة: 22، البينة: 8]، وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} [النساء: 93]، وَقَوْلُهُ: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ} [محمد: 28]، وَقَوْلُهُ: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ} [الزخرف: 55]، وَقَوْلُهُ: {وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ} [التوبة: 46]، وَقَوْلُهُ: {كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 3].

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد.،

فإن صفات ربنا سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: صفات ذاتية.

القسم الثاني: صفات فعلية.

فأما **الصفات الذاتية**، فهي الملازمة لذاته سبحانه وتعالى التي لا تنفك عنه، بمعنى أنه مُتصف بها دومًا فلا يُتصور أن يخلو الرب من اتصافه بهذه الصفة الذاتية، مثال ذلك: صفة العلم، صفة القُدرة، السمع، البصر، الحياة، كُل هذه صفات ذاتية، **ضابطها أنها مُلازمة لذاته لا يُتصور انفكاكها عنه سبحانه.**

النوع الثاني: صفات فعلية، وهي المتعلقة بمشيئته وحكمته، لأنه سبحانه وتعالى يفعل لحكمة، فما كان سبحانه وتعالى يفعله بمقتضى مشيئته، أي يفعله متى شاء كيف شاء إذا شاء، فهذه تُسمى: صفة فعلية، مثل صفة الاستواء، والنُزول، والإتيان، والضحك، والعجب، وغير ذلك، فهذه الصفات تُسمى عند العلماء: صفات فعلية، وإثبات الصفات الفعلية لا يلزم منها إثبات الحُدوث على الله عز وجل كما توهم النُفاة، فإنهم نفوا صفات الله الفعلية زاعمين بأن إثباتها لله يقتضي أن يكون طرأ عليه شيء لم يكن، وحينئذٍ فهذا الذي طرأ إما أن يكون كمالًا أو نقصًا، ولا ريب أنه كمال،

[1] صحيح مسلم (2752).

فيقولون حينئذً: إذن إذا كان كمالًا فقد كان قبل ذلك خال من الكمال، لم يحصل له الكمال. هذه الشُبهة توصلوا بها إلى تضليل كثير من الناس، بدعوى نفي حُلول الحوادث عن الله فيتوصلون بذلك إلى نفي الصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه، أو أثبتها له نبيه صلى الله عليه وسلم، **والجواب عن ذلك يسير، وهو أن نقول:** إن جنس هذه الصفات الفعلية قديم ذاتي، فالله سبحانه وبحمده لم يزل فعال، كما قال عن نفسه: {فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} [هود: 107]، لكن آحادها وأفرادها تتجدد بتجدد ما تقتضيه حكمته، فحينئذٍ لا يُقال: إنه حدث شيء بعد أن لم يكن.

أضرب لكم مثالًا تقريبيًا: أنت الآن يُقال عنك أنك مُتكلم، وأنك مُتحرك، أليس كذلك؟ لا يلزم من وصفك مثلًا بالحركة، أنك طوال الوقت في حركة دائبة مُستمرة، لكنك تتحرك حينما تُريد النُقلة من موضع إلى موضع أو تتناول شيء من الأشياء، فملكة الحركة موجودة فيك، لكن ظهور آحادها وأفرادها بأن تتحرك نحو المسجد، أو نحو الجامعة، أو نحو المنزل أو غير ذلك هذا أمر يتجدد، لكن أصل الوصف والقدرة على أن تتمثل به حاصل فيك، كذلك الكلام، أنت تُوصف بأنك مُتكلم، أي لست بأخرس، ولا يلزم من وصفك بالكلام أنك تتكلم طُوال الوقت، بل إذا اقتضى الحال أن تتكلم تكلمت، فبهذا يتبين لنا أن ما أضافه الله تعالى لنفسه من الصفات الفعلية لا يُعد من الحُدوث الذي يقتضي نقصًا وإن سموه حُدوثًا، لكنه حُدوث لا يستلزم نقصًا، لا يُقال: إنه لم يكمل بصفاته حتى حصل كذا وكذا. فجنس هذا الفعل قديم، وآحاده مُتجددة، فبهذا تسقط هذه الشبهة التي لبسوا بها على فئات من الناس، فأنكروا ما ينبغي لله تعالى من الأسماء والصفات، وحملوها وأولوها، أو قل: حرفوها إلى صفات أُخرى. فصاروا يصفونها بالإرادة كما مر بنا سابقًا أنهم أنكروا صفة الرحمة وقالوا: إن المراد بالرحمة إرادة الإنعام، أو هو الإنعام. فحرفوها إلى صفة أُخرى وهي الإرادة، ولا شك أنهم في الحقيقة وقعوا فيما فروا منه، فإنه لو قِيل لهم: لم أنكرتم صفة الرحمة؟. لقالوا: لأن الرحمة ضعف وخور في النفس، وهذا من صفات المخلوقين. فيُقال لهم: فالإرادة كذلك ميل في النفس، فهو من صفات المخلوقين، فأنتم نقلتموها من مقام إلى مقام مُماثل، فيلزمكم فيما نفيتموه نظير ما فررتم منه فيما أثبتموه، فالإرادة وصف للإنسان، بل حتى ولغير الإنسان، ألم يقل الله تعالى: {جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ} [الكهف: 77]، فلا يلزم من إضافة الوصف إلى شيء أن تكون الحقيقة واحدة، بل هي بحسب من أُضيفت إليه، فإذا أُضيف الوصف إلى الله عز وجل كان له منه المثل الأعلى المنزه عن كل شائبة نقص، وإذا أُضيف إلى المخلوق صار له منه ما يليق به، بل إن المخلوقات نفسها تتفاوت في هذه الإضافة، فالناس ليسوا سواءً في سمعهم، وبصرهم، وعلمهم، وقدرتهم، ومع ذلك هم جميعًا يُوصفون بالعلم والسمع والبصر ونحو ذلك، فإذا كان هذا التفاوت بين المخلوقين فمن باب أولى أن يكون بين الخالق والمخلوق، كذلك في الصفات الفعلية التي نتحدث عنها، فإن الشيء المضاف إلى الله عز وجل من هذه الأوصاف لا يلزم منه ما يلزم على المخلوقين، فالقوم فروا واشمأزوا من إثبات الصفات لله تعالى وحرفوها، ونقلوا الصفات الفعلية إلى معان غير مُرادة لله عز وجل، وكما سيأتي في الآيات التي ساقها شيخ الإسلام لإثبات الرضا، والغضب، والسخط، والمقت، وكُل هذه صفات فعلية.

كيف نعرف الصفة الفعلية من الذاتية؟ الضابط في ذلك إذا كانت مُتعلقة بمشيئته، يعني يفعلها بمقتضى أسباب حُكمية، فإنها صفة فعلية، أما إذا كان مُتصفًا بها على الدوام كالسمع والبصر والحياة والعلم، فهي صفة ذاتية، وكانت طريقة السلف –رحمهم الله– أن يسوقوا القول في صفات الله سوقًا واحدًا، فلا يُفرقون الصفقة يُجرون الإثبات والإقرار والإمرار في الصفات الذاتية، ويُعاملون الصفات الفعلية أو الخبرية بالتأويل، حاشاهم، بل كانت طريقتهم واحدة مُطردة يُصدق بعضها بعضًا، ولعلكم سمعتم مني الآن قسمًا ثالثًا، وهي الصفات الخبرية، المقصود بالصفات الخبرية: **ما كان سبيل إثباته الخبر فقط** ، بمعنى أنه لا مدخل للعقل في إثباته، مثل ماذا؟ مثل: الوجه، واليدين، والعينين، هذه تُسمى عند العلماء: الصفات الخبرية، **وغالبًا ما تكون من ضمن الصفات الذاتية** ، لأن الله سبحانه وتعالى دومًا متصف بصفة الوجه واليدين والعينين، فهي بهذا الاعتبار خبرية ذاتية، فما لا سبيل لإثباته إلا بطريق الخبر فقط، فهي صفة خبرية كما سمعتم، فلو أمعن الإنسان في التفكير، لا يُمكن أن يستقل العقل بإثبات الوجه، أو اليدين، أو العينين، لولا أن الله تعالى أخبرنا بذلك وإلا فإننا نقف، {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} [الإسراء: 36] فلا سبيل إلا أن يأتي بها الخبر، فلننظر في هذه النصوص الدالة على إثبات هذه الصفات الفعلية.

قال: {رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}: المؤمنون المجاهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أحل الله عليهم رضوانه، {رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ} [المائدة: 119]، والرضا صفة معروفة، يعرفها كل إنسان ويعهدها في ذهنه، فلله من الرضا ما يليق به، وما يقتضي فعل ما يُحبه المرضي عنه، من إكرامه وإنعامه، لكن فرق بين المقتضى وبين أصل الصفة، فالله تعالى له صفة الرضا، كما أن المخلوق له صفة الرضا، لكن شتان بين رضا ورضا، فرضا الله يليق به، ورضا المخلوق يليق به، رضاي ورضاك ورضا كل واحد من آحاد الناس له معنى مُدرك ومعهود في الأذهان، رضا الله تعالى يليق به سبحانه وتعالى، وإن كان هناك اشتراك في أصل المعنى في الأذهان، لكن في خارج الأذهان أي في الأعيان يكون لله منه المثل الأعلى وللمخلوق منه المثل الذي يليق به، فمثلًا رضاي ورضاك رُبما يُقارنه نوع مثلًا خِفة وفرح وشيء من عدم التوازن من جراء هذا الرضا، لكن ذلك ليس بلازم في حق الرب سبحانه وتعالى.

قال: {ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}: إي والله، الرضا رضا الله على عبده، هو الفوز العظيم، أحله دار المقامة من فضله، وغفر ذنبه، ونعمه بأنواع النعيم التي لا تدور بخلد الإنسان ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)[1] ، فدومًا يمتن الله على عباده بأن يقول: {رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ} [البينة: 8]، جعلنا الله وإياكم منهم، فالواجب علينا إذن إثبات صفة الرضا لله تعالى.

ما هو الأثر المسلكي لعلمنا بهذه الصفات؟ إذا علمنا أن من وصف الله الرضا، فإن ذلك يحمل النفوس المؤمنة على طلب رضاه، ونشدانه والبحث عن مراضيه بالأعمال والأقوال الصالحة التي يحصل بها الرضا.

[1] صحيح البخاري (3244)، صحيح مسلم (2824).

قال: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}:

أرأيتم؟ لا يكاد –والله أعلم– يُذكر عُقوبة في القرآن بعد الشرك بالله أغلظ من عُقوبة القتل، **والقتل أنواع ثلاثة**، كما قد تكونوا درستموه في الفقه:

النوع الأول: قتل عمد.

النوع الثاني: قتل شبه عمد.

النوع الثالث: قتل خطأ.

فقتل العمد معناه عند الفقهاء: أن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا فيُصيبه بما يغلب على الظن موته به. هذا تعريفه.

أن يقصد: فلا بد من القصد وهو العمد.

من يعلمه آدمي: لأنه يُمكن يحصل القصد لكن لا يعلم أنه آدمي، يراه من بين الأشجار يظنه طيرًا، أو حيوانًا، فيُصيبه.

معصومًا: من المعصوم؟ المسلم، والمعاهد، والذمي، والمستأمن، من بقي إذن؟ الحربي، الحربي ليس بمعصوم، لأنه بينه وبين أهل الإسلام قتال، فهذه الأصناف الأربعة معصومة، لا يجوز هدر دمها، المسلم، والمعاهد، والذمي والمستأمن.

فأن يقصد من يعلمه آدميًا معصومًا فيُصيبه بما يغلب على الظن موته به، يعني بأن يُصيبه بمُثقّل، أو مُحدد، أو ببندقية، أو مسدس، أو سيف، أو خنجر، هذا يغلب على الظن موته به، لكن لو أنه ضربه بعصى، أو وكزه، هذا عادة لا يحصل به الموت، لكن رُبما مات، فحينئذٍ يُصبح قتل شبه عمد، وليس عمدًا.

أما قتل الخطأ فهو الذي لا قصد فيه أصلًا، كما يقع كثيرًا في حوادث السيارات، فإن هذا يسمى: قتل خطأ.

إذن الوعيد هُنا في حق من؟ في حق قتل العمد {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا}[النساء: 93]، ظاهر الآية يدل على أنه مُرتكب لكبيرة ويخُلد في النار، وهي تُشكل على ما قد تقرر من أن أصحاب الكبائر لا يُخلدون في النار، فأُجيب عن ذلك بأنه لم يذكر هاهنا التأبيد، لم يقل: خالدًا فيها أبدًا. فدل ذلك على أنه يمكث المدد الطوال في نار جهنم، بسبب خطيئته تلك، ولا ريب أن إزهاق النفوس من أعظم الجرائم حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ)[1]، ولما رأي الكعبة قال: [ما أطيبك!]، وبين أن المؤمن أعظم من ذلك عند الله عز وجل، فدل ذلك على أن هذه الجريمة من أعظم الجرائم والكبائر التي تُورث صاحبها خلودًا ومُكثًا طويلًا في النار، وقواعد أهل السنة والجماعة تقضي بأن من ارتكب كبيرة دون الشرك بالله فإنه لا يُخلد تخليدًا مؤبدًا في النار لقول الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء: 116]، والقتل لا شك أنه دون ذلك، فيكون داخلًا في عموم الاستثناء.

[1] سنن الترمذي (1452)، سنن النسائي (3978)، سنن ابن ماجه (2619)، وصححه الألباني.

قال: {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ}: وهذا هو موضع الشاهد، فالله تعالى قد أضاف الغضب إلى نفسه، فدل على إثبات صفة الغضب لله تعالى، ولا تستنكر ذلك، فإن لله تعالى غضبًا يليق به، بل إن الغضب في محله يُعد من الكمالات، بمعنى أن الآدمي لو كان فاقدًا للغضب لكان ذلك نقصًا فيه، لو قُدر أن أحدًا خلي من الغضب لكان هذا عيبًا فيه، لأنه إذا فقد الغضب لم يغر على محارمه، ولم ينتصر للحق، ولم تأخذه الحمية لنُصرة المظلوم، إلى غير ذلك، ففاقد الغضب مذموم، ولهذا قال الله: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ} [آل عمران: 93]، لم يقل: والفاقدين الغيظ. لكن الغضب محمود إذا حمل صاحبه على أمر مندوب شرعًا، كالجاهد في سبيل الله، ونُصرة المظلوم، وما أشبه، أما إذا حمله الغضب على أمر مذموم شرعًا كالعدوان والثأر بالباطل، والتلفظ بالطلاق وغير ذلك من الأشياء فهو مذموم، ولهذا قالت عائشة -رضي الله عنها-: [ما غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط، إلا أن تُنتهك حُرمة من حُرمات الله، فلا يقوم لغضبه شيء]. أردت من ذلك أن أُبين أن الغضب في أصله وصف كمال، ولولا الغضب لربما فنيت الأموال، وذهبت الحقوق، لكن الغضب إذا استعمل في غير موضعه صار وصفًا ذميمًا، وإلا هو في موضعه وصف حميد، فلهذا كان ربنا سبحانه له منه الوصف الحميد، وهو أنه يغضب سبحانه لما يقتضي الغضب، ومن ذلك: قتل المؤمن، فإن ذلك مما يقتضي غضب الرب سبحانه وتعالى، وإذا غضب الرب ماذا يكون حال العبد؟.

قال: {وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ}: واللعن هو: الطرد والإبعاد عن رحمة الله تعالى.

قال: {وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا}: أجارنا الله وإياكم وعافانا وإياكم، (لَنْ يَزَالَ المُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا)[1]، إذا تلطخت اليد بالدماء فهذا من أعظم الورطات التي لا ينفك منها الإنسان إلا برحمة الله تعالى، فلهذا كان تعظيم الدماء من أعظم مقاصد الشريعة، ومن الضرورات الخمس: حفظ النفس، وهذا يُوجب للإنسان أن يحذر ممن يتساهلون في الدماء، ممن يتساهلون في دماء المسلمين، فيستبيحونها تحت مُسوغات زينها لهم الشيطان كبعض التكفيريين والغُلاة الذين لا يُبالون بدماء المسلمين، كأنما يقتل أحدهم حمامة أو عُصفورًا أو ذُبابة، لا يُبالي بالدماء، مع هذا الوعيد العظيم الذي ذكره الله عز وجل، أو من ينال من دماء المعصومين من غير المسلمين كالمعاهد والمستأمن، والذمي، و(مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا)[2] لأنه قد دخل في عقد الإسلام، فكان احترامه من احترام الدين والملة، فالتهاون في هذا واستسهاله هذا والعياذ بالله من تعريض النفس لأعظم الورطات والعُقوبات في الدنيا والآخرة، فعلى المؤمن أن يُعظم في قلبه ونفسه حُرمات المسلمين، وحقوق الآدميين، فلا يرتكبها ولا يجتاحها بغير حق.

[1] صحيح البخاري (6862).

[2] صحيح البخاري(3166).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ)[1] ، فعلى طالب العلم أن يتبين هذا جيدًا وأن يملأ قلبه من هذه المعاني، وأن يُبين لمن حوله هذا الأمر، فإنه لم يزل يجري في أمة محمد صلى الله عليه وسلم على مر القرون من يستسهلون أمر الدماء، فتوجد الخوارج جيلًا إثر جيل، كلما فني منهم قرن ظهر منهم قرن آخر يستسهلون الدماء، وإن كان في ظاهرهم الصلاح، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم واصفًا إياهم: (يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)[2] ، ورغب في قتالهم وقال: (لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ)[3] ، وقال عنهم صلى الله عليه وسلم: (شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ)[4] ، فالحذر الحذر من هذا المنزلق الخطير.

أهل البدع شرقوا بإثبات صفة الغضب، وقالوا: لا يُمكن أن يُوصف الله بالغضب، يجب أن يُنزه الله عن الغضب، وأن يؤول الغضب إلى معنى يليق به. واقترحوا أن يكون معنى الغضب إرادة الانتقام، لاحظتم كيف أنهم حرفوا الصفة إلى صفة يُثبتونها وهي الإرادة؟ فقالوا: المراد بالغضب هو إرادة الانتقام. كما قالوا عن الرحمة: إرادة الإنعام. فنقلوها من مُراد الله تعالى إلى مُراد اقترحوه هم من أنفسهم، ولا ريب أن هذا من الضلال البين، فالله أعلم بما قال، وهو أعلم بنفسه، وأحسن حديثًا، وأصدق قيلًا، فكيف يجترئون على كلام الله تعالى ويقولون: ليس مُراد الله بكذا، كذا، مُراده كذا وكذا. هذا من أعظم التجني والعُدوان والجُرأة على كلام رب العالمين، فإذا قيل لهم: لم لا تحملون الآية على ظاهرها، وتُثبتون الغضب لله؟. يقولون: الغضب هو: غليان دم القلب لطلب الانتقام. فماذا نقول لهم؟ هذا غضب المخلوق، وعلتكم أنكم شبهتم أولًا وعطلتم ثانيًا، فأنتم فهمتم من النصوص خلاف مُراد الله، فهمتم منها التشبيه، ثم هربتم من التشبيه إلى التعطيل، كمن خرج من حفرة فوقع في حُفرة أُخرى، ولو لزمتم الخط الوسط والقسطاس المستقيم لأعطيتم النصوص حقها، وعلمتم أن الغضب الذي أثبته الله لنفسه غضب يليق به يدل على كرم صفاته وجليل المعاني، لا ما تبادر إلى أذهانكم من المعاني البشرية، قالوا: الغضب هو غليان دم القلب لطلب الانتقام. صحيح هذا غضب المخلوق، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم عن الغضب: [جمرة يُلقيها الشيطان في قلب أحدكم، فإذا وجد ذلك فليتوضأ، فإنما يُطفئ النار الماء]، فهذه علتهم، لكنا نُعطي النصوص حقها ونُثبت لله تعالى الغضب الذي يليق به، ولا شك أنه وصف كمال، وأنه صفة فعلية، فالله لا يغضب إلا إذا وُجد مُقتضى الغضب، وقد حدث النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة

[1] صحيح البخاري(6878)، صحيح مسلم (1676).

[2] صحيح البخاري (5058).، صحيح مسلم (1064).

[3] صحيح البخاري (7432).

[4] سنن الترمذي (3241).

الطويل حديث الصور قال: [إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله قط، ولن يغضب بعده قط]، أو كما قال صلى الله عليه وسلم.

قال: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ}: من؟ المنافقون، إذن دلت هذه الجُملة على إثبات صفة السخط لله عز وجل، فلله تعالى سخط يليق به، وللمخلوق سخط يليق به، أحدنا إذا سخط شيئًا بدر منه من الكلمات العصبية والتصرفات غير المتزنة ما يليق بحال المخلوق، لكن الرب سبحانه مُنزه عن هذه اللوازم، مع إثبات أصل المعنى، فالله تعالى قد أضاف السخط إلى نفسه، فبأي وجه ننفي ما أثبت لنفسه، وهو سبحانه أعلم بنفسه وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا؟.

قال: {وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ}: دلت على إثبات صفة الرضا.

قال: {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ}: **{آسَفُونَا}**: أي أغضبونا، من الأسف، والمراد بهم: آل فرعون، {فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ} [الزخرف: 55]، فلما وقع منهم ما وقع وغضب الله تعالى عليهم أحل بهم المثُلات وأغرقهم.

إذن دل ذلك على إثبات صفة الغضب، إذ الأسف بمعنى الغضب، ودل أيضًا على إثبات الانتقام لله عز وجل.

قال: {وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ}: من؟ المنافقون الذين كانوا يُرجفون {لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ} [التوبة:81]، {بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ} [التوبة: 42]، وصاروا يُشيعون مثل هذه المقولات التي يوهنون بها همة المسلمين في غزوة تبوك، فالله تعالى ثبطهم، وهذا دليل على أنه سبحانه يُضل من يشاء ويهدي من يشاء، وأنه قد يُعين من أحب، ويخذل من أبغض.

قال: {كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ}: دل على إثبات صفة الكُره لله سبحانه، فلله تعالى كُره يليق به، لا يُشبه كُره المخلوق، أنا وأنت والثاني والثالث حينما نكره شيئًا تنعقد نُفوسنا بكيفية مُعينة ويصدر منا مثلًا تصرفات أو ظنون أو غير ذلك، هذا كُره المخلوق، لكن كُره الرب يليق به، لا يلزم عليه من اللوازم البشرية ما يلزم على كُره المخلوق، فنُثبت لله ما أثبت لنفسه، ونُعطي النصوص حقها، ولا نتعرض لها بأي لون من ألوان التجني من تحريف أو تعطيل.

قال: {كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}: هذه الآية جاءت بعد قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (3) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ] [الصف: 2- 4]، كان بعض المؤمنين يتمنون أن يُفرض عليهم الجهاد كما قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ} [النساء: 7]، فكان بعض المؤمنين يتمنون أن يُفرض عليهم الجهاد، فلما وقع حصل عندهم كُره وتضايق من هذا الأمر فعتب الله عليهم، وقال: {كَبُرَ مَقْتًا}: والمقت: أشد البُغض {مَقْتًا}: تمييز.

قال: {كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}: فلو أنهم لم يقولوا شيئًا لكان ذلك أعذر لهم، لكنهم فاهوا بهذا، وكما يُقال: إن البلاء مُوكل بالمنطق.

فلهذا ينبغي للإنسان أن يقتصد، فلا يقول قولًا يندم عليه فيما مضى ويعجز عن الوفاء به، ولطالما قال الإنسان قولًا في حال نشاط وإقبال ثم يُبتلى ويعجز، فكن مُتحفظًا يا عبد الله، إذا هممت بقول شيء فاعقد في قلبك النية الصالحة ولا تقول شيئًا قد تقصر دونه، ولما قال أنس بن النضر –رضي الله عنه– لما فاته يوم بدر، أسف أسفًا شديدًا أن لم يكن شهد أول موقعة بين المسلمين وعدوهم، فقال : لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ المشْرِكِينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ [1]. ثم أمسك، خشي ألا يفي بذلك –رضي الله عنه–، لكنه أبلى بلاء حسنًا يوم أُحد حتى أنه لم يُعرف من كثرة جراحاته، لم تعرفه أُخته –رضي الله عنه– إلا ببنانه، لشده ما أُصيب به في جميع أجزاء بدنه، فهذا صدق الله فصدقه.

أما عن أثرها المسلكي: فإذا علم الإنسان أن الله تعالى يغضب، ويسخط، ويكره، ماذا يكون أثرها على العبد؟ ألا يتعرض لمساخط الله وغضبه، بل يتجنب ذلك ويفر منه، فإذا علم أن شيئًا يجلب غضب الله وسخطه ومقته حمله ذلك على الفرار منه، وعدم التعرض له، إذا كُنا في حياتنا الدُنيا مع والدينا ومع رؤسائنا، ومع من له ولاية علينا نتحاشى ما يُثير غضبهم وهم خلق مثلنا، فكيف الأمر مع الله عز وجل، فتأملوا الأثر المسلكي لإيمان المؤمن بإثبات صفة الرضا لله، وبإثبات ما يُقابلها من صفات الغضب، هذه تحمله على التعرض لمراضي الله، وهذه تحمله على الفرار وتحاشي مساخط الله، هذا هو الأثر المسلكي الذي نجنيه، والثمرة التي نقطفها من إيماننا بأسماء الله وصفاته، لا مُجرد التعداد والحسب، وإنما أن يقوم هذا المعنى بالقلب؛ فيضبط السلوك.

الدرس (12)

إثبات المجي والوجه واليدين لله تعالى

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ : {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ} [البقرة: 210]، وَقَوْلُهُ: {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [الأنعام: 158]، {كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: 21، 22]، {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا} [الفرقان: 25].

هذه الآيات تدلنا على إثبات صفة فعلية من صفات الله تعالى، وهي صفة الإتيان، وإن شئتم قولوا: صفتين: صفة الإتيان والمجيء. ومعناهما مُتقارب، فيجب علينا أن نُثبت لله تعالى ما أثبت لنفسه، وهذه الآيات المتعلقة بالمجيء والإتيان فهي صريحة في إثبات الإتيان والمجيء لله تعالى.

قال: {هَلْ يَنظُرُونَ}: أي هل ينتظرون ويرتقبون، والاستفهام هنا للتعجيب والإنكار عليهم، وهم المشركون، يعني ماذا ينتظرون؟ يعني يُكذبون برسلنا وكُتبنا، إلى أن يروا ذلك عيانًا بأبصارهم وحينئذٍ لا ينفع الندم، ولات ساعة مندم.

[1] صحيح البخاري (2805).

قال: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ}: أرأيتم كيف أن الله أضاف الإتيان إلى نفسه؟ ثم عطف على ذلك إتيان الملائكة.

قال: {إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ}: يعني وتأتيهم الملائكة، وفي هذا قطع الطريق على من أول الآيات الأُخر، الذي أوّل إتيان الله بإتيان ملائكته، فإن في الآية التي بعدها: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ} [الأنعام: 158]، نعم، هذه أيضًا تقطع الطريق على من أراد أن يؤول إتيان الله بإتيان ملائكته، فهنا قد جمع الله تعالى بين إتيانه وإتيان ملائكته في سياق واحد، فأين يذهبون؟ إذن الله تعالى يأتي إتيان حقيقيًا يليق بجلاله وعظمته على كيفية لا نعلمها، لا تُدركها عُقولنا، ولا تبلغها أوهامنا، ومتى يكون ذلك؟ يكون ذلك يوم القيامة في فصل القضاء بين العباد، يأتيهم الله في ظُلل من الغمام، والظُلل هي ما أظلك، والغمام هو السحاب الأبيض الرقيق، فيُنشئ الله تعالى بين يدي إتيانه هذا السحاب

الغمام الأبيض الرقيق، كمقدمة لإتيان الرب سبحانه وتعالى لفصل القضاء بين عباده.

قال: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ}: أي وتأتيهم الملائكة.

قال: {وَقُضِيَ الأَمْرُ}: أي حصل الفصل بين العباد، فرأى كلٌ سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

قال: {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ}: الله أكبر! لا سبيل للتحريف، فالملائكة تأتي، والرب سبحانه وتعالى يأتي إتيانًا يليق بجلاله، فهل ينظرون هذا؟ أم ينظرون شيئًا قبله، وهو شرط كبير من أشراط الساعة، وهو أن يأتي بعض آيات ربك؟ والآيات جمع آية وهي: العلامة، وقد فسرها النبي صلى الله عليه وسلم بطلوع الشمس من مغربها، تفسيرًا لا يبقى معه تفسير، ولا قول لأحد، ففسر قوله: {أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ} [الأنعام: 158] بطلوع الشمس من مغربها[1]، وهذا من آخر أشراط الساعة، فإن الشمس كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم إذا غابت، تأتي فتسجد تحت العرش، كما في حديث أبي ذر -رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لِأَبِي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: " فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ})[2]، فبين الناس ينتظرون شروقها قد حُبست عنهم ينظرون باتجاه المشرق متى تطلع عليهم الشمس؟ إذا بها تخرج من جهة المغرب، أجارنا الله وإياكم، أي فزع يلحق الناس؟ هذه الشمس التي مذ خلق الله السماوات والأرض وهي تدور في فلك تسبح فيه بانتظام، لا تحيد عنه قيد أنملة يقع لها هذا التغير الهائل، بدلًا من أن تطلع من جهة المشرق

---

[1] صحيح البخاري حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين: {لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل}(4635).

[2] صحيح البخاري (3199).

تطلع من جهة المغرب، فهذه علامة باهرة، وحينئذٍ {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ} [الأنعام: 158] ، يُقفل باب التوبة، لأنها خرجت من باب المغرب، فحينئذٍ يُقفل باب التوبة، وتكون الدابة على إثرها – والله أعلم–، أيهما ظهرت أولًا فالأُخرى على إثرها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، والأقرب –والله أعلم– أن الشمس تطلع من مغربها ثم في ضُحى ذلك اليوم تظهر الدابة، فتسم كل إنسان بوصفه، مؤمن، كافر، مؤمن، كافر، حينئذٍ يُقفل باب التوبة، {لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا} [الأنعام: 158].

قال: {كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا}: الدك هو الدق والتفتيت، وذلك أن الأرض يوم القيامة تتعرض لأحداث جسام، الجبال الشامخات تُبس بسًا، تزول، تدور دورانًا، وتمور مورانًا، ثم يؤل حالها إلى أن تُفتت وتُصبح هباء منثورًا، كالعهن المنفوش، ثم تُصبح ذروًا، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا} [طه: 105– 107] إذن يوم القيامة تُدك الأرض دكًا دكًا، وتُصبح كالقرصة، كالخبزة، صعيد واحد ليس فيه معلم لأحد، تلك الأرض هي الأرض المبدلة التي قال الله عنها: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُواْ للَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم: 48]، أرض مُستوية لم يُسفك عليها دم، ليس فيها معلم لأحد، لا جبل يُرتقى، ولا واد يُهبط إليه، ولا مغارة تُكِنّ، الجميع على مستوى واحد، في تلك الحال ينزل الرب، ويجيء للفصل بين عباده، {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} [الفجر: 22] إذن {وَالْمَلَكُ}: عطف، والتقدير: وجاء ربك وجاء الملك صفًا صفًا، وذلك أن من شأن ملائكة الرحمن الانضباط والتنظيم، فهم مُنظمون في جميع أُمورهم، مُنضبطون، يأتون صفوفًا، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَلاَ تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ)[1] ، فدلت الآية على إثبات المجيء لله تعالى مجيئًا حقيقيًا يليق بجلاله وعظمته.

قال: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلًا}: يذكر الله تعالى مُقدمات أو أحوال يوم القيامة، بأن السماء تشقق بالغمام، يعني تتشقق ويُصاحب تشققها هذا ظهور الغمام الأبيض الخفيف.

قال: {وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلًا}: فالملائكة تنزل، كل ذلك إرهاص ومُقدمة لنزول الرب سبحانه وبحمده، وقد جاء في حديث الصور الطويل، وفي سنده مقال: أن السماء الدنيا تنشق فتنزل ملائكتها فتُحيط بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم، ثم تنشق السماء الثانية فتنزل ملائكتها فيُحيطون بمن قبلهم، والثالثة والرابعة حتى السابعة، ثم بعد ذلك ينزل الرب للفصل والقضاء بين عباده، هذا حق، هذا يقين، لكن ما أعظم غفلتنا! لو قيل لأحدنا: إن عندك غدًا مُقابلة شخصية أو اختبار. لربما صار عنده نوع من التوتر والتحسب والترقب، وهو أمر دُنيوي زائل، ونحن نُوعد بهذه المواعيد، وأحدنا ينام ملء عينيه، ويضحك ملء شدقيه، وكأن الأمر مُجرد أخبار، فنسأل الله أن يعظنا موعظة حسنة، هذا يوم آت، يوم قادم لا ريب فيه، فنسأل الله أن يجعلنا فيه من السعداء الآمنين.

---

[1] صحيح مسلم (430).

فدلت هذه الآية على إثبات صفتي الإتيان والمجيء لله تعالى إتيانًا ومجيئًا يليق به، فيجب أن نُثبت ما أثبت الرب لنفسه، وأما أهل البدع فعلى جري عادتهم أنكروا هذا، وقالوا: هذا يلزم منه النُقلة والحركة. وأخذوا يأتون بلوازم –سبحان الله– {أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ} [البقرة: 140] بأي حق تُعطون أنفسكم صلاحية المنع والإجازة، وكأن الله تعالى لا يعلم ما يقول، ولا يُحسن ما يقول، تعالى الله عن ذلك، حتى تُنصبوا أنفسكم مُحكمين تُجيزون وتمنعون، أي جُرأة على الله فعلتموها؟ فقالوا: إن المقصود بمجيئه مجيء أمره أو مجيء ملائكته، أو غير ذلك. لكن النصوص تأبى عليهم، فإن كل عربي قُح يفهم من هذه الآيات مُباشرة: أن الرب يجيء، أن الله يأتي، لا يفهم سوى ذلك، لكن القوم لما استصحبوا المقدمات الباطلة وأعملوا المنطق الفاسد، واعتقدوا ثم استدلوا، نشأ عنه ما رأيتم من صور الانحراف والضلال، وحرفوا الكلِّم عن مواضعه.

وقبل أن نُغادر هذا الموضع أود أن أُبين بأن الإتيان والمجيء إذا جاء مُضافًا فإنه يتقيد بما أُضيف إليه ولا يكون صفة، أما إذا جاء مُطلقًا فإنه يدل على الصفة، يتبين هذا بالمثال:

مثلًا: قال الله عز وجل: {وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ} [الأعراف: 51]، هل هذه الآية تدل على إثبات صفة المجيء لله؟ لا، معنى {جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ} [الأعراف: 51]، يعني أنزلنا إليهم كتابًا، لا تدل على صفة المجيء لله تعالى، لأنها قد قُيدت بكتاب، {وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ} [الأعراف: 51]، فلا تدل على إثبات صفة المجيء، إنما يدل عليها ما أُطلق، كقوله: {وَجَاءَ رَبُّكَ} [الفجر: 22].

مثال على الإتيان: قال النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر قنوط العباد من نزول المطر، قال: [حتى أتى الله بالرحمة والخير]، هل هذا النص يدل عل إثبات صفة الإتيان؟ لا، لأنه مُقيد، قال: [بالرحمة والخير] يعني المطر، فلننتبه! فإن جاء الشيء مُطلقًا دل على إثبات الصفة، وإن جاء مُقيدًا فإنه لا يدل على إثبات الصفة.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ } {الرحمن: 27}، {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} [القصص: 88].

دلت هاتان الآيتان على إثبات صفة خبرية من صفات الله سبحانه وتعالى وهي صفة الوجه، فلربنا جل وعلا وجه كريم يليق بجلاله وعظمته، وهو وجه حقيقي لا يُماثل وجوه المخلوقين، لكنه وجه حقيقي، إذ الوجه مُشتق من المواجهة، فلربنا سبحانه وتعالى صفة الوجه، ويجب أن نُثبتها لله تعالى كما أثبتها لنفسه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فنعتقد أن لربنا سبحانه وبحمده وجهًا كريمًا، سُبُحاته النور، و (حِجَابُهُ النُّورُ – وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: النَّارُ – لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ)[1]، فأهل السنة والجماعة يُثبتون لله تعالى صفة الوجه، ولا يُحرفونها، أما أهل البدع فإنهم شرقوا بهذا وضاقوا به ذرعًا، ورأوا أن إثبات الوجه لله يقتضي تمثيله بالمخلوقين، لأنه تبادر إلى أذهانهم أن الوجه هو الوجه المعهود في الأذهان، الذي يرونه في الموجودات من الإنسان والحيوان وغير ذلك، فالواقع

[1] صحيح مسلم (179).

أنهم شبهوا أولًا وعطلوا ثانيًا، هذه محنة المعطلة، أنهم يتبادر إلى أذهانهم من النصوص المعنى السيء، وهو: التشبيه أو التمثيل، ثم يهربون منه ليقعوا في التعطيل، فيجمعون بين السوءتين، ولو أنهم أعطوا النصوص حقها لعلموا أنه يسعهم أن يُثبتوا لله ما أثبت لنفسه إثباتًا حقيقيًا، ولا يلزم من هذا الإثبات الحقيقي التمثيل أو التكييف، إذن الواجب علينا أن نثبت لربنا ما أثبته لنفسه من هذا الوصف الكريم، بل إن هذه الصفة صفة الوجه من أعظم ما يتعلق به المؤمنون، ألم تروا أن الإنسان يقول في مُناجاته كما جاء في الحديث الصحيح: (وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ)[1]، فلا يُوجد لذة يتنعم بها أهل الجنة مثل لذة النظر إلى وجه الله الكريم، ونقول لهؤلاء: ما تصنعون بناطق الكتاب وصحيح السنة؟. قالوا: ليس على ظاهره، فالمراد بالوجه: الثواب، أو المراد بالوجه: الذات. وهذا تحريف فالواقع أن هذا التحريف يُوقعهم في لوازم لا يستطيعون الفكاك منها، فمثلًا: حينما يقولون: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن: 27] أرأيت لو أنك رفعت كلمة {وَجْهُ} ووضعت مكانها: ذات، هل يُمكن أن يُضاف الشيء إلى نفسه؟ لا يُمكن، وكان يُغني عنه أن يقول: ويبقى ربك. إذن ما قال الله: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ} [الرحمن: 27] إلا لحكمة، وأن له وجهًا حقيقيًا سبحانه وبحمده، ولهذا لاحظوا أن الله سبحانه وتعالى ختم الآية فقال: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: 27] فـ {ذو} من الأسماء الخمسة، وجاءت مرفوعة، إذن ينبغي أن تكون صفة لمرفوع، أليس كذلك؟ لو كان الوجه هو الذات، لقال: ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام. كما قال في آخر السورة: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: 78] لكنه قال ها هنا: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: 27] فـ {ذُو} من الأسماء الخمسة وقد جاءت مرفوعة، فدلت على أنها صفة لمرفوع، مما يدل على أن الله أراد إثبات وصفًا حقيقيًا غير الذات، وهو صفة الوجه.

أيضًا من زعم أن المراد هو الثواب، هل يُقال: ويبقى ثواب ربك؟. يعني لا يبقى إلا ثواب ربك فقط؟ لأن أول الآية: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ} [الرحمن: 26، 27] ولكن تفسير هذه الآية هو أن الله سبحانه وتعالى إذا أفنى الخلائق يوم القيامة يقول: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} ، أين الجبابرة؟، أين ملوك الدينا؟ أين كذا؟ فلا يُجيبه أحد، يقول الرب: {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} [غافر: 16] فيُجيب الرب سبحانه وتعالى على نفسه: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [غافر: 16]، وإنما عبر بالوجه عن الذات لأن الوجه في لُغة العرب أشرف ما يكون في الذات، فأنت مثلًا تقول لصاحبك: والله ما فعلت هذا إلا لهذا الوجه. أليس كذلك؟ هل تقول مثلًا لصاحبك: ترى أنا فعلت هذا لهذا الكتف، أو لهذه الركبة، أو لهذا القدم؟. لا أحد يقول ذلك، أشرف ما في الكينونة في لُغة العرب هو الوجه، لأنه هو الذي يُعبر عن المواجهة، فلذلك عبر الله تعالى عن ذاته الكريمة بالوجه، إذ الوجه مُشتق من المواجهة، فالواجب علينا أن نُثبت ما أثبت الرب لنفسه، وألا نتلجلج في ذلك ولا نستشنع ما أثبت الرب لنفسه، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قِيلًا وأحسن حديثًا، فليس لأحد أن يستدرك على الله ما قال، فليسوا أغير على الله من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والصحابة الكرام –رضي الله عنهم– ذوو القريحة العربية والسليقة ما فهموا من إثبات الوجه ما فهمه المتأخرون من أن ذلك

[1] سنن النسائي 1305)، صححه الألباني.

يقتضي تمثيلًا بالمخلوقين، بل اعتقدوا أن لله تعالى وجهًا كريمًا يليق بجلاله وعظمته لا يُماثل وُجه المخلوقين، {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} [القصص: 88]، فكل ما في هذا الكون يُهلكه الله سبحانه وتعالى إلا ما استثنى فإن الله تعالى قد قال في آية الزمر: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ} [الزمر: 68]، فقد استثنى الله من شاء، أما عامة الخلائق والكائنات فإنها تهلك، ويبقى الرب سبحانه وتعالى، ولهذا كان من أسمائه الحسنى الآخر، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ناجى ربه يقول : (اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ)[1] ، إذن هذا هو الواجب علينا في إثبات هذه الصفة الخبرية إثباتها، والحذر من الوُقوع في التحريف والتعطيل، أو التمثيل والتكييف

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } [ص:75] ، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: 64].

اكتفى الشيخ –رحمه الله– بذكر هاتين الآيتين على إثبات صفة اليدين لله عز وجل، وإلا ففي القرآن العظيم أكثر من ذلك، فعقيدة أهل السنة والجماعة إثبات صفة اليدين لله عز وجل، وأن الله سبحانه وتعالى له يدان حقيقيتان مبسوطتان بالعطاء والنعم لا تُماثلان أيدى المخلوقين، هذا مُعتقد أهل السنة والجماعة أن لله سبحانه وتعالى يدين حقيقيتين مبسوطتين بالعطاء والنعم، لا تُماثلان أيدي المخلوقين، وحينما نقول: إنهما يدان حقيقيتان. لا يقتضي ذلك أن تكون كأيدي المخلوقين، لكن نقول: هي يد حقيقة، موصوفة بالبسط، والقبض، والكف، واليمين، والأصابع. وغير ذلك من الصفات التي تُضاف إلى الأيدي الحقيقية، لكن على غير مُماثلة للمخلوقين، فيجب علينا أن نؤمن بهذا كما أخبر ربنا سبحانه عن نفسه، وتأملوا أنه خاطب إبليس بهذا فقال تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75] هكذا بصيغة التثنية، وقال سبحانه رادًا على يهود حينما قالوا: {يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ} [المائدة: 64]، لم يُنكر الله تعالى عليهم إثبات اليد، وإنما أنكر عليهم وصفها بأنها مغلولة، ولهذا قال بعدها: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: 64]، لم يقل: ليس له يدان. وإنما أنكر عليهم وصفه بالبخل، تعالى الله عن ذلك علوً كبيرًا، قال: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} [المائدة: 64]، وحكم عليهم بقول: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} [المائدة: 64]، فلا تجد يهوديًا إلا بخيلًا، ولذلك انظروا لما كانت اليهود هم الذين يُسيطرون على الاقتصاد العالمي أسسوا النظام الربوي الذي يقوم على ابتزاز الآخرين واستلاب حُقوقهم، وعدم الإحسان والفضل والبذل، لأن هذه عقيدة يهود، قاتلهم الله، وأصابهم ما حكم الله تعالى به عليهم من قوله: {غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ} [المائدة: 64]، فتجد في جميع الثقافات العالمية والأدبيات العالمية اليهودي دومًا موصوف بالبخل، موصوف بالإمساك، لأن الله تعالى حقق عليهم هذا الوصف، حتى في الروايات العالمية دائمًا يُصور اليهودي بصورة البخيل، المبتز، المرابي، إلى غير ذلك من الأوصاف.

[1] صحيح مسلم (2713).

إذن علينا أن نعتقد أن لله تعالى يدان حقيقيتان مبسوطتان بالعطاء والنعم لا تُماثلان أيدي المخلوقين، وأنهما موصوفتان بما تُوصف به الأيدي الحقيقية من القبض، والبسط، والرفع، والخفض، والطي، والأصابع، والكف، واليمين، ونحو ذلك، كل هذا ثابت بالنصوص من الكتاب والسنة، أما أهل البدع فقد أبوا ذلك، وقالوا: لا يُمكن أن نُثبت لله تعالى يدين حقيقيتين. لم؟ لشُبهتهم القديمة، وهي أن إثبات ذلك يقتضي التمثيل، فنقول لهم: أنتم اعتقدتم أن إثبات اليدين يقتضي التمثيل فوقعتم في التمثيل أولًا، ثم هربتم منه فوقعتم في التعطيل ثانيًا، ماذا تصنعون بهذه الآيات؟ قالوا: كلا، المراد باليد، النعمة أو القُدرة. ماذا نُسمي هذا؟ نُسميه تحريفًا، وهم يُسمونه تأويلًا، والواقع أنه تحريف لأنه لا دليل لهم، ولا أثارة من علم على نقل معنى اليد إلى النعمة أو القدرة، فيقولون: إن معنى قول الله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: 1] يعني بقدرته، {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75] المراد باليد النعمة، أو القدرة أو نحو ذلك، فيُقال لهم:

أولًا: صنيعكم هذا صرف للفظ عن ظاهره إلى خلاف ظاهره بلا دليل، والأصل في الكلام أنه على حقيقته، فمن ادعى أنه على خلاف حقيقته فلا بد له من الدليل الموجب لنقل الكلام من ظاهره إلى خلاف ظاهره، وأنّى لكم؟ فلا دليل عندكم، طبعًا هم يستدلوا بأن هذا لأجل عدم الوُقوع في التمثيل فنقول لهم: هذا وهم فاسد لا يلزم منه ما ظننتم وسبق إلى أذهانكم.

ثانيًا: أن نقول لهؤلاء: على قولكم بأن اليد بمعنى النعمة، إذن أنتم حصرتم نعم الله بنعمتين، لأن الله أتى بصفة اليد مُثناه، فهل يقول مؤمن: ليس لله تعالى إلا نعمتين اثنتين؟!. نعم الله كثيرة كما قال الله تعالى: {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا} [إبراهيم: 34]، {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} [لقمان: 20]، وعلى قولكم لا يكون لله إلا نعمتان اثنتان فقط، لأنه قال: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75]، يعني بنعمتي، {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: 64]، بل نعمتاه، فحصرتم النعم الكثيرة التي إن تُعد لا تُحصى باثنتين، وهذا دليل على فساد ما ذهبتم إليه.

ثالثًا: لو فسرنا اليد بالقدرة، لأدى ذلك إلى أن تُثبتوا لله قُدرتين، وبإجماع أهل السنة أن الله تعالى له قدرة واحدة يقدر بها على جميع الأشياء، فأنتم أثبتم قُدرتين، فهذا يدل على فساد مذهبكم.

رابعًا: نقول: على زعمكم بأن اليد بمعنى القدرة أي فرق إذن بين آدم وغيره؟. الله تعالى كرم آدم عليه السلام بأن خلقه بيديه، فلو كان معنى: بيديه، أي: بقدرته، لم يكن هناك فرق بين آدم عليه السلام وغيره من المخلوقات، لو كان كذلك لاحتج إبليس على ربه حينما قال له ربه: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75]، لو كان معنى اليد القدرة، لقال إبليس: وأنا يا رب خلقتني بيديك. على اعتبار أن اليد هي القدرة، لكن إبليس أفقه من هؤلاء المحرفة، يعلم أن لله سبحانه وتعالى يد حقيقية، وهؤلاء القوم لم يُدركوا ما أدرك إبليس، فأي جهل هذا؟! يكون إبليس أعلم بالله منهم.

فكما تُلاحظون أن أي قول باطل يلزم عليه من اللوازم الفاسدة ما لا يستطيع المبطل أن ينفك منه، **فهو أمام أمرين:**

الأمر الأول: أن يلتزم بلازمه، فيكفر.

الأمر الثاني: أن يتراجع عن ذلك ويأباه، فيلزمه أن يتخلى عن مقالته.

فهذا هو خُلاصة ما يتعلق بإثبات هذه الصفة الشريفة، وهي إثبات صفة اليدين.

الدرس (13)

إثبات العينين واليدين لله

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: 48]} .**

وَقَوْلُهُ: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ} [القمر: 13، 14] .

وَقَوْلُهُ: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ} [آل عمران: 54] .

وَقَوْلُهُ: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [النمل: 50] .

وَقَوْلُهُ: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق: 15، 16] .

هذه الآيات الثلاث دلت على إثبات صفة العينين لله تعالى، فأهل السنة والجماعة يعتقدون أن لله سبحانه وتعالى عينين اثنتين، يُبصر بهما حقيقة، هذا مُعتقد أهل السنة والجماعة، وقد أخذوه من ناطق الكتاب وصحيح السنة، فيثبتون لله صفة العينين إثباتًا حقيقيًا، على وجه لا يُماثل المخلوقين، فما أُضيف إلى الله يختص به، وما أضيف إلى المخلوق يختص به، فها نحن الآن نصف بعض الأشياء والموجودات بالعين مع وُجود الفوارق بينها، فنقول: هذه عين إنسان. ونقول عن الصقر: عين الصقر، ثاقب النظر. ونقول: هذه عين الكاميرا. وهكذا، فالواقع أن اتفاق الأسماء لا يلزم منه اتفاق الحقائق والمسميات، فلله تعالى عينان كريمتان يُبصر بهما حقيقة لا تُماثل أعين المخلوقين، وأما أهل البدع فعلى جري عادتهم وطريقتهم أنكروا ما أثبت الرب لنفسه، وأولوا صفة العينين إلى العلم، أو ما أشبه ذلك من التحريفات، ولعلمكم معشر طلبة العلم جميع أهل التأويل والتحريف المذموم لا يقولون: إن ما نذكره من هذه التأويلات قام عليه دليل. هُم مُقرون معترفون بأنه لا دليل عليها، وأنهم إنما يفعلون ذلك من باب الاجتهاد في حمل كلام الله على معان لائقة، حتى لا يظن العامة بالله ظن التمثيل، ولو سلم العامة منهم لكان خيرًا، هم الذين أفسدوا عقائد العامة ونقلوهم من الفهم الفطري العفوي الصحيح، إلى هذه اللوثات الباطلة، فأوقروا في قُلوب العامة أن هذه الآيات تدل على التمثيل، وأن الواجب صرفها عن ظاهرها واقتراح معان أُخرى بلا دليل، فأي مُجازفة يصنعونها؟ وأي تضليل يُمارسونه في أعظم وأخطر أبواب الدين وهو باب العلم بالله تعالى؟ فلذلك نقول: بل نعتصم بالكتاب والسنة ونُثبت ما أثبت الرب لنفسه.

إذن لعلكم تُلاحظون معشر طلبة العلم ومن بلغ أن هذه المجموعات الثلاث دالة على إثبات الصفات الخبرية لله وهي: صفة الوجه، وصفة اليدين، وصفة العينين، وهكذا كل ما أخبر الله تعالى به عن نفسه، فالواجب علينا أن نتقبله قبولًا حسنًا، وألا نضيق به ذرعًا، وألا نستشنع شيئًا منه، وأن نحمله على المثل الأعلى الذي أراده الله سبحانه وتعالى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىَ} [النحل: 60]، {وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ } [الروم: 27]، وأن نُنزه الله تعالى عن مُماثلة المخلوقين، عن كل نقص وعيب ومُماثلة المخلوقين، فنُثبت لله إثباتًا بلا تمثيل، ونُنزه الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل، هذه هي الطريق السوية التي تُثمر العلم والحكمة والسلامة، وما سواها فسُبل ضلالة تهوى بصاحبها في الدركات وتجعله بلا حُجة أمام الله عز وجل، ما حُجة هذا المحرف يوم القيامة إذا قال له ربه: من أين لك أن اليد بمعنى النعمة؟ من أين لك أن اليد بمعنى القدرة؟ من أين لك أن الوجه بمعنى الثواب؟ من أين لك بأن العين بمعنى العلم؟ لا دليل له، لا أثارة من علم، وإنما هي بنات أفكار، وخواطر جرت، ولذلك تختلف تأويلاتهم فيها، حتى إنهم يؤلفون في أقاويل الثقات في تأويل الصفات، كلٌ يأتي من رأسه **بصوت**، ولا يُمكن أن يكون هذا المقام العظيم الشريف في مهب الريح نهبًا لكل فكرة وكل طارق، قد بين الله تعالى مُراده بكلام بين صريح فصل، وكذا نبيه صلى الله عليه وسلم، لكن هاهنا إشكال رُبما خطر ببال بعضكم، وهو أننا حينما نتأمل الآيات الواردة في إثبات صفة اليدين والعينين خاصة، لأن هما اللتان وردتا بصيغة التثنية، بخلاف الوجه، فالوجه ورد بصيغة الإفراد لفظًا واحدًا، لكن لو تأملنا في صفة اليدين والعينين لوجدنا أنهما وردتا تارة بالإفراد، وتارة بالتثنية، وتارة بالجمع، أليس كذلك؟ تأملوا معي: اليدين، بصفة الإفراد: قال الله عز وجل: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: 1].

تثنية: قال تعالى: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: 75].

صيغة الجمع: قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا} [يس: 71].

إذن عندنا إفراد وتثنية وجمع.

والعينان، إذا أتينا إلى صفة الإفراد نجد أن الله تعالى قال: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39] يعني بذلك كليم الله موسى عليه السلام، مُمتنًا عليه أنه ترعرع ونشأ بمرأى من الله سبحانه وتعالى.

وبصيغة التثنية لا نجد هذا في القرآن، لا نجد في القرآن آية فيها ذكر العينين بصيغة التثنية، لكن رُبما وجدنا ذكر في السنة، فقد ورد في حديث وإن كان فيه مقال: [إذا قام العبد يُصلى قام بين عيني الرحمن] بالتثنية، لكن يُمكن أن نستغني عنه بدليل آخر، وإن لم يكن صريحًا لفظًا لكنه صريح معنى، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر الدجال قال: (أَلاَ إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ)[1] فدل ذلك على أن الرب سبحانه وتعالى له عينان اثنتان، فهذا يدل على التثنية.

[1] صحيح البخاري (7131)، صحيح مسلم (2933).

أما بصيغة الجمع فقد قال الله تعالى: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: 14] إذن ماذا نصنع أمام هذا التنوع في السِياق؟ لو قال لنا قائل: هذا تحكم منكم أنكم اخترتم التثنية دون الإفراد ودون الجمع. نقول: كلا، نُرتب الآن الأُمور ليتبين أن المقصود التثنية:

أولًا: المفرد المضاف لا يُنافي لا التثنية ولا الجمع. قوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: 1]، أو قوله: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي} [طه: 39]، هذا أليس مُفردًا؟ ومُفردًا مُضافًا، { عَيْنِي}، أضاف العين إلى ياء المتكلم، {بِيَدِهِ} أضاف اليد إلى الضمير، **في لُغة العرب أن المُفرد المُضاف يعم** ، يعني لا يدل على الإفراد فقط، أُقرب لكم لذلك بمثال: حينما يقول أحدكم: شاهدت الحادث بعيني. هل يُقال: والله مسكين هذا **أعور**؟. لا يُقال ذلك، حينما تقول مثلًا: مشيت إلى المسجد برجلي. هل يُقال: إنه مبتور القدم؟. لا، لأن المفرد المضاف يعم، لا ينافي التثنية أو الجمع، إذن انتهينا من المقام الأول من الخلاف، فالإفراد لا يُنافي التثنية ولا الجمع، لأنه في لُغة العرب المفرد المضاف يعم، فلا يُنافي لا التثنية ولا الجمع.

إذن بقي الإشكال: كيف نُوفق بين التثنية والجمع؟ فالجواب عن ذلك أن يُقال: إن الجمع الوارد في قوله: {بِأَيْدِينَا} [التوبة: 52]، {بِأَعْيُنِنَا} [هود: 37، المؤمنون: 27، الطور: 48، القمر: 14]، لا يُقصد به التكثير، وإنما يُقصد به التعظيم، فإن الرجل المعظم من بني آدم إذا أراد أن يُعبر عن نفسه ماذا يقول؟ يقول: نحن فلان بن فلان. وهو شخص واحد، أمرنا بما هو آت. أمرنا، نا هذه على ماذا تدل في الأصل؟ تدل على أنها نا الفاعلين، لكنه لم يقصد بها الكثرة وإنما قصد بها التعظيم، إذن معروفٌ في لُغة العرب أنه يؤتى بنا الفاعلين ولا يُراد بها التكثير وإنما يُراد بها التعظيم، هذا وجه.

ووجه آخر: لكي تحصل مُشاكلة بين المضاف والمضاف إليه، فلما كان المضاف إليه في أصل وضعه يدل على التعدد وإن كان المقصود به هنا التعظيم، ناسب أن يكون المضاف على شاكلته بصيغة الجمع، فقال: {أَيْدِينَا} فيكون تعظيمًا مُضاعفًا، {أَعْيُنِنَا} يكون تعظيمًا مُضاعفًا، فتبين بهذا أن الجمع في قوله: {أَيْدِينَا} و {أَعْيُنِنَا} لا يُراد به حقيقة الجمع الذي بمعنى التكثير، وإنما يُراد به التعظيم والمشاكلة بين المضاف والمضاف إليه، المشاكلة يعني أنه يكون من شكل وجنس واحد، فإذا جاء هذا بصيغة الجمع، جاء هذا بصيغة الجمع، فيكون ذلك أبلغ في التعظيم، فبالتالي نقول: لله تعالى: **يدان** اثنتان. وقد جاء ذلك مُصرحًا في السنة: (يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟)[1] ، فهكذا أثبت النبي صلى الله عليه وسلم بصريح العبارة أنهما يدان اثنتان كما في الآيات، فيصدق بعضه بعضًا، وكذلك العينين، قال: (إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ)[2]: فدل ذلك على أن المقصود التثنية، لا الإفراد، ولا

[1] صحيح مسلم (2788).

[2] صحيح البخاري (7131)، صحيح مسلم (2933).

الجمع، فبذلك يزول الإشكال بين هذه الصيغ المختلفة من الإفراد والتثنية والجمع، ويتبين أن قولنا بالتثنية ليس تحكمًا وإنما هو الموافق المطابق للغة العرب.

فاتنا أن نُبين معاني الآيات، في آيات العينين.

قال: {وَاصْبِرْ}: الصبر في اللغة هو: الحبس والمنع، والمقصود بهذا الصبر على حُكم الله، **وحكم الله نوعين:**

الحكم الأول: حُكم كوني قدري.

الحكم الثاني: حُكم ديني شرعي.

فالحكم الكوني القدري هو ما يُقدره الله تعالى من المصائب والبلاء، فيجب على الإنسان، الصبر عليه، كيف يكون الصبر عليه؟ بحبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والسخط، والجوارح عن شق الجيوب ولطم الخدود والدعاء بدعوى الجاهلية.

أما الصبر على حُكم الله الشرعي الديني فيكون بامتثال الأوامر، واجتناب المناهي.

إذن الله تعالى يقول لنبيه: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ} [الطور: 48] والخطاب لنبيه صلى الله عليه وسلم خطاب للأمة بعده، فنحن جميعًا مأمورون أن نصبر لحُكم ربنا، سواءً كان ذلك الحُكم حُكمًا كونيًا قدريًا، أم كان ذلك حُكمًا دينيًا شرعيًا، وعرفنا كيف يكون الصبر؟.

قال: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} : هاهنا شُبهة يثيرها بعض المؤولة، يقولون: ها أنتم يا أهل السنة مُضطرين للتأويل مثلنا. لم؟ قالوا: هل يُمكن أن تقولوا: {بِأَعْيُنِنَا} أن محمد صلى الله عليه وسلم في عين الرب؟ هل يُمكن أن تكون عين الرب ظرفًا مكانيًا للنبي صلى الله عليه وسلم؟. والحقيقة أنهم أُتوا بسبب عُجمتهم، وعدم ذائقتهم العربية، فإن معنى قول الله تعالى: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [الطور: 48]: أي بمرأى منا نراك بأعيننا، فأنت مثلًا حينما تقول مثلًا لابنك: تراك بعيني. هل تقصد بين أهدابك؟ بين أشفار عينيك؟ لا، تراك بعيني، يعني أراك بعيني، وهكذا حينما يقول مثلًا السلطان للجاري أو المجرم: اذهب وأنت في عيني. مُراده أنك في عيني أي تحت نظري، أُبصرك وأُتابعك، هذا هو المقصود، لكن القوم توهموا أن في هذا إلزامًا لأهل السنة وأنهم مُضطرون للتأويل، ولا تأويل، فأهل السنة هم أعرف الناس بلغة العرب، ومُراد الله، وخطابه لعباده، كذا في الآية التي بعدها.

قال: {وَحَمَلْنَاهُ}: من؟ نوح عليه السلام.

قال: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ }: اللوح هو الخشب العريض، والدُسر المسامير، ما هي ذات الألواح والدُسر؟ السفينة، الفلك الذي صنعه نوح عليه السلام بتعليم الله إياه.

قال: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا}: أي بمرأى منا نراها بأعيننا وتحت كلاءتنا ورعايتنا، فهذا ليس فيه تأويل ولا تحريف بل يدل على إثبات العينين لله تعالى، وأنه يُبصر بهما حقيقة، فلا تُشوش عليك أيها الموحد مثل هذه الواردات التي يُوردها

المحرفون، ويقولون: إنكم مُضطرون للتأويل. نقول: لا تأويل أبدًا بل هي حق على حقيقتها، فمعنى {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} [القمر: 14]: أي بمرأى منا نراها بأعيننا.

قال: {وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي}: الله تعالى يمتن على موسى عليه السلام بأنه لما وضعته أُمه في التابوت وقذفته في اليم مُتوكلة على الله، ودفعه اليم حتى بلغ ضفاف النهر عند قصر فرعون، ألقى الله سبحانه وتعالى على هذا الوليد الرضيع ألقى عليه محبة، بحيث كل من رآه أحس بمحبة، وهذا أمرٌ مُدرك، أحيانًا ترى لأول وهلة أحدًا فتُحبه، أليس كذلك؟ هكذا الله تعالى مع أن موسى عليه السلام حينما وقع في أيدي آل فرعون أدركوا أن شبهه شبه بني إسرائيل، عرفوا أن ملامحه وتقاسيمه ليست تقاسيم آل فرعون، وإنما هو من بني إسرائيل، وهذا واضح، الناس يعرفون القسمات والسمات، لكن مع ذلك ألقى الله سبحانه وتعالى عليه محبة، فأحبته امرأة فرعون، وكذا فرعون، حتى أقنعت زوجها بأن يتخذوه ولدًا، وقالوا: ما يُدريه إذا كبر أنه من بني إسرائيل ما منه خطر؟. مع أنه كان يقتل الأطفال، {يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ} [القصص: 4].

قال: {وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي}: أي لتنشأ وترعرع.

قال: {عَلَى عَيْنِي}: أي بمرأى مني، أراك بعيني.

فهذه الآيات كُلها دلت على إثبات ما سمعتم من إثبات الوجه الكريم لله تعالى، واليدين المبسوطتين بالعطاء والنعم، والعينين الكريمتين التي يُصبر بهما حقيقة.

أما عن الأثر المسلكي المتعلق بإثبات صفة الوجه واليدين والعينين لله سبحانه وتعالى، فإننا قد قررنا مرارًا بأنه ما من صفة من صفات الله إلا ولها أثر على من يؤمن بها، فإيماننا بإثبات الوجه لله تعالى يحملنا على التعلق به سبحانه، وأن نتمنى رؤية وجهه الكريم، فأعظم لذة يُمكن أن ينالها مؤمن أن يرى وجه الله، ألم تروا أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه، تاقت نفسه إلى رؤيته فقال: {رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} [الأعراف: 143]، هكذا كل مؤمن يشتاق أن يرى ربه، إلهه ومعبوده، لأنه ما معنى التأله؟ الانجذاب، فأنت تتمنى أن ترى ربك، وتتمنى رؤية وجهه الكريم، فهذا يجعل الإنسان في شوق دائم وتوق وتطلع لبلوغ هذه النعمة العظيمة، هذا مما يحصل من جراء الإيمان بوجه الله الكريم، وأيضًا يُنشئ عندك نوعًا من الإخلاص والتوحيد، فأنت كلما هممت بعمل تقول: ابتغاء وجه ربي. {وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى (19) إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى} [الليل: 19، 20].

أيضًا الإيمان بإثبات اليدين لله تعالى له أثر مسلكي على الإنسان وهو أنه يعلم أن ربه فعال، يأخذ ويقبض، ويبسط، ويبطش، ويطوي، ويفعل بيديه سبحانه ما شاء، كما أنه أيضًا سبحانه وتعالى يُعطي، {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: 64]، فيكون إيمانه بإثبات اليدين لله تعالى يتراوح بين الخوف من بطشه والرجاء لثوابه، كذلك إيمانك بإثبات العينين لله تعالى يحملك على توقي أن يراك الله تعالى بعينيه على حال يسخط بها عليك، ويحملك على أن تتعرض لربك

بأن يراك على حال بعينيه وأنت في حال تُرضيه، كقيام ليل، أو صدقة، أو غير ذلك، فهذه الصفات الربانية لها أثر مسلكي على المؤمن.

أورد شيخ الإسلام -رحمه الله تعالى- بعد ذلك طائفة من الآيات الدالة على إثبات السمع والبصر، والواقع أنه سبق أن أشار إلى هذا في موضع مُتقدم، وسيُشير إليها أيضًا لاحقًا، وذلك أن الشيخ - رحمه الله- كان يكتب عفو الخاطر، بمعنى أنه لم يكن يُصنف كما يُصنف غيره، يضع خطة بحث، والباب الأول، والباب الثاني، وإنما يكتب ما يحضره، وقلمه سيال، وعقله وقاد -رحمه الله-، فكتب هذه الرسالة في قعدة بين الظهر والعصر، أو بعد العصر كما مر بنا.

📖**قال المؤلف -رحمه الله-: وَقَوْلُهُ: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} [المجادلة: 1].**

وَقَوْلُهُ: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: 181] ، {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: 80].

وَقَوْلُهُ: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46].

وَقَوْلُهُ: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى}[العلق: 14] {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الشعراء: 218 – 220] ، {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: 105].

قال: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ} : إذن دل على إثبات السمع بعدة صيغ، سمع، ويسمع، وسميع، الله أكبر! في آية واحدة، قال: {قَدْ سَمِعَ} و{اللَّهُ يَسْمَعُ} و{إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ}، أي إثبات أوضح من هذا الإثبات؟ إذن لله تعالى سمع حقيقي يليق بجلاله وعظمته، وسبب نزول هذه الآية التي هي مُستهل سورة المجادلة أن أوس بن الصامت صار بينه وبين امرأته خولة بنت ثعلبة، صار بينهما شيء من المراجعة فقال: أنت عليَّ كظهر أُمي. ثم خرج مُغضبًا إلى نادي قومه، ثم عاد أدراجه وقد سكنت نفسه، وأراد منها ما يُريد الرجل من زوجه، فقالت: كيف وقد قلت ما قلت؟. فغالبها، فغلبتها بما تغلب المرأة الشابة الشيخ الكبير، وطرحته، ثم استعارت ثيابًا من ثياب جارتها، وذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تشكو إليه ما جرى، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: [يا خولة: اتقي الله واصبري على زوجك]، فكانت تقول: يا رسول الله أولادي إن ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن تركتهم عنده ضاعوا. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول لها كذا وكذا، فكانت تسأل الله عز وجل وتشتكي، تقول: اللهم إني أشكو إليك. ضاقت بها المذاهب، فما هو إلا أن أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يأخذه من الوحي، فلما سُري عنه قرأ هذه الآيات: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا} [المجادلة: 1] في الحال، في الآن، وهي تُجادل النبي صلى الله عليه وسلم تأخذ وتُعطي معه، وتُراجعه في الكلام، الله تعالى يسمع.

قال: {وتشتكي إلى الله}: تقول: اللهم إني أشكوا إليك: أولادي إن ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن تركتهم عنده ضاعوا.

قال: {وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا}: والمحاورة هي المراجعة في الكلام.

قال: {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} : فدل ذلك على إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، هما: السميع، والبصير، ودل على إثبات وصفين، وهما: السمع، والبصر.

قال: {لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ} : من هؤلاء القائلون لهذه المقالة الفجة؟ هم اليهود، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتلو: {مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} [الحديد: 11]، فكانوا يتندرون ويستهزئون ويقولون: الله يسألنا القرض، الله فقير ونحن أغنياء. تعالى الله عما يقولون، فالله تعالى قال: {لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} [آل عمران: 181]، تعالى الله عما يقولون، والشاهد منها إثبات صفة السمع لله عز وجل.

قال: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} : من هؤلاء؟ هم المنافقون الذين كانوا إذا خلا بعضهم ببعض أخذوا يقعون في النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ويحيكون المؤامرات، فالله سبحانه وتعالى يُعجب من حالهم ويقول: {أَمْ يَحْسَبُونَ}: يعني يظنون.

قال: {أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم} : فالسر هو ما يكون من حديث النفس، والنجوى هو ما يتحدث به الرجل مع الرجل، أو الرجل مع الرجلين.

قال: {بلى}: يعني بلى نسمع.

قال: {وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} : من الرسل الذين يكتبون هنا؟ الرُسل الملائكيون أم البشريون؟ الملائكيون، {مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 18]، فدل ذلك على إثبات السمع لله تعالى سمعًا حقيقيًا يليق بجلاله.

قال: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} : من هما؟ موسى وهارون عليهما السلام، لأنهما قالا لربهما: {إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى} [طه: 45]، يعني فرعون هذا قد يرتكب حماقة، يُمكن أن يُهلكنا، فطمأنهما الله بقوله: {إِنَّنِي مَعَكُمَا} [طه: 46]: هذه المعية ستأتينا إن شاء الله لاحقًا وهي معية خاصة.

قال: {أَسْمَعُ وَأَرَى}: فتضمنت الآية إثبات السمع، والبصر لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته.

قال: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} : هذه الآية في الرد على أبي جهل، لأن أبا جهل كان يهم بقتل النبي صلى الله عليه وسلم، زعم أنه إن رأى محمدًا ساجدًا في صحن المطاف، أن يُلقي عليه حجرًا يرضخ به رأسه، فالله تعالى يتهدده: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: 14]، وكان يقول لنبينا صلى الله عليه وسلم: ستعلم يا محمد غدًا من أكثرنا ناديًا؟. يعني من يُنادي فيُستجاب له، فلهذا قال الله: {فَلْيَدْعُ نَادِيَه (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ} [العلق: 17، 18] فلما هم أن يُلقي الحجر على رأس النبي صلى الله عليه وسلم تدهده ورجع إلى الوراء، حتى عجب منه أصحابه، قالوا: ماذا أصابك؟ فقال:

كأنه صار بيني وبينه مثل النار. أو نحو ذلك، المهم أن الله تعالى قال: {أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} [العلق: 14]، إذن فيها إثبات الرؤية لله وإثبات البصر.

قال: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} : الله تعالى يُخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم مُبينًا له أنه تحت سمعه وبصره.

قال: {الَّذِي يَرَاكَ}: أي الله.

قال: {حِينَ تَقُومُ}: أي حين تقوم للصلاة.

قال: {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}: من الساجدون؟ هم المسلمون، يعني لأنه يتقلب بين أعطافهم وبين ظهرانيهم، فهو بمرأى من الله تعالى.

قال: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ}: من المخاطبون بهذا؟ المنافقون، لأن المنافقين كانوا يحيكون المؤامرات والدسائس، ويعملون أعمالًا في الخفاء، فالله يتهددهم، ويتوعدهم ويقول لنبيه قل لهم: {اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: 105]، فأثبت الله لنفسه رؤية، وأثبت لرسوله صلى الله عليه وسلم رؤية، وأثبت للمؤمنين رؤية، وليست رؤية كرؤية، فالرؤية المضافة إلى الله تليق به، والرؤية المضافة إلى النبي والمؤمنين تليق بهم، وبالمناسبة فإن بعض الناس يُخطئون فيستدلون بهذه الآية عند القيام ببعض المشاريع والأعمال الخيرية فيكتبون هذه الآية، وفي المقالات، {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ} [التوبة: 105]، يظنون أن الإتيان بها مُناسب للمقام، وأن هذه دعوة إلى العمل، لكن هذه الآية جاءت في سياق ذم المنافقين وتهديدهم، فلا يحسن الاستشهاد بها في مثل هذه المواضع.

وهذه الآيات بمجموعها دلت على إثبات السمع والبصر لله سبحانه وتعالى، وأنه سبحانه يسمع ويرى، سمعًا حقيقيًا، ورؤية حقيقية.

ولا يخفى عليكم جميعًا الأثر المسلكي لإيمان المؤمن بهذا، فإن إيمان المؤمن بأن الله يسمع كلامه، ويرى مكانه ويُبصر حاله، يسكب في قلبه الطُمأنينة، لأنك تُحس بمعيته سبحانه، وأنك تحت سمعه وبصره، وأنك لست بمضيعة.

كما أنه أيضًا من آثارها المسلكية: أن إيمانك بسمع الله يحملك على أن تعقل لسانك، فلا تتكلم بغيبة، ولا نميمة، ولا شتيمة، كلما هممت بكلمة وتذكرت أن الله يسمع وزنتها، فلا يخرج منك إلا كلم طيب، كما قال الراوي في حديث بلال بن الحارث المزني: (إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا، يَهْوِي بِهَا فِي النَّارِ، أَبْعَدَ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)[1]، قال: كم من كلمة منعنيها حديث بلال بن الحارث المزني.

وبالمقابل فإن إيمانك بسمع الله تعالى يحملك على أن تتملق ربك وإلهك بالكلم الطيب، فيخرج من فِيك التسبيح، والتهليل، والتحميد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وسائر الكلم الطيب.

[1] صحيح مسلم (50).

وبالمقابل أيضًا إيمانك برؤية الله عز وجل وأنه يراك وأنك مكشوف هذا يحملك على أن تستحي من الله، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: [استح من الله حياءك من ذي جلالة من قومك]: يعني أحد له قدر عندك من قومك، فإذا ذكر الإنسان أن الله يراه بعدما أوصد الأبواب وأرخى الستور وغاب عن أعين الناس انقمع واستحى، ولم يبدر منه شيء يراه الله عليه فيسخط عليه.

كذلك أيضًا يعمد إلى مراضي الله ومحابه فيتعرض إلى أن يراه الله على حال يرضى عليه بسببها، كل هذه آثار مسلكية للإيمان بإثبات صفة السمع والبصر لله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

والله أعلم.

الدرس (14)

إثبات الصفات لله

قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [الرعد: 13].وَقَوْلُهُ: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: 54].وَقَوْلُهُ: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ } [النمل: 50].وَقَوْلُهُ: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا} [الطارق: 15، 16].

تقرر معنا مِرارًا أن كل ما وصف الله به نفسه أو وصفه به نبيه صلى الله عليه وسلم فهو حق على حقيقته، وأنه يجب إجراؤه على ظاهره، وألا يُتعرض لذلك بأي لون من ألوان التحريف، أو التعطيل أو التكييف أو التمثيل، سواءٌ في ذلك الصفات الذاتية المعنوية، أو الصفات الخبرية، أو الصفات الفعلية، وكل ذلك قد مر بنا، فمر بنا من الصفات الذاتية المعنوية: صفة العلم، ومن الصفات الخبرية: الوجه، واليدان، والعينان، ومن الصفات الفعلية: المجيء والإتيان، فالقول فيها قول واحد، ومعنا طائفة من الصفات التي تُضاف إلى الله تعالى كما أضافها لنفسه، لكنها تُضاف إليه مُقيدة لا مُطلقة، وذلك لأن مدلولاتها تنقسم إلى محمود ومذموم، فلما كان الوهم قد يتطرق إلى العُقول باحتمال المعنى المذموم وجب أن تُضاف إلى الله تعالى مُقيدة، وسيتضح ذلك إن شاء الله بالأمثلة.

قال: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}: قال عن نفسه، سبحانه وبحمده، والمحال هو شدة الكيد، فالله تعالى قد أضاف إلى نفسه الكيد، بل شدة الكيد، لكنه كيد بمن يستحق أن يُكاد، كما قال أيضًا: { وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: 54]: يعني بذلك بني إسرائيل، فإن بني إسرائيل أرادوا الوشاية بعيسى ابن مريم عليه السلام، لدى بلاطس الحاكم الروماني الذي كان في بيت المقدس ليقبض عليه ويقتله بدعوى أنه يُريد أن يُقيم ملكًا لبني إسرائيل، فوشوا به وأخبروا عن موضعه، ولكن الله سبحانه وتعالى استنقذه من بين أيديهم فرفعه إليه، فهم قد مكروا، لكن الله قد مكر، {وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [آل عمران: 54].

قال: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ }: أولئك الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: { وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ

وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [النمل: 48، 49]: إذن هذا مكرٌ منهم، وتحايل، فقال الله تعالى: { وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} [النمل: 50].

قال: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا }: أي المشركون، {يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا } [الطارق: 15، 16]، فهو كيد بمقابل كيد، إذن ما المراد بالمكر والكيد؟ المراد بالمكر والكيد والمحال هو إيصال العقوبة بطريق خفي، إيصال الأذى بطريق خفي، لأن إيصال الأذى بطريق مُباشر لا يُسمى مكرًا، وإنما يُسمى إن كان سيئًا عُدوانًا، وإن كان بحق فإنه يكون إقامة حد أو ما أشبه ذلك، لكن إيصاله بطريق خفي لا يُشعر به يُسمى مكرًا ويُسمى كيدًا، ومن هنا كان مدلوله ينقسم إلى قسمين فتارة يكون محمودًا، وتارة يكون مذمومًا، فإيصاله إلى مُستحقه يُعد مكرًا محمودًا، وكيدًا محمودًا، وإيصاله إلى غير مُستحقه يُعد مكرًا مذمومًا، وكيدًا مذمومًا، أضرب لذلك مثلًا من حال الناس: لو قُدر أن ثم لص مُحتال يأخذ أموال الناس بالباطل، يعني مثلًا يُوهمهم أنه يُريد أن يتجر بها، أو يُضارب بها، ويقول: أعطوني أموالكم لأُناميها لكم. فهو قد دخل عليهم من مدخل لطيف، وهو أنه يُريد الإحسان بهم، فالناس يمنحونه ثقتهم ويُعطونه أموالهم، ثم يذهب بها، ماذا نُسمى هذا؟ ماكر، وماذا نُسمي عمله؟ مكر، ونُسميه: كائد، ونُسمي عمله: كيد، لأنه أوصل الأذى إلى غيره بطريقة خفية، وحيث أنه أوصله إلى غير مُستحق كان مكره مذمومًا، وكيده مذمومًا، ولو قدرنا أن رجلًا من الُشرطة الجنائية سمع به فأعد له كمينًا واتصل به، وقال يا فلان: سمعت أنك تُنمي أموال الناس، وأنك تُحسن إليهم – وأطمعه في نفسه– وأنا عندي مبلغ من المال. وهكذا، فاسترسل معه حتى تمكن منه فقبض عليه، أليس فعل هذا الشُرطي يُعد مكرًا ويُعد كيدًا؟ هل يحمد له أو يُذم؟ يُحمد له، لأنه أوصل الأذى إلى مُستحقه، أوصل المكر والكيد إلى مُستحقه، فلله تعالى المثل الأعلى، مكر الله وكيد الله إنما هو من القسم المحمود، وقل مثل ذلك في الخداع والاستهزاء، فقد قال الله سبحانه وتعالى : { يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ } [النساء: 142]، { قَالُواْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ (14) اللَّهُ يَسْتَهْزِىءُ بِهِمْ} [البقرة: 14، 15] وهكذا، إذن حينما تسمع مثل هذه الصفات مُضافة إلى الله فلا تستشنع من ذلك، ولا تنفر لمجرد سماعها، فإن لله منها المثل الأعلى الذي يُحمد عليه سبحانه، وهذا بيِّن في جميع الأمثلة التي ساقها شيخ الإسلام – رحمه الله– فيهود الذي وشوا بعيسى ابن مريم عليه السلام حقيقون بأن يُمكر بهم، وكذلك أيضًا الذين أرادوا أن يُبيتوا النبي ومن معه وأهله هم حقيقون أن يُمكر بهم، والمشركون الذين يكيدون للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويحيكون المؤامرات لقتله أو إخراجه ونحو ذلك هم حقيقون أن يُكاد بهم، لكن ينبغي أن يُعلم أنه لا يُشتق لله سبحانه وتعالى من هذه الصفات الفعلية، وهي بالمناسبة صفات فعلية لأنها مُتعلقة بمشيئته وحكمته، وقد بينا لكم مرارًا الفرق بين الصفات الذاتية والفعلية، وأن الصفات الذاتية هي الملازمة لذاته سبحانه، وأن الفعلية هي المتعلقة بمشيئته وحكمته، فالله سبحانه وتعالى يتصف بالمكر إذا وُجد سببه، يتصف بالكيد إذا وُجد سببه، لذلك كانت صفات فعلية، وبناءً عليه فإنا نقول: إنه لا يجوز أن يُشتق منها اسمٌ لله، بل ولا يُخبر بها عن الله على سبيل الإطلاق، كيف؟ يعني لا يجوز أن يُقال: من أسماء الله الماكر، ولا من أسماء الله الكائد، ولا من أسماء الله المخادع، ولا من أسماء الله المستهزئ. لماذا؟ لأن الدِلالة المباشرة من هذه

الألفاظ قد تُوهم معنى مذمومًا والله عز وجل مُنزه عن هذا، أقول أيضًا: كما أنه لا يُشتق منها الأسماء لأن باب الأسماء أضيق من باب الأفعال والصفات، كذلك أيضًا لا يُخبر بها عن الله إلا مُقيدة، فأنت تستطيع أن تُخبر عن الله مثلًا وتقول: المريد، الشائي، لأنه يشاء، الجائي لأنه يجيء. على سبيل الخبر، ولا يتضمن ذلك نقصًا، وإن كانت ليست من الأسماء الحُسنى، لكن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: وليس من أسمائه، المنزل، والمجري، والهازم، لكن لما كانت هذه الألفاظ لا تتضمن نقصًا جاز أن يُخبر بها عن الله، أما هذا النوع فإنه لا يُخبر به عن الله إلا مُقيدًا، فيُقال مثلًا: الماكر بمن يمكر، الكائد بمن يكيد، وهكذا، فحينئذٍ يسوغ أن تُعبر بها، فأرجو أن يكون تبين لكم الفرق بينها وبين سائر ما يُخبر به عن الله تعالى من أفعال أضافها الله تعالى، إلى نفسه.

فالخبر أوسع من الأسماء، باب الأخبار أوسع من باب الأسماء، والسبب أنك تُخبر عن الله تعالى بصفاته وبأفعاله، فكل اسم من أسماء الله يُمكن أن تشتق منه صفة، ولا عكس، لا يلزم من إثبات الصفة إثبات الاسم، فالله تعالى قد قال عن نفسه: {وَجَاءَ رَبُّكَ} [الفجر: 22]، وليس من أسماءه الجائي، وقال: { إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ} [النحل: 40]، وليس من أسمائه المريد، وهكذا، فباب الأخبار أوسع من باب الأسماء، لكن لا بد أن يكون الخبر إذا أخبرنا به عن الله سبحانه وتعالى لا يتضمن نقصًا، فنحن مثلًا نُجاري المتكلمين ونقول عن الله تعالى: إنه واجب الوُجود. لأنه لا يتضمن ذلك نقصًا، وإن كان هذا ليس من أسماء الله الحُسنى، ليس من أسماء الله الواجب، ولا يُعبد أحد فيُقال: عبد الواجب. فهذا هو الفرق بين هذه الطائفة من الأفعال وسائر الأفعال: فلا يُخبر بها عن الله إلا مُقيدة؛ لأن مدلولاتها تنقسم إلى: محمود، ومذموم، فخشية من أن يتبادر أو يتوهم أحد المعنى المذموم لم يجز أن يُشتق منها أسماء حُسنى، ولم يجز أن يُخبر بها عن الله إلا على سبيل التقييد.

ولا ريب أن الإيمان بهذه الأسماء معشر طلبة العلم له أثر مسلكي على نفس المؤمن، فإن المؤمن إذا علم أن الله يمكر بالماكرين، ويكيد للكائدين فإن ذلك يُوجب له الحذر ويُوجب له الخشية والتوقي من أن يصنع شيئًا على سبيل المكر، فيُوقعه الله تعالى بمغبته، كما أنه أيضًا يُنزل على نفسه الطُمأنينة، أنه مهما كاد الكائدون، ومكر الماكرون فالله لهم بالمرصاد، فهو أسرع مكرًا { قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ } [يونس: 21]، فهذا مما يُثمره الإيمان بمثل هذه الصفات، أما أهل البدع فلا يخفاكم، فإنهم قد أولوا ما هو أوضح منها وأبين، فكيف بهذه التي يُمكن أن تحتمل معنى غير مُراد؟ فإنهم يُسارعون في صرفها عن ظواهرها، وعدم إثباتها لله.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: 149]، {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: 22].

وَقَوْلُهُ: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ} [المنافقون: 8].

وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: 82].

هذه الطائفة من الآيات تضمنت إثبات صفات العزة، والعفو، والمغفرة، والقُدرة، والرحمة لله عز وجل، وكل ذلك نُثبته لربنا كما أثبته لنفسه، فنحن نُثبت لله الصفات كما نُثبت له الأسماء، ولنأخذها واحدة واحدة.

قال: {إِن تُبْدُواْ خَيْرًا}: ابداؤه أي إظهاره.

قال: {أَوْ تُخْفُوهُ}: أي تُسروه.

قال: {أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ}: يعني ليس فعلًا وُجوديًا بل هو إحسان تركي.

قال: {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا }: إذن الجُملة الأخيرة فيها إغراء، أي أن الله من شأنه ومن أسمائه أنه عفو وأنه قدير، فمن وصفه أنه عفو، ومن صفته العفو، فإذا كان هذا وصف للرحمن فهو وصفٌ حميد، ينبغي لكل مؤمن أن يتخلق به بما يليق به، فقوله تعالى: { إِن تُبْدُواْ خَيْرًا} [النساء: 149]، كمن مثلًا يتصدق علانية، وقد قال الله عز وجل: {إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ } [البقرة: 271]، فلا حرج أن يُبدي الإنسان صدقته أحيانًا، ولكن الإسرار أفضل، لكن إن اقترن بالإبداء ما يحمل غيره على الاقتداء به فالإبداء أفضل؛ ولهذا لما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قوم من مُضر مجتابي النمار، رق لهم النبي صلى الله عليه وسلم رقة شديدة، ثم قام وخطب الناس ودعاهم إلى الصدقة، فرجل يتصدق من ماله، فجاء رجل من الأنصار ومعه صُرة من مال لا يكاد يحملها، حتى وضعها بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ، فتتابع الناس في الصدقة، حتى اجتمع عنده كومتان من طعام ومن ثياب، والنبي صلى الله عليه وسلم يتهلل وجه سرورًا كأنه مُذْهَبة، فدل ذلك على أنه لا بأس بإبداء الصدقات، وأن إبداءها أحيانًا أفضل من إخفائها إذا حصل بذلك اقتداء، شريطة الإخلاص لله عز وجل والأمن من أن يتسلل إلى النفس شيء من الرياء، أما عند تساوي الأُمور فالإخفاء أفضل لقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ).[1]

قال: {أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ }: فإن العفو عن السوء إحسان، لأن الإنسان إذا أسقط حقه فقد أحسن إلى من أساء إليه، كأنما تبرع له، وكأنما قلده مِنة بكونه أسقط حق المطالبة في الدُنيا والآخرة، وهذا يدلنا على أن العفو صفة حميدة وينبغي أن يُربي الإنسان نفسه عليها، فإن من أقبح الصفات العتب، والحقد، واختزان الضغينة، ولهذا يُقال: إن أحكم بيت قالته العرب:

إذا كُنت في كل الأمور مُعاتبًا صديقك لم تلق الذي لا تُعاتبه

فينبغي للإنسان أن يُعود نفسه على الصفح، يعني كما يقول الناس: امسح. أما إذا كان الإنسان كلما وقع له موقف نكت في نفسه نكتة، فإن هذا التراكم يؤذيه، لكن حاول أن تُسرب، وأن تجلو قلبك دومًا، لأن كل غل في قلبك، فهو على اسمه: غِل، كأنما هو قيد وُضع في قلبك، فحاول أن تتخفف من هذه الأغلال، وذلك بالعفو، وكما رأيتم إن الله تعالى حض المؤمنين، وهيجهم على العفو، فقال: {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا} [النساء: 149].

[1] صحيح البخاري (1423)، صحيح مسلم (1031).

قال: {فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا }: وها هنا ملحظ لطيف جدًا وهو أن اقتران أسماء الله الحُسنى بعضها ببعض يُعطيها حُسننا مُضاعفًا، قرن الله تعالى بين اسمين: العفو، والقدير، فاقتران هذين الاسمين أعطاهما حُسنًا مُضاعفًا، وإلا فكل منهما من الأسماء الحُسنى الذي بلغ في الحُسن غايته، لكن أكمل ما يكون العفو، متى؟ مع المقدرة، كما أن قدرة لا يُصاحبها عفو تتحول إلى بطش، فتأمل لو أن سُلطانًا من السلاطين تمكن من خصم له، ووقع في قبضته، ثم قال: اذهب عفوت عنك. ألا تُعد محمدة ومنقبة؟ نعم تُعد محمدة له ومنقبة، كما صنع النبي صلى الله عليه وسلم بقريش حينما قال: [ما تظنون أني فاعل بكم؟]، قالوا: أخ كريم، وابن أخ كريم. فقال صلى الله عليه وسلم : [اذهبوا فأنتم الطلقاء]، فهذا العفو مع المقدرة من شِيم الكرام، ولكن أحيانًا قد يقع العفو مع غير مقدرة، فلا شك أنه محمود لكن ليس بدرجة الأول، فلو أن رجلًا من صعاليك الناس وضُعفائهم أخطأ عليه سُلطان من السلاطين وضرب ظهره وأخذ ماله، ثم قال: اذهب فقد عفوت عنك. أليس هذا عفوًا؟ عفو، لكنه لا يستطيع أصلًا أن يقتص منه، فإن كان بالفعل قصد العفو فهو يُحمد على هذا، وإن كان بسبب عجزه فلا محمدة فيه، العفو الذي يُحمد عليه صاحبه هو العفو مع المقدرة، وكذلك أيضًا من الناس من يكون عنده قدرة، لكن لا عفو عنده، فتتحول قُدرته هذه إلى بطش وطيش، لكن ربنا سبحانه وبحمده عفو قدير، لو شاء سبحانه لأهلك الناس في طرفة عين، انظروا إلى حلمه سبحانه، يُعبد غيره، ويُعصى ليل نهار، ومع ذلك حليم سبحانه، ويقبل التوبة عن عباده.

قال: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ }: يا له من تهييج! يا له من تحضيض! نزلت هذه الآية في حادث الإفك المشهور، في سورة النور، وكان مِن ضمن مَن وقع في حديث الإفك مسطح بن أُثاثة، وهو من فقراء المهاجرين، فكان أبو بكر – رضي الله عنه – يُجري عليه صدقته، فلما وقع فيما وقع فيه قطع عنه الصدقة، فأنزل الله تعالى: {وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [النور: 22]، فقال: أبو بكر رضي الله عنه : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه [1] ، فالعفو والصفح بمعنى، والعفو مأخوذ من العفاء، لأنه يُعفي على الأثر فلا يبقى له شيء، وكذا الصفح، فدلت هذه الآية على إثبات اسمين من أسماء الله الحُسنى وهما: الغفور، والرحيم، وعلى ما تضمنتاه من صفات، وهي: المغفرة، والرحمة.

والأثر المسلكي للإيمان بذلك: هو أن يتخلق الإنسان بهذين الخُلقين الكريمين، وهما: المغفرة والرحمة، يغفر لمن أساء إليه، تعفو عمن ظلمك، ويرحم سائر الناس، فإن هذه صفات كمال بشري، لكن لله منها المثل الأعلى، لهذا عبر بصيغة الغفور فعُول، الرحيم فعِيل، وكلها صِيغ مبالغة لأنها بلغت الغاية في حق الله تعالى.

قال: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ}: قدم الجار والمجرور ليدل على كمال الاختصاص، جاءت هذه الآية في سياق الرد على المنافقين، يقولون: {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ} [المنافقون: 8]، من يقصد بذلك؟ قصد عبد

[1] صحيح البخاري (2661)، صحيح مسلم (2770).

الله بن أُبي ابن سلول –عليه من الله ما يستحق– بقوله: { لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ} يعني نفسه، {الأَذَلَّ} يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما وقع بين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار مناوشة قال الأنصاري: يا للأنصار. وقال المهاجرين: يا للمهاجرين. فحميت النُفوس، فلما بلغ الأمر عبد الله بن أُبي قال: ما شأننا وصعاليك قريش إلا كما قال الأول: ثمن كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل. يقصد بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأذله الله أيما إذلال، فقد قيد الله ابنه وهو من خيار المؤمنين، عبد الله بن عبد الله بن أُبي ابن سلول، فوقف على باب المدينة، وقال: والله لا يجُوزها، إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ابنه أقرب الناس إليه، حتى أرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن خل بينه وبين الدخول، فثبتت العزة لله ولرسول، {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [المنافقون: 8]، فدل ذلك على إثبات صفة العزة لله، وفيها رد بليغ على الذين يُثبتون الأسماء مفرغة من الصفات، من هم؟ المعتزلة، المعتزلة يزعمون أنهم يُثبتون الأسماء، ولكن يقولون: لا تدل على صفات. ففرق ما بينهم وبين الجهمية: أن الجهمية يُنكرون الأسماء والصفات، فيقولون: لا سميع، ولا بصير، ولا عليم، ولا قدير، ولا سمع له، ولا بصر، ولا علم، ولا قدرة. والمعتزلة تقول: نعم، سميع، بصير، عليم، قدير، لكن سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، قدير بلا قدرة. فهم يُنكرون الصفات، وهذه الآية تدل على إثبات الصفة لأنهم قالوا: { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ } [المنافقون: 8] العزة اسم، أم صفة؟ صفة، ونظيرها قول الله تعالى: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا } [فاطر: 10]، {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ} [الأنعام: 133]، كلها صفات أثبتها الله لنفسه، لكن عزة الله تليق به، وهي عزة امتناع، وعزة غلبة، وعزة قُدرة، سبحانه وبحمده، وللنبي صلى الله عليه وسلم عزة تليق به، وللمؤمنين عزة تليق بهم، فكون الوصف يُضاف إلى الله وإلى رسوله وإلى المؤمنين لا يعني التماثل، فإن الاشتراك إنما هو في أصل المعنى، فإن العزة مأخوذة من القوة والصلابة، كما يقول الناس: أرض عزاز. والناس عندنا يقولون: عزا. والمعنى واحد، يعني أنها صلبة ليست رُخوة، ففيها معنى القوة والامتناع والشدة، فالاشتراك إنما كان في أصل المعنى، وأما في الحقيقة والكيفية فلله المثل الأعلى، وللنبي صلى الله عليه وسلم أكمل ما يكون من العزة البشرية، ولسائر المؤمنين ما يليق بهم.

قال: {فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}: هذا إبليس يحلف بعزة الله {فَبِعِزَّتِكَ} [ص: 82]: مما يدل على أن إبليس عارف بصفات الله تعالى حتى إنه أقسم بعزة الرب سبحانه، فشيء يعرفه إبليس ويُثبته، عجبٌ أن يُنكره نُفاة الصفات.

قال: {لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}: ثم استثنى [إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} [ص: 82].

المهم أن مثل هذه الصفات لها ثمرة سُلوكية على نفس المؤمن، فإيمانك برحمة الله ينسم على قلبك نسائم الرجاء، إيمانك بمغفرة الله كذلك، إيمانك بعزة الله يمنحك قوة أنك تأوي إلى رُكن شديد، وهكذا ستجد أن كل اسم لله تعالى يُفيض على النفس المؤمنة فيضًا إيمانيًا نافعًا، ويحجزها عن ضده.

والله أعلم.

الدرس (15)

إثبات الأسماء لله

قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: 78].

وَقَوْلُهُ : {فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} [مريم: 65]، {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } [الإخلاص: 4].

وَقَوْلُهُ: {فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة: 22]، {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ} [البقرة: 165].

هذه الآيات في إثبات الاسم لله وإثبات وحدانيته وفردانيته سبحانه.

قال: {تَبَارَكَ}: البركة هي النماء والزيادة، فيُقال في حق الله: تبارك. أن النماء والزيادة المطردة المستمرة لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى، { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ } [الرحمن: 78] فدل ذلك على إثبات الاسم، وفي هذا رد على الجهمية، إذ الجهمية يقولون: ليس له اسم، وإنما اصطنع الناس له أسماء ليُعبروا بها عنه. ولا ريب أن هذا من الباطل، فقد قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} [سورة الأعراف: 180] وقال: {فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: 110]، وقال: {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [طه: 8، الحشر: 24]، وقد عقد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد – رحمه الله– في أول كتابه: الرد على بشر المريسي، فصلًا في إثبات الاسم لله تعالى، والرد على الجهمية الذين يزعمون أن الله لم يكن له أسماء وإنما الأسماء من اختراع الناس، رد عليهم ردًا مُفحمًا مُبرمًا لم يُبق لهم باقية، فهذه الآية تدل على إثبات الاسم لله تعالى، وأن الله قد تسمى بالأسماء مُنذ الأزل، وأن أسماءه مُباركة، إي والله، ولذلك أي شيء يُذكر عليه اسم الله فهو مُبارك، إذا بدأت الطعام فقلت: بسم الله. لم يأكل معك الشيطان، وهكذا الشراب، وإذا أتى الرجل أهله، فقُسم بينهما ولد لم يضره شيطان إن هو قال: بسم الله. وإذا دخل الرجل بيتًا فقال: بسم الله. فات الشيطان المبيت، وهكذا ما ذُكر اسم الله في شيء إلا بُورك فيه، {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ} [الرحمن: 78] فأضاف الاسم إلى الذات، مما يدل على أن له اسم سبحانه، وأن اسمه غير ذاته، وإنما هي أسماء سمى بها نفسه.

قال: {ذِي الْجَلَالِ}: {ذِي}: وصفٌ لمن؟ للرب أم للاسم؟ { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ } [سورة الرحمن: 78] إذن هي مجرورة فتكون صفة لمجرور، بخلاف ما ورد في أول السورة { وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن: 27]، ف{ذُو الْجَلَالِ} وصفٌ للوجه، وهنا وصف للرب، للذات، {ذِي الْجَلَالِ}، ما معنى {ذِي الْجَلَالِ} [سورة الرحمن: 78]؟ ذي، وذو، وذا بمعنى: صاحب، والجلال المقصود به: التفخيم والتعظيم، يعني ذو العظمة والفخامة، فهو سبحانه ذو الجلال بمعنى أنه هو سبحانه مُتصف بصفات الجلال، كما أن أولياءه يُجلونه، وهم المؤمنون.

قال: {وَالْإِكْرَامِ}: ذو الإكرام، لأنه سبحانه أهل لأن يُكرم لكماله، وهو سبحانه أيضًا يُكرم أولياءه.

قال: {فَاعْبُدْهُ}: هذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بالعبادة، وقد ذكرنا في مرات سابقة، وفي دروس عدة أن العبادة لها تعريفان: تعريف باعتبار حقيقتها، وتعريف باعتبار آحادها وأفرادها.

فالعبادة من حيث آحادها وأنواعها عرفها شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: اسم جامع لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

وأما تعريف العبادة باعتبار حقيقتها فهي: كمال المحبة مع كمال الخُضوع.

فالتعريف الأول تعريف للمُتعبَد به، والتعريف الثاني تعريف للمُتعبَد له، فهذا معنى العبادة، وهي مأخوذة من قولهم: بعير مُعبد، وطريق مُعبد. يعني مُوطأ مُسهل للمشي عليه أو للركوب.

قال: {وَاصْطَبِرْ}: ما هو أصل { وَاصْطَبِرْ}[مريم: 65]؟ واصتبر، هذا أصلها، ثم قُلبت التاء طاء، والزيادة في المبني زيادة في المعنى، بمعنى اصبر صبرًا كثيرًا، والصبر هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والسخط، والجوارح عن لطم الخُدود وشق الجيوب.

قال: {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}: إذن هذا نوع من أنواع الصبر، وهو الصبر على طاعة الله، **والصبر ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: صبر على طاعة الله.

النوع الثاني: وصبر عن معصية الله.

النوع الثالث: وصبر على أقدار الله المؤلمة.

قال: {وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ}: وهكذا فإن العبادة – معشر طلبة العلم ومن بلغ – تفتقر إلى صبر، وتحتاج إلى مُجاهدة حتى يثبت الإنسان عليها، لكن المؤمن إذا وطن نفسه على العبادة وعودها عليها استرسلت وانساقت ولم يجد كُلفة، تُصبح نفسه مطواعة، مُحبة للعبادة، حتى إنها لربما إذا فقدت العبادة شقيت، فينبغي للمؤمن أن يُوطن نفسه منذ الصغر على عبادة الله من الفرائض والنوافل من أنواع العبادات لكي يألفها ويأنس بها.

قال: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}: هذا الاستفهام استفهام يُراد به النفي، لأن جوابه: لا أعلم له سميًا.

قال: {سَمِيًّا}: أي مُساميا، أو مُطابقًا له في الاسم، لا سمي له سبحانه، { هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [مريم: 65] هل لله سمي مثله يُساميه؟ حاشا وكلا، فهذا الاستفهام استفهام للنفي، ودل على إثبات الاسم لله تعالى، وليس إنكاري، فليس يُنكر على المخاطب، لأنه يُخاطب النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: { فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا } [مريم: 65].

قال: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ}: مرت بنا، أي لا مُكافئ له سُبحانه.

قال: {فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَادًا }: {أَندَادًا}: جمع ند، والند هو المثيل والنظير، فنهى الله المؤمنين، بل الناس جميعًا أن يجعلوا لله أندادًا، لأنه لا يُمكن أن يكون له ند يُماثله ويُناظره تعالى الله عن ذلك.

قال: {وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}: يعني وأنتم تعلمون أنه لا ند له ولا نظير ولا شبيه له.

قال: {وَمِنَ النَّاسِ}: من للتبعيض.

قال: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ }: نعى الله تعالى على طائفة من المشركين أنهم يتخذون من دون الله أندادًا، يعني يتخذون الآلهة والمعبودات ندًا لله تعالى، يبذلون لها من العبوديات ما لا يجوز صرفه لغير الله تعالى، ومن ذلك المحبة، فإن المحبة من أعظم مقامات العبادة، بل إنها أُم العبادات القلبية، لأن المحرك والباعث للإنسان لعبادة الله انجذابه إليه وتألهه له، فالتأله من الوله وهو المحبة والشوق والانجذاب إلى المعبود، فإذا صُرفت محبة السر محبة العبادة لغير الله، فقد وقع في الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، واعلموا أن للمُفسرين في هذه الآية قولان:

القول الأول: أن المشركين يُحبون أندادهم كالمحبة التي لا تنبغي إلا لله، يعني أنهم لا يُحبون الله، وإنما يُحبون أندادهم المحبة التي لا تنبغي إلا لله.

القول الثاني: أنهم يُحبونهم كما يُحبون الله. بمعنى أنهم يُشركون في المحبة.

وهذا القول الثاني هو القول الراجح، وهو الذي نصره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، بمعنى أن المشركين ما كونوا خليين من محبة الله، يُحبون الله لكنهم يُفسدون هذه المحبة بصرفها لغير الله، يعني بإشراك غير الله بها، فلم يُوحدوا الله بالمحبة، مرة أُخرى، للمُفسرين في هذه الآية قولان:

القول الأول: أنهم لا يُحبون الله، وإنما يُحبون أصنامهم المحبة التي لا تكون إلا لله. فعلى هذا القول المشركون لا يُحبون الله، وإنما يحبون أصنامهم وأندادهم.

القول الثاني: أنهم يُحبونهم كما يُحبون الله، فوقعوا في شرك المحبة.

وهذا هو الأقرب والراجح، ويكون بقية الآية على ذلك.

قال: { وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ }: بمعنى أن المؤمنين يصرفون محبة الله بصيغة أفعل التفضيل،{ أَشَدُّ} فلا يُشركون مع الله غيره في المحبة، في محبة السر، التي هي محبة العبادة، وإن كان يُحبون محابًا أُخرى من المحاب الغريزية كمحبة الطعام والشراب والزوج والولد والوالد وغير ذلك، لكن هذه لا تُسمى محبة عبادة، فدل ذلك على أنه لا يجوز التنديد واتخاذ ند مع الله عز وجل.

📖قال المؤلف –رحمه الله–: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا} [الإسراء: 111]، {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التغابن: 1].

{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا} [الفرقان: 1، 2].

{مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [المؤمنون: 91، 92].

{فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [النحل: 74]، {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 33].

هذه الآيات في نفي الشريك عن الله وإثبات وحدانيته، ونفي الولد عنه والصاحبة.

قال: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ}: وقد مر بنا أن معنى الحمد هو: وصف الله بصفات الكمال، ونُعوت الجلال، فإذا تكرر الحمد صار ثناءً.

قال: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا }: في هذا رد على من ادعى الولد لله، وهم طوائف من بني آدم، اليهود قالت: { عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة: 30]، والنصارى قالت: { الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ } [التوبة: 30]، ومشركو العرب قالت: الملائكة بنات الله. فنزه الله نفسه عن الولد، لأن الولد لا بد أن يكون من جنس أبيه، وهذا يُنافي وحدانية الله تعالى، كما أن الولد إنما يُتخذ للإعانة والمساعدة في حال الكِبر، والله غني عن ذلك، فلهذا نزه الله نفسه عن الولد، فلئن كان الولد كمال في حق المخلوقين فهو في حق الخالق نقص، لكمال وحدانيته تعالى.

قال: {وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ }: إي والله، لا شريك { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ} [سبأ: 22].

قال: {وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ}: كل الملك له سبحانه، ولهذا قدم الجار والمجرور.

قال: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا }: الولي من الوَلْي، وهو: الدنو، والقُرب، فالمقصود بالولي المعاون والنصير.

قال: {مِّنَ الذُّلَّ}: يعني بسبب الذُل، فإن من لها استعمالات عدة، ومن استعمالات من أن تكون سببية، إذن معنى قوله: { وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ } [الإسراء: 111]: أي بسبب الذل، فالله سبحانه وتعالى لا يستكثر بعباده من قلة، ولا يستعز بهم من ذلة.

قال: {وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}: أي قل: الله أكبر الله أكبر. بلسانك، وكبره بفعالك.

قال: {يُسَبِّحُ للَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}: التسبيح هو التنزيه، فحينما تقول: سبحان الله. أي تنزيهًا لله، **ويُنزه الله عن ثلاثة أُمور:**

الأمر الأول: ينزه عن النقص.

الأمر الثاني: وينزه عن العيب.

الأمر الثالث: وينزه عن مماثلة المخلوقين.

قال: {يُسَبِّحُ للَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}: كل ما في السماوات، وكل ما في الأرض فهو يُسبح بحمده {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: 44].

قال: {لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

قال: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ}: {تَبَارَكَ}: تقدم معناها.

قال: {الْفُرْقَانَ}: هو القرآن، وهو اسم من أسمائه، لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين المؤمنين والكُفار.

قال: {عَلَى عَبْدِهِ}: من عبده؟ رسول الله محمد، وهذا يدلنا على أن مقام العُبودية مقام شريف، فإن الله وصف محمد صلى الله عليه وسلم في أشرف المقامات بالعبودية، {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} [الإسراء: 1]، {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ} [الفرقان: 1]، {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} [الجن: 19] وهكذا.

قال: { لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا }: إذن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للناس جميعًا إنسهم وجنهم، برهم وفاجرهم، يهوديهم ونصرانيهم، كتابيهم ووثنيهم، { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [الأعراف: 158]: إذن هو صلى الله عليه وسلم أُرسل للعالمين نذيرًا.

قال: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ}: تقدم هذا المعنى.

قال: {وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا}: فيه تبرئة الله عنه الولد.

قال: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ }: خلافًا لما يدعيه المشركون من القائلين بالتثنية، وهم الثنوية من المجوس الذين يزعمون أن للكون خالقان: إله النور يخلق الخير، وإله الظُلمة يخلق الشر، أو ما يدعيه الرومان من تعدد الآلهة فيجعلون لكل مِرفق من مرافق الحياة إله، إله الحرب، إله الحصاد، إله الحب، إله كذا، هكذا من وثنيتهم، إذن لم يكن له شريك في الملك.

قال: { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ }: هل خرج شيء؟ أبدًا، كل شيء فهو مخلوق لله، وفي هذا رد على القدرية الذين يزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه، فـ{ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ } [الرعد: 16، الزمر: 62]، هو خالق العباد، وخالق أفعالهم، وإن كانت أفعالهم مُكتسبة لهم.

قال: {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا }: إذن قد قدره الله منذ الأزل، وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا: (كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)[1].

قال: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ }: هذا نفي، و{مِن} تدل على الاستغراق والتقصي، أي صورة من صور الولادة، {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ}وقد بينا لم؟.

قال: {وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ }: حاشا وكلا أن يكون مع الله إله، {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا } [الأنبياء: 22]، {وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا } [المؤمنون: 91] يعني لو قُدر وحاشا وكلا أن يكون { لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ } [المؤمنون: 91]، في هذا دليل على امتناع أن يكون في الكون خالق مع

[1] صحيح مسلم (2653).

الله، لم؟ لأنه لو – وهي حرف امتناع– لو كان معه إله، إذن لاستقل كل واحد بمُلكه، { لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ } [المؤمنون: 91] وأيضًا لنشأ بينهم ما ينشأ بين الملوك من المغالبة، {وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [المؤمنون: 91] وما الذي نجده؟ نجد أن الكون مُتسق، مُنتظم، ليس فيه جزائر مُتناثرة، ونجد أنه ليس فيه اضطراب مما يدل على عدم وجود مُنازعة ومُغالبة، إذن هذا دليل على وحدانية الله، والمتكلمون يُثبتون هذه القضية بما يُسمونه دليل التمانع، وهو دليل عقلي لا بأس به، يقولون: لو قُدر أن للكون خالقين فأراد أحدهم أن يُحرك شيء وأراد الأخر أن يُسكنه، **فثم ثلاث احتمالات:**

الاحتمال الأول: إما أن يقع مُراد كل منهما.

الاحتمال الثاني: أو ألا يقع مُراد أي منهما.

الاحتمال الثالث: أو يقع مُراد أحدهما.

فأما الاحتمال الأول فهو مُمتنع، مُستحيل أن يكون الشيء مُتحركًا ساكنًا في آن واحد، وأيضًا يستحيل ألا يكون لا مُتحركًا ولا ساكنًا، ويدل على عجز كل منهما لو لم يقع مُراده، فما بقي إلا الاحتمال الأخير، وهو أن يقع مُراد أحدهما ولا يقع مُراد الآخر، فيكون من وقع مُراده فهو المستحق للعبادة، ولكن الآية القرآنية أبلغ في بيان هذا المعنى { إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ} [المؤمنون: 91].

قال: {سُبْحَانَ اللَّهِ}: تنزيهًا له.

قال: {عَمَّا يَصِفُونَ (91) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

قال: {فَلاَ تَضْرِبُواْ لِلّهِ الأَمْثَالَ}: أي لا يُمثل الله بخلقه، ولا يُقاس بهم، فلا يجوز قياس التمثيل في حق الله تعالى.

قال: {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}.

قال: {قُلْ إِنَّمَا}: أداة حصر.

قال: { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ }: والفواحش جمع فاحشة، وهي ما عظُم خُبثه واستقباحه، الظاهر منها والباطن.

قال: {وَالإِثْمَ}: الإثم ها هنا هو الذي يأثمه الإنسان بذاته غير مُتعد لغيره.

قال: {وَالْبَغْيَ}: هو ما حصل به تجني وعدوان على الغير.

قال: {وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ}: وهذا وصف طردي، لأن كل بغي فهو بغير حق.

قال: {وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا }: وهذا هو موضع الشاهد، وهو النهي عن الشرك، وتسوية غير الله تعالى به سُبحانه.

قال: {مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا }: أيضًا وصفٌ طردي، بمعني كل شيء أُشرك مع الله تعالى فلا سُلطان له، ولا دليل له، ولا بُرهان له.

قال: {وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}: وهذه أعظمها وهي القول على الله بغير علم، فدل على تحريم هذه المحرمات العظيمة، فهي أُمهات المحرمات عافانا الله تعالى وإياكم.

والله أعلم.

الدرس (16)

الرحمن على العرش استوى

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وقوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5] في سبعة مواضع : في سورة الأعراف قوله:{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الأعراف: 54].وقال في سورة يونس عليه السلام: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [يونس: 3] .وقال في سورة الرعد: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الرعد:2].وقال في سورة طه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5].وقال في سورة الفرقان: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ} [الفرقان: 59].وقال في سورة ألم السجدة: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [السجدة: 4].

وفي سورة الحديد: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} [الحديد: 4].

هذه الطائفة من الآيات الكريمات التي ساقها الشيخ –رحمه الله– يجمعها موضوع واحد، وهو إثبات الاستواء لله عز وجل على عرشه المجيد، فقد استوى ربنا سبحانه وبحمده استواءً يليق بجلاله وعظمته بعد أن خلق السماوات والأرض على عرشه.

الاستواء: لغة: العلو والاستقرار، هكذا تعرف العرب معنى استوى، أنه علا واستقر، كما قال الله عز وجل في سورة الزُخرف لما ذكر الفلك والأنعام قال: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} [الزخرف: 13]: يعني على ظهور الفُلك والأنعام، {ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ} [الزخرف: 13]، إذن {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} [الزخرف: 13] أي لتعلوا وتستقروا على ظهور الفلك والأنعام ثم تذكروا نعمة ربكم إذا علوتم واستقررتم على ظهورها، فهذا هو أصل معنى الاستواء في لغة العرب، والقرآن نزل بلسان عربي مُبين، فالذي قال: {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ}[الزخرف: 13]، هو الذي قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]، فمعنى الاستواء في الموضعين واحد، لكنه إذا أُضيف إلى المخلوق صار استواءً يليق به، وإذا أُضيف إلى الخالق صار استواءً يليق به، كما نقول ذلك في سائر الصفات، للمخلوق سمع يليق به، وللخالق سمع يليق به، للمخلوق بصر يليق به، وللخالق بصر يليق به، كذلك نقول ها

هنا: للمخلوق استواء يليق به ،وللخالق استواء يليق به . وقد أثبت الله تعالى هذا الاستواء في سبعة مواضع من القرآن، ومُراد الشيخ ها هنا ذكر الاستواء معدى بعلى، **لأن وُرود استوى في القرآن جاء على ثلاثة أنحاء:**

النوع الأول: أن يأتي الاستواء مُطلقًا : يعني غير مُقيد بحرف عل ى،كقول الله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى}[القصص:14]، إذن هنا استوى لم تتقيد لا بحرف على، ولا بحرف إلى، وإنما أطلق الله تعالى، فيكون معناها هذا أي بلوغ النهاية والكمال، فإذا جاءت استوى مُطلقة غير مُقيدة فإنها تدل على الانتهاء والكمال، مثل قولنا: استوى الزرع. يعني نضج وبلغ غايته في النُضج. استوى الطعام، أي بلغ غايته في النُضج، فكذا لما قال الله عن نبي من أنبيا ﷺ: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى} [القصص: 14]:يعني بلغ كمال الخلقة والخُلق، فهذا مجيئها مُطلقة.

النوع الثاني: أن تأتي مُتعدية بإلى :كقول الله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} [فصلت: 11] فإذا جاءت مُعداة بإلى فإن معناها حينئذٍ قصد بإرادة تامة، فإذا جاءت مُعدات ب إلى فهي تدل على معنى القصد والتوجه للشيء.

النوع الثالث: أن تأتي معداة بعلى. وهذا الموضع المراد ومحل الشاهد، كما في هذه المواضع السبعة، ستة منها على نسق واحد، {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} ، وموضع واحد في سورة طه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} فيكون معناها حينئذٍ أي علا واستقر علوًا واستقرارًا يليق بجلاله وعظمته، هذا الذي تعرفه العرب من لُغتها، لا تعرف سواه، ولهذا لم يتردد الإمام مالك أن يقول: الاستواء معلوم، وفي لفظ: الاستواء غير مجهول:أي أن العرب تعرفه من لُغتها، لا تتمارى فيه.

قال: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ} :هذه الأيام ليست كأيامنا، بل كما قال الله سبحانه وتعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} [الحج: 47]، فخلق الله السماوات والأرض في ستة أيام.

قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} : **{ثُمَّ}** : حرف عطف يدل على التراخي، فنستطيع أن نفهم من هذا أنه سبحانه وبحمده حين خلق السم اوات والأرض لم يكن مُستويًا على العرش، فلما فرغ من خلقهما استوى على العرش، هذا ما تدل عليه لُغة العرب، ويفهمه كُل عربي قُح، يقرأ هذه الآية وأمثالها.

قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} :العرش: لغة: سرير الملك، سرير الملك الذي يقعد عليه يُسمى : عرش، قال الله تعالى: {وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ} [النمل:23].

اصطلاحًا:هو أعظم المخلوقات، وأعلاها، وأجلَّها، وأكبرها، وهو سقف العالم، فالكون كُله تحته وما فوقه إلا الرحمن سبحانه وبحمده، وهذا العرش له قوائم كما نطق بذلك النصوص، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ)[1] ، وهذا العرش أيضًا له حملة، قال الله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} [الحاقة: 17]، فيجب الإيمان بأن لله تعالى عرشًا عظيمًا كبيرًا عليًا استوى عليه سبحانه وبحمده،

[1] صحيح البخاري (2411)، صحيح مسلم (160).

واستواؤه عليه ليس عن حاجة، فإن كل شيء مُحتاج إلى الله والله غني عما سواه، بل العرش وما دونه لا قيام له إلا بالله سبحانه وبحمده، فليس استواء الله على العرش وعلوه عليه ناتجٌ عن حاجة، كلا، ولكنه استواء يليق به سبحانه.

قال: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} : هل قوله: {تَرَوْنَهَا} قيد؟ أم أنها صفة مُطردة؟ يعني هل المراد: الله الذي رفع السماوات بغير عمد، فلا يوجد عمد أصلًا، يعني تُرى فلا عمد؟ أو المقصود: أنه رفع السماوات بعمد، لكنها عمد غير مرئية؟ يحتمل هذا، ويحتمل هذا، تأملوا في الآية: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} ، **والأقرب والله أعلم** : أن ثمَّ عمدٌ لكنها غير مرئية، ليست من جنس الأعمدة التي تحمل سقف هذا المسجد ونحو ذلك، لأنه لو أراد نفي العمد مُطلقًا لاكتفى بالقول: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ} ولم يحتج أن يقول: {تَرَوْنَهَا} فهذا يدل على أن ثم عمد – والله أعلم– لكنها ليست من جنس العمد التي نعهدها.

قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}: وهو موضع الشاهد، وفي سورة طه اللفظ يختلف عما قبله وما بعده.

قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}: قدم ذكر اسمه الشريف سبحانه على ذكر الاستواء.

قال: {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} : وقال في ألم السجدة: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} ، وقريب منها في الحديد: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}: فهكذا ترون – يا رعاكم الله– أن الله تعالى ذكر الاستواء مُطردًا بلفظ واحد في ستة مواضع، وبسياق مُقارب في الموضع السابع، مما يدل على أنه أراد حقًا وصدقًا تحقيق هذه الصفة له سبحانه وتعالى، ولكن الزائغين يقعون في شؤم مسلكهم الخاطئ، ومُقدماتهم السيئة، فتجرهم إلى مُخالفة الهدى، فصاروا يقولون: كلا، لا يُمكن أن نُثبت لله استواءً حقيقيًا، والمراد باستوائه على العرش استيلائه عليه، ليس استواءً حقيقيًا.فإذا قِيل لهم: لم؟! ما الصارف لذلك عن ظاهره؟. قالوا: لأن الاستواء من أفعال المخلوقين، والله مُنزه عن مُشابهة المخلوقين.فصاروا يُعيدون ويجترون نفس الشُبهة التي يصفون بها كثيرًا مما أثبت الله تعالى لنفسه من صفات الكمال ونُعوت الجلال الذاتية والفعلية والخبرية، **والجواب عليهم سهل – كما تقدم–:**

الأمر الأول: أن يُقال: إن هذا استواء أضافه الرب إلى نفسه. فلما أضافه إلى نفسه اختص به،وإنما وقع الاشتراك في أصل المعنى، وفي حروف اللفظ فقط، أما حقيقته وكيفيته فالأمر يختلف، كما قال الإمام مالك –رحمه الله– لما دخل عليه داخل وقال: يا أبا عبد الله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى؟. فقال الإمام مالك –رحمه الله–: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة . وفي لفظ: الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أُراك إلا صاحب بدعة. ثم أمر به فأُخرج من المسجد.

فأثبت الإمام مالك –رحمه الله–معنى الاستواء، وأنه معروف في لغة العرب، لا يخفى على عربي معنى الاستواء، وأما الكيف وهو ما يختص به سبحانه وينفرد به عن سائر **استواءات** المخلوقين فمجهول أو غير معقول، لا تتمكن عُقولنا

من دركه، والإيمان بالاستواء واجب، والسؤال عن كيفيته بدعة، فهذا جواب سديد من إمام رشيد يجب أن يُجاب به عن كل من سأل عن هكذا مسألة شاذة.

وزعم أهل البدع بأن الاستواء بمعنى الاستيلاء مُخالفة للغة العرب، فقد سئل ابن الأعرابي والخليل بن أحمد وغيرهم من

أئمة اللغة: هل يأتي الاستواء بمعنى الاستيلاء؟ فأبوا، وقالوا: هذا شيء لا تعرفه العرب .وحسبك بهم، فإنهم أئمة اللغة وأهل اللسان، نفوا أن يأتي الاستواء بمعنى الاستيلاء، شيء لا تعرفه العرب من لُغتها، والقرآن نزل بلسان عربي مُبين.

الأمر الثاني: أن هذه الدعوى مُخالفة لما تواتر في كتاب الله .فسبعة مواضع تُعبر بلفظ الاستواء، فلو كان مُراد الله تعالى من الاستواء الاستيلاء، لقال ولو في موضع واحد: استولى.ولكنه لم يتغير هذا اللفظ في جميع المواضع السبعة.

الأمر الثالث : أن تفسير الاستواء بالاستيلاء يلزم منه لوازم فاسدة .فمثلًا: لو فُسر الاستواء بالاستيلاء للزم من ذلك ألا يكون الله تعالى مُستوليًا على عرشه حين خلق السماوات والأرض، وهل يقول بذلك مؤمن؟! هل يقول بذلك من يؤمن بربوبية الله، أن الله تعالى لم يكن مُستوليًا على عرشه حين خلق السماوات والأرض ثم استولى عليه بعد ذلك؟ هذا ما يؤدي إليه قولهم: إن استوى بمعنى استولى.

أيضًا يلزم من ذلك ألا يكون بين العرش والأرض السفلى فرق، ما الفرق إذن إذا كان الاستواء بمعنى الاستيلاء فأي فرق بين العرش الذي فوق السماوات السبع وبين الأرض السُفلى؟ لا فرق إذن، لأن الله تعالى مستولي على الجميع، يترتب على هذا أن يكون الله تعالى وتنزه يصح أن يُقال عنه:إنه استوى على كل شيء .إذا كان استوى بمعنى استولى فيلزم من ذلك أن يقول قائل: استوى على البيوت، واستوى على الشجر، واستوى على الحجر ، وأشياء لا يقوى الإنسان على ذكرها. فهذا لازم قولهم أن استوى بمعنى استولى، فدل ذلك على أن تفسير الاستواء بالاستيلاء معنى باطل، وأنه قول على الله بغير علم، ولا مُوجب له، فإنه لا يجوز صرف الكلام عن ظاهره إلى خلاف ظاهره بإقرارهم هم إلا بوجود دليل يُوجب نقل المعنى من حقيقته إلى مجازه على فرض القول بالمجاز، ولا دليل ، طبعًا القوم يقولون: إن الدليل الموجب لصرف الكلام عن ظاهره إلى خلاف ظاهره هو الفرار في الوُقوع في مُشابهة المخلوقين. فنقول: هذا الذي تعللتم به علة واهية، فإنه لا يلزم منه ما ذكرتم، فلله تعالى استواء يليق به، وللمخلوق استواء يليق به، فأين تذهبون ؟ لم يبقى لكم ما تتشبثون به، إن هي إلا مُقدمات باطلة وأوهام فاسدة، وظنون اعتقدتموها ثم استدللتم عليها، فعكستم المسار، وكان الواجب أن تستدلوا ثم تعتقدوا، إذن هذه المقالة مقالة باطلة فاسدة والواجب كما هو مذهب أهل السنة والجماعة أن نُثبت لله سبحانه وتعالى استواءً يليق بجلاله وعظمته، لا يُماثل استواء المخلوقين.

وهل الاستواء صفة ذاتية؟ أم فعلية؟ الاستواء صفة فعلية، لأنه تقدم كثيرًا أن الفرق بين الذاتية والفعلية أن الذاتية هي الملازمة لذاته التي لا تنفك عنه، وأن الفعلية هي المتعلقة بمشيئته، فلما علمنا أنه حين خلق السماوات والأرض لم يكن مُستويًا على عرشه، ثم استوى دل ذلك على أن هذا وصف فعلي، بخلاف ما يأتي إثره، وهو صفة العلو.

الدرس (17)

إثبات علو الله عز وجل

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: إثبات علو الله على مخلوقاته:**

{يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: 55].{بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء: 158].{إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10].{يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا} [غافر: 36، 37].{أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (16) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ} [الملك: 16، 17].

ساق الشيخ هذه الآيات الدالة على إثبات العلو بعد الآيات الدالة على إثبات الاستواء، **وذلك أن بين الاستواء وبين العلو فرقين:**

الفرق الأول: أن الاستواء صفة فعلية، والعلو صفة ذاتية . بمعنى أن الله تعالى لا بد دومًا أن يُوصف بالعلو، ولا يُمكن أن يزول عنه وصف العلو، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في تفسيره للأسماء الأربعة، قال: (وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ)[1] فالله تعالى دومًا مُتصف بالعلو، لا يُمكن أن يتصف بالسُفول، حتى إذا نزل سبحانه وتعالى إلى سماء الدنيا في الثُلث الأخير من الليل، لا يُمكن أن يكون فوقه شيء من مخلوقاته، والله على كل شيء قدير، ولا يُقاس بخلقه، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[الشورى: 11] ، ولا تُضرب له الأمثال، فالعلو صفة ذاتية، والاستواء صفة فعلية.

الفرق الثاني: أن العلو يدل عليه العقل والنقل، أما الاستواء فإنه لا يدل عليه إلا النقل . فلو أدمن الإنسان التذكير وأجهد ذهنه ليُثبت الاستواء لم يتمكن بُمجرد العقل، أما العُلو فإن العقل يدل عليه، إذ العقل يقطع بأن العلو كمال والسُفل نقص، وكل كمال ثابت للمخلوق فالله أولى به، وكل نقص يُنزه عنه المخلوق فالله أولى أن يُنزه عنه، فالعقل يدل على إثبات العلو، لكن العقل لا يدل على إثبات الاستواء، وإن كان لا يمنعه، لكنه لا يدل عليه.

إذن هذه الآيات التي بين أيدينا تدل على إثبات علو الله، واعلموا أن عُلو الرب سبحانه وبحمده قد دل عليه الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، أي توافرت الأدلة الخمس على إثبات علو الله عز وجل، الاستواء كما تقدم دل عليه الكتاب: فيما تلونا من الآيات السبع، ودلت عليه السنة الصحيحة : فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله استوى على عرشه، ودل عليه الإجماع: فقد انعقد إجماع المسلمين على ذلك كما قال الأوزاعي: "كُنا والتابعون متوافرون نقول أن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته جل وعلا "[2]، إذن هذا تابع للمبحث السابق، فالاستواء دلت عليه ثلاثة أنواع من الأدلة:الكتاب، والسنة، والإجماع.

---

[1] صحيح مسلم (2713).

[2] العرش للذهبي (212/1)، الصفات للبيهقي (500).

وأما العلو فقد دلت عليه خمسة أنواع من الأدلة، منها الثلاثة السابقة ونوعين آخرين هما:العقل، الفطرة.

أما دلالة الكتاب فإليكموها، قال الله تعالى: {يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ} [آل عمران: 55] والرفع لا يكون إلا إلى أعلى ، وقال تعالى: {بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء: 158]: الرفع لا يكون إلا إلى أعلى، وفي هذا رد على اليهود والنصارى الذي يزعمون أن عيسى عليه السلام قد صُلب، حاش ا وكلا، قال الله تعالى: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ} [النساء: 157]، فقد وشت اليهود بعيسى عليه السلام إلى الرُومان ليقتلوه، فأتوا ليقبضوا عليه فألقى الله شبهه على هذا الخائن الذي وشى به، فأخذوه وجرجروه ووضعوه على خشبة الصلب ووضعوا علي هـ الشوك وصلبوه، وأما عيسى عليه السلام فقد رفعته الملائكة إلى السماوات العُلى حتى صار في السماء الرابعة. إذن هذا التعبير بالرفع يدل على العُلو.

قال: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ}:هل مُتوفيك بمعنى الموت؟ عيسى عليه السلام لم يمت، بدليل أنه ينزل في آخر الزمان، فهو لم يمت بعد عليه السلام، إذن مُتوفيك إما بمعنى مُستوفيك، أو أنها الوفاة التي بمعنى النوم، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى ألقى عليه النوم، والنوم أخو الموت، لكنه أخوه الأصغر، فقد قال الله سبحانه وتعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمر:42] فالنوم نوع وفاة، فيه نوع استيفاء، لكن تبقى للروح علاقة بالبدن، فعيسى عليه السلام قد استوفاه الله بمعنى أنه أخذه إليه، أو استوفاه الله بمعنى أنه ألقى عليه النوم، فكانت وفاة صُغر ى، ثم رفعه إليه، لكن ليس المقصود بقوله تعالى: {إِنِّي مُتَوَفِّيكَ} أي مُميتك.

قال: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} : **{إِلَيْهِ}**: مرجع الضمير إلى من؟ إلى الله عز وجل، {إِلَيْهِ يَصْعَدُ} والصعود لا يكون إلا إلى أعلى، إذن هي من أدلة العُلو.

قال: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} : ما هو الكلم الطيب؟ الكلم الطيب هو كُل لفظ حسن مشروع، كالتسبيح والتهليل، والتحميد، والتكبير، والحوقلة، والاسترجاع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم الناس، فكل هذا كلم طيب، فالكلم الطيب، يصعد إلى الله عز وجل.

قال: {وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}:مرجع الضمير في {يَرْفَعُهُ} إما إلى الكلم الطيب يعني والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وإما إلى الله عز وجل، يعني أن الله تعالى كما يصعد إليه الكلم الطيب فهو يرفع العمل الصالح، هذان قولان، وقد اختار ابن القيم فيما يظهر –والله أعلم– المعنى الأول، لأنه سمى كتابه : الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب ، فاستنبط العلماء أن مُجرد الكلام لا يرتفع إلا إذا اقترن به عمل، فالعمل تصديق للكلام، وإلا فقد يدعي الإنسان الدع اوى العريضة، فما لم يقرنها بالعمل لا تكون مقبولة ثابتة عند الله عز وجل ، والشاهد من هذا هو لفظ **{يَصْعَدُ}** و**{يَرْفَعُهُ}**، والرفع لا يكون إلا إلى أعلى.

قال: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا} : من القائل؟ فرعون، يقول مُخاطبًا وزيره هامان ، قال له: {ابْنِ لِي صَرْحًا} ، وما الصرح؟ الصرح هو البناء الرفيع الشامخ.

قال: {لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ}: الأسباب جمع سبب، وهو الطريق، {أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ}: يعني طرائق السماوات.

قال: {فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى}: ما الذي نصب أطلع؟ أن مُضمرة، يعني: فأن أطلع إلى إله موسى.

قال: {فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا }: ما هو وجه الدلالة من هاتين الآيتين على إثبات العلو؟ {ابْنِ لِي صَرْحًا} والصرح يدل على العلو والارتفاع، فأين طلب إله موسى؟ في جهة العلو، ولم يقل: احفر لي حفرة، أو احفر لي خندقًا أو نفقًا. بل قال: {ابْنِ لِي صَرْحًا} ، وأيضًا قوله: {أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ} يدل عليه، لكن يدل على ماذا؟ على أن موسى عليه السلام أخبره أن إلهه أين؟ في السماء.

قال: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا} : وهذا من تحايل فرعون وحذلقته، وتظاهره بالموض وعية، وهذا من أساليب الطُغاة، فإن من الطُغاة من يتظاهر أمام الشعوب والعامة بأنه موضوعي، وأنه يبحث عن الحق وغير ذلك، حتى إنه ليضع نفسه في موضع الاجتهاد، أرأيتم فرعون وهو أعتى الطُغاة، يقول: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي}مثل هذه الجُملة تدل كأنما هو قتل الموضوع بحثًا، واجتهد في أن يبحث لهم عن إله، ثم بعد ذلك صفق بيده، وقال: والله ما علمت لكم من إله غيري : يعني استفرغت جُهدي ووسعي وبحثت وما وجدت لكم إله غيري، هكذا، فالسُذج يُغرر بهم بمثل هذا الكلام ويرونه ناصحًا مُجتهدًا.

وكذلك أيضًا حينما خرج عليهم وقال: {أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى} [النازعات: 24]،{لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} [الشعراء: 29]، ويقول ها هنا مُتظاهرًا يعني بالبحث والتقصي: {ابْنِ لِي صَرْحًا} : يعني لنتأكد من الموضوع، لنتحقق، لا شيء، ليس ثمَّ إله، هكذا يُريد، يُريد أن يحصر الرُبوبية والأُلوهية بشخصه المهين ، سبحانه الله! هذه أساليب هؤلاء الطُغاة قديمًا وحديثًا.

قال: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}: {تَمُورُ}: أي تضطرب وتتحرك.

قال: {أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} : والحاصب هي الريح التي تحمل الحصباء فتحصبهم، أين وجه الدلالة من هذه الآية على إثبات عُلو الله؟ قوله: {مَّن فِي السَّمَاءِ} فالذي في السماء هو الله عز وجل، **والسماء لها معنيان:**

المعنى الأول: أن تكون السماء هي السماء المبنية.السبع الشداد.

المعنى الثاني: أن يكون المراد بالسماء العُلو.

فإن قُلنا: **إن السماء في هذه الآية هي السبع الشداد** . فمعنى قوله: {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ} أي: أأمنتم من على السماء، وفي تأتي بمعنى على في لُغة العرب، ليس هذا تأويلًا، هذا من صميم لُغة العرب، التناوب بين حُروف الجر،

وشاهد ذلك، أو شواهد ذلك من كتاب الله، قول الله تعالى: {فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ}{ التوبة:2} يعني على الأرض، لا في جوفها وغورها، وقوله تعالى: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا} [الملك: 15]: يعني على مناكبها ، وقوله تعالى في قصة فرعون مع السحرة: {وَلأصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} [طه: 71]: هل مُراده أنه يُدخلهم في جوف هذه الجذوع؟ لا، المقصود على جُذوع النخل، إذن في تأتي بمعنى على في لُغة العرب، فإذا كان المقصود بالسماء في هذه الآيات : السماء المبنية : السبع الشداد، فإن في هُنا تُفسر بمعنى على.

وإن قُلنا: **إن السماء المُراد بها العُلو ، لأن العرب تُسم ي كل ما على** : سماء؛ فسقف هذا المسجد: سماءك، سماء هذا المسجد : سقفه، وهكذا، فإن في على وجهها تدل على الظرفية، يعني: أأمنتم من في العلو، ولا إشكال، ولا نحتاج أن نقول: في بمعنى على. وبهذا يزول الإشكال، فليس المقصود حاشا وكلا أن تكون السماوات تحوي الرب تُظله أو تُقله، تعالى الله عن ذلك، الله أكبر وأعظم وأجل من أن تكون سم اواته تحويه، تُظله أو تُقله، بل [ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدكم]، فهي أصغر من أن يتوهم إنسان أن السماوات تُحيط به سبحانه وتعالى، فصار المقصود {أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ} : إما من على السماء، أو معناها من في العُلو، فهذا دليل على إثبات عُلو الله.

والواقع أيها الكرام أن عُلو الله تعالى في القُرآن العظيم مذكور بطُرق مُتنوعة، منها ما استشهد به المؤلف، ومنها صِيغ أُخرى، فقد سمى الله نفسه في كتابه بأسماء تدل على العُلو صريحًا، كقوله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى}[الأعلى:1]،{الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ } [الرعد: 9]، {وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[البقرة: 255] [الشورى: 4] ، فالعلي والأعلى والمتعال تدل على ذلك ، وكذلك ما مر بنا من ذكر صُعود الأشياء إليه، وذكر عُروجها إليه، {تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} [المعارج: 4]، والعُروج يكون إلى أعلى، ورفع الأشياء إليه ، ومن الأدلة: نزول الأشياء منه، لأن النزول لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، وذكر الاستواء يدل على العُلو، وهكذا ، حتى حكى شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في الفتاوى عن بعض عُلماء الشافعية أن في القرآن أكثر من ألف دليل على إثبات عُلو الله، وبعضهم قال: ألفي دليل . يعني بعضها دِلالته مُباشرة، وبعضها مُستنبط، فهذه دِلالة القُرآن.

وأما السُنة: فكثير جدًا في الأحاديث، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: [وأنت الظاهر فليس فوقك شيء]، وكذلك أيضًا رفع النبي صلى الله عليه وسلم طرفه إلي السماء ينتظر الوحي من الله عز وجل، {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ} [البقرة: 144]، وقول النبي صلى الله عليه وسلم للجارية: (أَيْنَ اللهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: (أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ)[1] ،إلى غير ذلك من الأدلة.

[1] صحيح مسلم (537).

وأما الإجماع: قد ذكرنا لكم آنفًا قول الأوزاعي: "كُنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من الصفات".فالإجماع مُنعقد على إثبات عُلو الله تعالى، لا يُنازع في ذلك أحد من أهل السنة، بل كُلهم على هذا.

وأما العقل: فالعقل يدل على إثبات العُلو، وذلك أن العُلو لدى جميع العُقلاء صفة كمال، والسُفل صفة نقص، هذا أمر تُقر به جميع العُقول، والأصل أن ما ثبت للمخلوق من كمال فالله أولى به، كما أن ما تنزه عنه المخلوق من نقص فالله أحق بالتنزيه منه، وفي هذا رسالة مبسوطة لشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– اسمها: الرسالة الأكملية.

أما الدليل الخامس فهو دليل الفطرة : فقد غرس الله تعالى في الفطر اعتقاد عُل وهـ سبحانه وتعالى، حتى إن اليهود والنصارى يُقرون بأن الله تعالى في العُلو، ويُشيرون إلى السماء، ناهيك عن أهل الإسلام فإنهم أكثر الناس تحقيقًا لعُلوه سبحانه وتعالى، فما من إنسان لم تتلوث فطرته بالمباحث الكلامية والمنطقية والفلسفية إلا ويجد في قلبه نُزوعًا إلى السماء حين مُناجاة الله تعالى، وقد وقع قصة لأبي المعالي الجويني وهو من أساطين الأشاعرة مع أبي جعفر الهمداني –رحمه الله–، وأبو المعالي الجُويني كان يُلقب بإمام الحرمين، وذلك لتفننه في عُلوم الفقه، والأصول، والعربية، لكنه في باب الاعتقاد ليس على طريقة أهل السنة والجماعة، فكان يُقرر ويقول: كان الله ولا شيء . وهذه جُملة صحيحة، ثم أردف قائلًا: وهو الآن على ما كان عليه . يُعرض بنفي العُلو والاستواء، قال: وهو الآن على ما كان عليه . ففهم أبو جعفر الهمداني مُراده، وأنه يُريد أن ينفي حُصول الاستواء، لأن الله قال: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}؛ فقال: يا إمام: دعنا من ذكر العُلو والاستواء، وأخبرنا عن هذه الضرورة التي يجدها أحدنا في قلبه، ما قال عارف قط: يا الله . إلا وجد في قلبه ضرورة بطلب العُلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة . فجعل الجويني يلطم على رأسه، ويقول: حيرني الهمداني، حيرني الهمداني . لم يستطع أن يُجيب عن هذا الدليل الفطري، وأنتم تجدون هذا في قُلوبكم، ما من أحد منا يُناجي ربه ويقول: يا رب . إلا يجد قلبه ينزع إلى أي جهة :يمين، يسار، خلف، تحت؟ بل يجد أن قلبه يتجه نحو العلو، حتى أن الأطفال الصغار إذا استعدى بعضهم على بعض وجرى يُخوفه بالله الذي في السماء، ناهيك عن الشيوخ الكبار والعجائز، بل يُقال: إن البهائم العجماوات إذا اعتراها شيء من الألم أو جاءها ضرب رفعت طرفها إلى السماء. فالله سبحانه وتعالى فوق سماو اته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه، هذا عقيدة أهل السنة والجماعة، **فعُلو الله تعالى ثلاثة أنواع:**

النوع الأول: علو قدر.

النوع الثاني: عُلو قهر.

النوع الثالث: عُلو ذات.

فعلو القدر هو عُلو الصفات، إما أن نقول علو قدر، وعلو قهر، وعلو ذات، وإلا نقول: علو قهر، وعلو صفات، وعلو ذات، بمعنى واحد، ونبينها حتى لا تلتبس على أحد، المقصود: بعُلو القدر هو عُلو الصفات، لأن الله له

المثل الأعلى، وهذا أمر يُجمع عليه أهل القبلة وإن اختلفوا في التفاصيل، فما ي وجد أحد يدعي الإسلام إلا يفترض لله الكمال المطلق، وأسعد الناس بهذا هم أهل السنة، الذين أثبتوا ما أثبت لنفسه من صفات الكمال، ونزهوه عن صفات النقصان، وأما عُلو القهر فلا يُنازع فيه أحد من أهل القبلة، {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}[الأنعام: 18،61]، فلا يُمكن لأحد يدعي الإسلام أن يُثبت لله مُغالبًا خارجً ا عن قُدرته وقهره وسُلطانه، {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}[الأنعام: 18،61] يكفيك الملائكة العِظام الذين قال الله تعالى عنهم: {يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [النحل: 50].

بقي موضع النزاع وحلبة الصراع في القسم الثالث، وهو عُلو الذات، فأهل السنة والجماعة قاطبة، مُجمعون على أن الله تعالى بذاته مستوى على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه، وأنه سبحانه وتعالى له العُلو الأعلى، وأنه سبحانه مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله وعظمته، وأن عرشه هو سقف المخلوقات، فكل الكون تحت العرش، والله فوق العرش، هذه الفكرة الواضحة البينة عند جميع أهل السنة والجماعة، أن الله سبحانه عال على خلقه، مستو على عرشه، ليس فيه شيء من خلقه، يعني لا اختلاط، ولا في خلقه شيء منه، لا حُلول، هذا مُعتقد أهل السنة والجماعة.

وأما أهل البدع فقد قالوا مقالات بائرة في هذا، وأتوا بالعجب العُجاب، فمنهم من يقول: **إن الله حالّ في كل مكان**. تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، **وهذه مقالة حُلولية الجهمية** الذين يقولون: إن الله في كل مكان .وقد تسمع من بعض الناس من يقول: ربنا في كل مكان. هذا قول باطل، علمه في كل مكان، أما هو بذاته سبحانه فلا يجوز أن يُقال : في كل مكان ؟ هل يكون في المساجد والبيوت والأسواق وكذا ؟ هذا لا يقول به من يقدر الله حق قدره، فالله تعالى فوق سماواته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه ولا في خلقه شيء منه.

ومنهم من قال: لا يُوصف بأي جهة، فلا يُقال : فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا أمام ، ولا خلف .يعني نفوا عن الله الجهات الست، ولا مُحايث، ولا مُجانب، ولا مُحاذي، ولا..، ولا.. ، نفوا عن الله الجهات الست، سبحان الله! لو أُريد أن يُعرف العدم بشيء ما وُجد أحسن من هذا التعريف، أن تقول عن شيء من الأشياء : لا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا أمام، ولا خلف، وليس مُجانبًا، ولا مُحاذيًا، ولا تجوز الإشارة الحسية إليه، ولا..،ولا..، ولا.. سلسلة من النفي، هذا في الحقيقة يُفضي إلى القول بالعدم، ولهذا تفطن أهل السنة فقالوا: إنما يُحاولون أن ليس فوق السماء إله. يعني مقالتهم هذا تُفضي إلى القول بإنكار وُجود الله، فهذه المقالة هي مقالة مُتأخري الجهمية، الذين قالوا بنفي الجهات الست،بالنفي المطلق، فهذه مقالة تأباها العقول وتُناقض أدلة الكتاب والسنة.

أما أهل السنة والجماعة فكما سمعتم على الجادة، على ما يُوافق العقل والفطرة والشرع، لا ينبو كلامهم على شيء من ذلك، الله سبحانه وتعالى بذاته، فوق سماو اته، مستو على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه، هذه مقالتهم، أما المقالات الباطلة الفاجرة كمقال ة الحُلول، وكمقالة الاتحاد بنوعيهما العام والخاص، فكلها مقالات كُفرية لا تمتّ إلى الحق بصلة، ويجب دفعها وإنكارها.

والله أعلم.

الدرس (18)

إثبات معية الله لخلقه

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[الحديد: 4] .**

{مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[المجادلة: 7] .

هاتان الآيتان أتى بهما المصنف بعد ذكر آيات الاستواء والعُلو وهذا من حُسن صنيعه وتصنيفه، ليُبين أن عُلو الله تعالى واستواءه على عرشه لا يمنع من معيته لخلقه، فإنه سبحانه قريب في عُلوه، عليّ في دُنوه، فلا تناقض بين كونه سبحانه فوق السماوات العُلى مستويًا على العرش، وبين كونه مع خلقه، إذ أن هذ هالمعية معية علم، معية بصفات الربُوبية، بسمعه، وبصره، وقدرته، واطلاعه، فلا تنافي بين الأمرين، لئن كان هذا يتنافى في حق المخلوقين فإنه لا يتنافى في حق الخالق، فالمخلوق رُبما لو وجد شخص مثلًا فوق سطح هذا المسجد فإنه لا يعلم ما نحن فيه، ولا يسمع كلامنا، ولا يرى فعالنا، هذا في حق المخلوقين، ناهيك فيما لو كان في مكان ناء بعيد، فقد يتوهم مُتوهم أن كون الله تعالى فوق عرشه مستو عليه فوق سماو اته،أن هذا يُفضي إلى عدم عِلمه ومعيته بخلقه، **فأردف الشيخ آيات العُلو والاستواء بما يدل على أنه لا تعارض بين المعية والعلو.**

قال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} :إذن هذا فيه إثبات العُلو والاستواء.

قال: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا} :وسبق تفسير هذه الجُمل.

قال: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} : إذن في آية واحده جمع سبحانه وتعالى بين المعية والعلو، فلا يُمكن أن يكون بين المعية والعلو تعارض، هذه المعية هي معية بعلمه، وسمعه،وبصره، وقدرته، وإحاطته سبحانه، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}[الشورى: 11].

قال: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ}: النجوى هي حديث الهمس.

قال: {مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ}: {رَابِعُهُمْ}:يعني جاعلهم أربعة، فهو معهم.

قال: {لا خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ}:يعني جاعلهم ستة.

قال: {وَلا أَدْنَى مِن ذَلِكَ}:يعني أدنى من الأربعة.

قال: {وَلا أَكْثَرَ}: أكثر من الستة، أو أكثر من الخمسة.

قال: {إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} :إذن هو بما تعملون بصير، وهو بكل شيء عليم.

قال الإمام أحمد –رحمه الله–: افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم . أراد بذلك –رحمه الله– الرد على حُلولية الجهمية، يعني حينما فسر السلف المعية بالعلم ليس مُرادهم إن العلم مُطابق للمعية، وإنما مُرادهم بذلك تفسير الشيء بلازمه، يعني أنه يلزم من معيته سبحانه العلم بأحوالهم، وأرادوا بذلك الرد على حُلولية الجهمية الذين يزعمون أن الله موجود في جميع الأشياء وأنه مُنبث في الكون كانبثاث الهواء والضياء، تعالى الله عما يقولون، وأن الأرض ظرف له، تعالى الله عن ذلك، فلهذا السلف قطعوا عليهم الطريق وقالوا: معهم بعلمه . افتتح الآية بالعلم، أين افتتحها بالعلم؟ في سورة المجادلة: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ} ، واختتمها بالعلم: {إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ، فهذه الآيات دلت على إثبات أحد نوعي المعية، وهي المعية العامة التي يشترك فيها جميع المخلوقات.

ثم إن الشيخ أردف الآيات الدالة على معيته العامة بالآيات الدالة على معيته الخاصة، ذلك أن **المعية تنقسم إلى قسمين:**

القسم الأول: معية عامة.

القسم الثاني: معية خاصة.

📖**قال الم ؤلف –رحمه الله–: وقوله: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40].{إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}[طه: 46].{إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} [النحل: 128].{وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}[الأنفال: 46].{كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}[البقرة: 249].**

قال: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} : جاء ذلك في خبر النبي صلى الله عليه وسلم في حادث الهجرة : {إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40]، وذلك أن نبينا صلى الله عليه وسلم حين أوى إلى غار ثور مع صاحبه أبي بكر، وأرسلت قُريش الطلب إثرهما فبلغوا إلى موضع الغار، حتى قال أبو بكر – رضي الله عنه – للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله:والله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لرآنا. قال ذلك شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم فهو يُفديه بنفسه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: {لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} [التوبة: 40]، فهذه المعية معية خاصة، أما المعية العامة فإنها تشمل من في الغار ومن خارج الغار، فإن الله مع هؤلاء الذين يتبعون أثره بسمعه وبصره وعلمه، كما أنه مع من في الغار بسمعه وبصره وعلمه، وزاد من في الغار على من خارج الغار أنه معهم بنصره وتأييده وحفظه، فهذا هو الفرق بين المعيتين.

قال: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} : هذا خِطاب من الله تعالى وطمأنة لموسى وهارون عليهما السلام، فإنه لم ا ندبهما إلى لقاء فرعون ودعوته، قال موسى وهارون عليهما السلام: {رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى} [طه:

45]، وهو محل ذلك، إذ كان طاغيًا جبارًا غشومًا، لا سيما أنه قد سبق لموسى عليه السلام ما يعدونه خطيئة وهو قتله للقبطي، فقال الله تعالى مُطمئنًا: {لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: 46]، فهذه المعية معية خاصة تقتضي أن الله تعالى يرعاهما ويكلؤهما بعنايته ويدفع عنهما، وإلا فإن الله مع فرعون ومَلَئِهِ ومع موسى وهارون معية عامة، معية الرُبوبية المقتضية للعلم بالسمع والبصر والقدرة والإحاطة وسائر صفات الرُبوبية.

قال: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ} : هذه معية للمُتصفين بوصفين كريمين، وهما: التقوى والإحسان، فالله تعالى مع المتقين عامة، ومع المحسنين عامة، مما يدلنا على أن معية الله تعالى لا تختص بأفراد كنبينا صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، و موسى وهارون وسائر الأنبياء، وإن كان لهؤلاء القدح المعلى، والقدر الأكمل، لكن معية الله الخاصة يندرج فيها جميع أوليا ئه من المتقين، والمحسنين، والصابرين، والمجاهدين في سبيله، كما في هذه الآيات وغيرها، والذين اتقوا هم الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقِاية، بامتثال أوامره واجتناب مناهيه، هذا هو العهد الذي بينك وبين ربك، إنك إن اتقيت الله وقاك، وليس شيء آخر من نسب أو مزاعم أو شرف أو غير ذلك، {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحُجرات: 13]، فمن اتقى الله وقاه، وتقوى الله تكون بأن يتخذ الإنسان بينه وبين عذاب ربه وقاية ، بأن يمتثل أمره ويجتنب نهيه، فإن فعل فليبشر {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} [يونس: 62]، من؟ {الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} [يونس: 63]، كذلك أيضًا المحسنون، والمحسنون هم المنتقيون إلى الإحسان التي هي أعلى مراتب الدين، فإن أعلى مراتب الدين: الإحسان، ثم الإيمان، ثم الإسلام، فيدخل الإنسان أصلًا بعقد الإسلام، وتحصل له عِصمة الدم والمال به، ثم يمن الله تعالى عليه فيأتي بمُقتضيات الإيمان من الطاعة وترك المعصية فيكون من المؤمنين بفعل الأوامر واجتناب المناهي، ثم يترقى في ذلك حتى يصل إلى درجة الإحسان التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: [أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك]، وهاتان أيضًا درجتان

الدرجة الأولى: درجة الطلب.

الدرجة الثانية: درجة الهرب.

فدرجة الطب: [أن تعبد الله كأنك تراه]، يعني تعبده مُشتاقًا إليه، راغبًا فيه، مُنجذبًا إليه، مُتألهًا له، تعبده بمحبة، فهذه درجة الطلب، دونها، [فإن لم تكن تراه] إن لم تبلغ هذا المبلغ فاعبده كأنه يراك، وهي درجة الهرب بمعنى أنك تشعر بخشيته وخوفه وإجلاله، فلا يبدر منك ما يُسخطه عليك، هؤلاء هم أهل معية الله، ولهذا لا يرفع الله عنهم يده، المتقون والمحسنون، وسائر من اتصف بهذه الصفات الكريمة يكون الله معهم في السراء والضراء يُسددهم ويُصلح أحوالهم كما قال في الحديث عز وجل القُدسي:]وما تقرب إليَّ عبدي بأحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أُحبه]، يعني زيادة على الفرائض، قال سبحانه وتعالى: [فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأُعطينه، ولئن استعاذني لأُعيذنه]، بل قال: [وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض روح عبد مؤمن يكره الموت وأكره مساءته]، هذه هي الولاية الحقيقة، من كان لله تقيًا كان لله

ولياً، ولهذا إذ أردت أن تعرف قدرك عند الله فانظر قدر الله عندك ، انظر ما يقوم في قلبك من تعظيم الرب تبارك وتعالى، وإجلاله ومحبته، فإن وجدت خيرًا فاحمد الله، واعلم أن لك عند الله منزلة، وإن كان غير ذلك فتعاهد قلبك وأصلحه.

قال: {وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} : هذه معية لمن اتصفوا بهذه الصفة الحميدة وهي الصبر، والصبر في الدين بمنزلة الرأس من الجسد، وقد تقدم معنا أنه ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة، فهو في أقدار الله المؤلمة حبس للنفس عن التسخط والجزع، وحبس للسان عن مقالة السوء، يعني بالنسبة للنفس حبس للنفس عن الجزع، واللسان عن التسخط، والجوارح عن شق الجيوب وضرب الخُدود، وفعل أفعال الجاهلية، ولا شك أن الصبر منزلة كريمة، وعواقبه حميدة ، {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 249]، قالها المؤمنون للمُخذلين الذين أرادوا أن يغمزوا في قناتهم، ويصدوهم عن الجه اد في سبيل الله فقالوا: {كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: 249]، {فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ} [البقرة: 251] فمن تولى الله واعتصم به فإن الله تعالى يكون معه، ومن كان الله معه فليبشر.

وخُلاصة هاتين الطائفتين من الآيات أن معية الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: معية عامة.

القسم الثاني: معية خاصة.

المعية العامة تقتضي العلم والإحاطة بجميع صفات الرُبوبية من السمع والبصر والقُدرة ونحوها، والمعية الخاصة تقتضي النصر والتأييد، هذا من حيث المقتضى.

لمن تكون المعية العامة؟ ولمن تكون المعية الخاصة؟ تكون المعية العامة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم برهم وفاجرهم، يعني المقصود لمن تكون من جهة الرب للخلق ؟ تكون لجميع الخلق، فلا أحد يخرج عن معية الله العامة، لكن ليس معنى ذلك أن جميع الخلق يستشعرون معية الله العامة، لا يستشعر معية الله العامة إلا المؤمنون المتقون، المحسنون الصابرون، هم الذين يشعرون بمعية الله ورقابته، أما الكُفار والفُساق فإنهم لا يستشعرون هذه المعية، وإن كانت حاصلة شاؤوا أم أبوا، أما معية الله الخاصة فإنها خاصة بالمؤمنين، يعني من حيث صُدورها من الله هي تختص بالمؤمنين الصابرين المحسنين، المتقين المجاهدين، فالله تعالى يبذلها لهم، فأرجو أن تُميزوا بين هذين المقامين.

معية الله العامة من حيث صُدورها من الله شاملة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم.

معية الله الخاصة من حيث صدورها من الله تختص بالمؤمنين، بأوليائه المتقين المحسنين، الصابرين، الموصوفين بصفات الكلمة التي علق الله بها المدح، لكن استشعار المعيتين لا يجتمع إلا في حق المؤمن، فالمؤمن يستشعر معية الله العامة ويستشعر معية الله الخاصة، أما الكافر فلا يستشعر أيًّ من المعيتين، أما الخاصة فالأمر واضح إذ أنه ليس من أهلها، وأما العامة فإنه لا يشعر بها، ولا يُحس بتقوى الله ورقابته حتى يستشعر معية الله العامة.

الفرق الثالث: الأثر. وهو الذي نُسميه دومًا: الأثر المسلكي، ما الذي تُثمره معية الله العامة في نفس المؤمن بها؟ تُثمر كمال مُراقبة الله تعالى، فمن آمن بمعية الله العامة علم أنه تحت سمع الله وبصره، وأثمر ذلك في قلبه خشيته، هذا أثرها المسلكي وياله من أثر! إذا قال قائل: الله معي.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل بُرهة من الدهر أو ما تُخفي عليه يغيب

أما معية الله الخاصة فإنها تُثمر في نفس المؤمن القوة والثبات، لأن من علم أن الله معه لم يُبال بكائن من كان، يُحس أن الله معه فيُقويه، حتى إنه وقع للإمام النووي –رحمه الله– أنه كُلم مرة في شأن مُنكر وقع من بعض سلاطين زمانه أو غيره وكان مهيبًا بطاشًا ، فدخل عليه فكلمه في هذا الأمر بكلام قوي، فقالوا له: كيف جرأت عليه؟ . فقال –رحمه الله–: "والله إنه قد بدا لي كأنما هو هِر". فهذا يدلنا على أن المؤمن إذا امتلأ قلبه بخشية الله وتقواه، أثمر ذلك في قلبه القوة والثبات، ولهذا فتح المسلمون الأمصار وهم قوة قليلة، جميع المعارك التي خاضها الفاتحون من الصحابة والتابعين، خاضوا معارك ليس فيها تناسب عددي، لا مع الفُرس ولا مع الروم، ومع ذلك غلبوهم بإذن الله، لما في قُلوبهم من القوة والثبات، وهذا أمر يجده المؤمن الصادق، إذا قام لله عز وجل، تأملوا – يا رعاكم الله – قول الفتية أصحاب الكهف، قال الله تعالى مخبرًا عن حالهم: {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ} [الكهف: 14] أرأيتم؟ {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ} [الكهف: 14]، قد يتهيب الإنسان أن يخوض في أمر من الأُمور من خشية الناس، لكنه إذا طرح ذلك كُله وترك المخاوف وقام لله، وجد الأثر والثمرة مباشرة، أن الله يربط على قلبه {وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} [الكهف: 14]، ولطالما مثلنا بقصة صاحب القرية، حينما نادى قومه ودعاهم إلى الإسلام بلسان مُبين، كل هذا من آثار المعية الخاصة، وشيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– مُحرر هذه الأسطر حينما ذهب لملاقاة قازان، وكان من مُلوك التتار، وكان يهم أن يستبيح دمشق، فخرج إليه ومعه وفد من أهل دمشق من شيوخها ووجهها ، فقام يُكلمه بلسان قوي ليس فيه تملق، وليس فيه مُحاباة، ويشرؤه ويعيبه ويُقارنه بهولاكو وجنكيز خان اللذان كانا من أسلافه وكانا مشركين، قال: وأنت تدعي الإسلام، وتفعل كذا وكذا . وأخذ يُكلمه والناس مبهورين، حتى إن بعض من كان معه قالوا: كُنا نبتعد عنه، خشية أن يُصيبنا رشاش دمه ، ظنوا أنه سيُقتل في مجلسه، فعظمه أيما تعظيم، وقربه وأدناه، ولما انصرف من مجلس صار في ركابه رؤساء العساكر من التتار يُشيعونه، ويُقال:إن من طريف ما جرى أن بعض من كان معه فارقوه، قالوا: والله لا نرجع معك، لو رجعنا معك لا نأمن أن يُرسل السلطان في أثرك من يقتلك .فساروا في طريق آخر، ولم يزل شيخ الإسلام يسير مُعززًا مُكرمًا يُحيط به ويحتف به رؤساء العساكر من التتار حتى أوصلوه إلى دمشق، وأما من فارقه فيُقال: إنه تعرضت لهم عصابة حتى سلبتهم ثيابهم.

والمقصود: أن معية الله الخاصة لها آثار عظيمة في نفس المؤمن، وهي الثبات والقوة في ذات الله عز وجل.

أما الفرق الرابع بين المعيتين : فهو هل المعية الخاصة والعامة من صفات الله الذاتية ، أم الفعلية؟ . المعية العامة على ضوء ما نذكره لكم دومًا من التفريق بين الذاتية والفعلية : المعية العامة ذاتية، لأن مُقتضياتها لا تنفك عن الله، ما مُقتضيات المعية العامة؟ الإحاطة، العلم، السمع، البصر، كل هذه لا تنفك عن الله، فلذلك المعية العامة من صفات الله الذاتية، وأما المعية الخاصة فهي مُتعلقة بمشيئته وحكمته، بمعنى: أنه إذا وُجد سببها وُجدت، وإذا ارتفع سببها ارتفعت، فحيثما وُجد الصبر، وحيثما وُجدت التقوى فإنها تُوجد المعية الخاصة، وإذا لم تُوجد ارتفعت، فهذه نحو أربع أو خمس فُروق بين المعيتين فلحفظوها.

وأما تقسيم المعية الخاصة إلى معية خاصة، ومعية خاصة الخاصة فيُمكن أن نقول هذا من باب التفصيل داخل أحد القسمين، يعني داخل أحد القسمين الذي هـ و المعية الخاصة يُمكن أن نقول : إنها تتفاوت بحسب درجات .يُمكن أن نجعلها أقسامًا كثيرة أيضًا بحسب درجة الولاية لله عز وجل تكون معية الله تعالى.

الدرس (19)

إثبات الكلام لله تعالى

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} [النساء: 87].{وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا}[النساء: 122].{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} [المائدة: 116].{وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}[الأنعام: 115].{وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا} [النساء: 164].{مِنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ} [البقرة: 253].{وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143].{وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} [مريم: 52].{وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} [الشعراء: 10].{وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ}[الأعراف: 22].{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ} [القصص: 62].{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: 65].{وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ}[التوبة: 6].**

هذه الآيات تتعلق بإثبات عقيدة الكلام، بإثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، فعقيدة أهل السنة والجماعة أن الله تعالى يتكلم بكلام حقيقي لا يُشبه كلام المخلوقين، وأنه تعالى يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء بحرف وصوت، وأن كلامه الحُروف والمعاني، لا المعاني دون الحروف ولا الحروف دون المعاني.

مرة أخرى أقول: عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى يتكلم بكلام حقيقي وأنه صفة ذاتية فعلية، ذاتية باعتبار أصل الصفة، وفعلية باعتبار آحادها وأفرادها، وأنه يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء إذا شاء بكلام حقيقي تسمعه الآذان، وكلامه سبحانه وتعالى حُروف ومعان، لا الحُروف دون المعاني ولا المعاني دون الحُروف لأن هذه هي حقيقة الكلام في اللغة، وقد دلل الشيخ –رحمه الله– بأدلة كثيرة على إثبات صفة الكلام لله تعالى، ومن أوجه مُتعددة

قال: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا} : هذا استفهام يُراد به النفي، أي لا أحد أصدق من الله قِيلًا، والصدق هو مُطابقة الخبر للواقع، والشاهد من الآية: {قِيلًا} [النساء: 122]: إذ القول هو الكلام باتفاق، فمن أثبت القول لله تبارك وتعالى فقد أثبت له الكلام.

قال: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا}: استفهام يُراد به النفي، أي لا أحد أصدق من الله حديثًا، وينبغي أن يعي هؤلاء المحرفون من المتكلمين العابثين بآيات الصفات وأحاديثها هذه الآيات، إذا كان الله تعالى أصدق قيلًا وأحسن حديثًا فكيف يُسوغون لأنفسهم التحريف والتأويل ؟ وقد علموا أن الله أصدق قِيلًا وأحسن حديثًا من خلقه، هذا من أعجب العجب!.

قال: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} : جُملة مقول القول {يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ} ، مكونة من حُروف وأصوات، فهي تدل على أن كلام الله مؤلف من حرف وصوت، هذا بنص كلام الله عز وجل، كما تدلنا هذه الآية على أن الله تعالى يتكلم متى شاء، وأن كلامه مُتعلق بمشيئته، متى يكون هذا ؟ {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ} [المائدة: 116]، يكون هذا يوم القيامة، حين يُقيم الله تعالى الحُجج على أهل الملل، فدل ذلك على أن هذا قول سيقع في المستقبل، فالله يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء.

قال: {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا} : الشاهد منها: {كَلِمَةُ رَبِّكَ} : فأضاف الكلام إلى نفسه سبحانه وتعالى مما يدل على أنه صفته، وذلك أن المضاف – وانتبهوا لهذه جيدًا بارك الله فيكم- إلى الله تعالى إذا كان يُتصور أن يكون مُنفصلًا وذات مُستقلة فهو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، كقولنا: ناقة الله ، وبيت الله، وكعبة الله. ولا نقول عنها: صفات. بل هي مخلوقات، وإضافتها إلى الله تبارك وتعالى إضافة تشريف، أما إذا كان هذا المضاف إلى الله لا يقوم بنفسه، لا بد أن يقوم بشيء كالكلام والسمع والبصر فهذه الإضافة من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، فلهذا إذا قال الله تعالى عن عيسى ابن مريم عليهما السلام: أنه كلمة الله وروح الله . ونحو ذلك، فهذه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، لأن عيسى ابن مريم عين قائمة بذاتها، وكذلك {نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا} [الشمس: 13]،الناقة عين قائمة بذاتها، لا تكون صفة لمن أُضيفت إليه، لكن سمع الله، بصر الله، علم الله، قُدرة الله، هذه لا يُمكن أن تكون عينًا قائمة بذاتها، إذ ن لا بد أن تكون صفة مُضافة إلى الموصوف بها.

قال: {كَلِمَةُ رَبِّكَ}: دلت على أن الكلام صفة من صفات الله تعالى.

قال: {صِدْقًا وَعَدْلًا} : صدقًا في أخبارها، وعدلًا في أحكامها، لأن كلام الله خبر وإنشاء، كلام الله، وكلام رسول صلى الله عليه وسلم، وكلام الناس كذلك، فالكلام نوعان: إما خبر، وإما إنشاء، فإذا قلت: جاء زيد. خبر، وإذا قُلت: أغلق الباب. إنشاء، فالإنشاء هو الطلب فعلًا أو تركًا، فكلام ربنا سبحانه تام صدقًا إذا كان خبرًا، وتامًا عدلًا إذا كان حُكمًا.

قال: {وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}: هذه الآية من أوضح الآيات الدالة على إثبات صفة الكلام لله عز وجل، إذ أن الله تعالى أسند الكلام إلى نفسه وأكده بالمفعول المطلق.

قال: {وَكَلَّمَ اللَّهُ}: من المتكلِّم؟ الله، من المكلَّم؟ موسى عليه السلام.

قال: {تَكْلِيمًا}: مفعول مُطلق مؤكد لعامله، فما بعد هذه الآية مزيد في إثبات الكلام إلى الله، ولهذا شرق بها أهل البدع وحاولوا أن يصرفوها عن ظاهرها، فأرادوا أن يستنطقوا أبا عمرو بن العلاء وهو أحد القراء المعروفين أن يقرأ لهم: وكلم اللهَ موسى تكليمًا.ليجعلوا الله مكلَمًا لا مُتكلِّمًا، حينما تُعرب الآية تقول: {كَلَّمَ} : فعل ماض مبني على الفتح، {الله} لفظ الجلالة فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة، {موسى} مفعول به منصوب، {تكليمًا} مفعول مُطلق مؤكد لعامله، أرادوا أن يعكسوا القضية وأن يقولوا: {وكلَّم اللهَ} بأن يقولوا: الله مفعول به مُقدم، وموسى: فاعل مؤخر منع من ظهور الضم عليه التعذر، هكذا أرادوا، لكن أبا عمرو بن العلاء -رحمه الله- قال لهذا المبتدع: فما تصنع يا ابن اللخناء في قول الله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} [الأعراف: 143]؟. هل يستطيع أن يُحرفها؟ لا يستطيع، هذا ضرب من ضروب التحريف اللفظي بتغيير الشكل، وقد نبهنا عليه في أوائل شرحنا لهذه الرسالة.

قال: {مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ}: من الرُسل، {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ }[البقرة: 253]، فمنهم من كلمه الله : مثل موسى بن عمران، ونبينا صلى الله عليه وسلم، ولهذا يُقال: موسى الكليم، كلمه الله كفاحًا في الطور.

قال: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} : جاء موسى لميقاتنا حيث وعده الله تعالى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر، وكلمه ربه، حتى إنه لشغفه وتعلقه بربه قال: {رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ} [الأعراف: 143]: تمنى أن ينظر إلى ربه، فقال الله عز وجل: {لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ}[الأعراف: 143] ... الآية.

قال: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ} : دليل صريح على إثبات كلام الله عز وجل، ودليل أيضًا على أن كلامه مُتعلق بمشيئته، لأن عندنا حدثان: المجيء، والتكليم. بالله عليكم أي عربي يُدرك أدنى شيء من العربية ماذا يفهم؟ أيهما وقع أولًا المجيء ، أم الكلام؟ المجيء، ثم وقع بعده الكلام، هكذا يفهم كل عربي يقرأ القرآن، فهذا يدل على أن الكلام حدث بعد المجيء، وأهل البدع كما تعرفون يظنون أن هذا الحُدوث نقص في حق الباري، ويقولون: حصل له وصف بعد أن لم يكن . وغفلوا عن أمر مهم، وهو أن أصل الكلام ذاتي النوع فعلي الآحاد، يعني كما يُعبر ابن قُدامة وغيره -رحمه الله-: قديم النوع حادث الآحاد. فأصل الصفة قديمة، ولا يُقال: إنها طرأت على الله بعد أن لم تكن. بل هي قديمة، إنما من كماله سبحانه أنه يتكلم متى شاء، وكيف يكون ك مالًا على زعمهم ألا يتكلم؟ فهم يصفون الله بالخرس، زعموا بأنه لا يُمكن أن يتكلم متى شاء كيف شاء، حتى عند المخلوقين، أحدنا الذي يتكلم إذا اقتضى المقام الكلام أكمل من الأخرس الذي لا يتكلم أو تكلم في أول دهره ثم سكت، هذا لا يكون، وسنذكر مذاهبهم في هذا، إنما الآية دلت

دلالة صريحة على ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن كلام الله من صفاته الذاتية الفعلية وأنه يتكلم متى شاء كيف شاء.

قال: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} : هذه الآية دلت على أن كلام الله له تصرفات، فتارة يكون نداءً، وتارة يكون مُناجاة، والمناداة هي الصوت لمن بعد، والمناجاة هي الصوت لمن قرب، فلما كان موسى عليه السلام بعيدًا نُودي، فلما قرُب نُوجي، والطور هو جبل معروف في بلاد الشام، أو في بلاد فلسطين، ويقال: إن الطور يُطلق على الجبل الذي لا نبت فيه، أيًا كان هناك جبل بهذا الاسم، وهو موقع شريف بلا شك.

قال: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ} :وصفه بالأيمن ها هنا بالنسبة للمُقبل عليه، وإلا فإن كل شيء يُمكن أن يكون له يمين ويسار باعتبار الجهة التي يُرصد من خلالها، فأنت إذا أقبلت على جبل أو على عين من هذه الجهة صار هذا جانبه الأيمن وهذا الأيسر، وإذا جئت من الجهة المقابلة صار العكس، فالمقصود من الأيمن بال نسبة لموسى عليه السلام.

قال: {وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} : إذن دلت على فضل موسى عليه السلام واختصاصه بكلام الرب مُناداة ومُناجاة، ودلت على تصرف كلام الرب وأنه كلام حقيقي منه ما يكون مُناداة، ومنه ما يكون مُناجاة.

قال: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} : {وَإِذْ}: هذه تدل على الظرفية، مما يدل على أنها مُتعلقة بمشيئته.

قال: {وَإِذْ نَادَى}: والمناداة نوع من أنواع الكلام.

قال: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}: وهم قوم فرعون، {أَلا يَتَّقُونَ}.

قال: {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ} : من هما؟ الأبوان عليهما السلام آدم وحواء، ناد اهما ربهما وكانا في الجنة، قال لهما: {أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ} [الأعراف: 22]، فسمع الأبوان بأُذنيهما كلام الباري سبحانه، هذا ما يفهمه كل قارئ للقرآن على فطرته وسليقته، لكن من احتوشته الشياطين وضللته الأهواء صار يُغرب في المقالات، أتدرون ماذا يقولون؟ يقولون في هذه وفيما تقدم من كلام الله تعالى لموسى عليه السلام، يقولون: إن الله تعالى لم يتكلم بكلام حقيقي صادر منه وإنما خلق حُروفًا وأصواتًا في جو الجنة سمعها الأبوان، أو خلق حُروفًا وأصواتًا في الشجرة سمعها موسى عليه السلام، وهذه الحُروف والأصوات مخلوقة لتُعبر عن كلام الله، أو لتحكي كلام الله.

فهم حقيقة ما أثبتوا الكلام لله، ما هو كلام الله إذ ن؟ قالوا: كلام الله هو المعنى القديم القائم في نفسه . فجعلوا الكلام معنى دون حرف وصوت، وإنما هو معنى قائم في ذات الله بمنزلة العلم فقط، وليس الكلام التي تفهمه العرب من لُغتها، فإن العرب لا تُسمي كلامًا إلا ما كان معنى في النفس أصوات مُعبر بها عنه، متى يُقال: تكلم فلان؟ . إذا نطق، ولهذا لا يُعد الطلاق طلاقًا، ولا العِتاق عتاقًا، ولا الوقف وقفًا، والإنسان يُفكر به بخاطره، لا يكون حتى يلفظ به، فلو أن إنساناً خطر في باله أنه طلق زوجته، هل تطلق؟ لا تطلق حتى يقول: أنتِ طالق . لو أن إنساناً فكر أن يُعتق عبده، وقال

في خاطره: عبدي عتيق لوجه الله. ما يعتقه حتى يلفظ، لو أراد أن يُوقف بيته أو بُستانه، لا يكون وقفًا بأن يُحدث نفسه بأنه جعله لوجه الله حتى ينطق بذلك، فلا يكون الكلام كلامًا إلا بالجمع بين المعنى واللفظ، فلهذا لما صارت عندهم هذه المقدمات الفاسدة،ودومًا أُنبهكم عليها أن فساد المقدمات يؤدي إلى خلل النتائج، فالقوم أعنى المتكلمين من الجهمية والمعتزلة ومن شابههم من الأشاعرة والماتُريدية وغيرهم من الصفاتية لما التاثوا بهذه اللوثة واعتقدوا قبل أن يستدلوا شقوا بالنُصوص، وصاروا يبحثون لها عن محامل مُتكلفة، فهل تعتقدون - يا رعاكم الله - أن أحدًا من الصحابة الكرام أو التابعين لهم بإحسان فهم من قول الله عز وجل في كلامه لموسى عليه السلام عند الشجرة أن الله خلق حُروفًا وأصواتًا في الشجرة لتُعبر عن كلامه؟ لا والله، لو حلف حالف بين الرُكن والمقام أن هذا لم يقع ما ح نث، لا يخطر هذا ببال أحد ولا يدور بخلده، هذا تكلف مذموم، ما حمل عليه إلا المقدمات الفاسدة {وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ}[الأعراف: 22]: كل قارئ للقُرآن على فطرته وسليقته يفهم أن ما سمعه الأبوان هو كلام رب العالمين، لا أحد يفهم من العُقلاء فضلًا عن الفُضلاء أن هذا المسموع حُروف وأصوات خلقها الله في جو الجنة لتُعبر عن كلام الله كما قالت الأشاعرة والكُلابية.

قال: {وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} : دلت الآية على إثبات الكلام لله، لأن النداء نوع من أنواع الكلام، ودلت أيضًا على إثبات أن كلامه مُتعلق بمشيئته لأنه يقول: {ويوم يُناديهم}[القصص: 65]، ومتى يكون ذلك؟ يوم القيامة، إذن هذا كلام سيقوله الرب سبحانه يوم القيامة لهؤلاء المشركين، {مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ} [القصص: 65]،الآية بعدها تتعلق بالقرآن.

وأيضا الكُتب المنزلة كلام الله، أي إذا صح ما أخبر الله أو تكلم الله تعالى به في التوراة والإنجيل فإننا نُصدق خبره، أما حُكمه فإنه رُبما كان منسوخًا بالقرآن العظيم، وهذا هو معنى قول الله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة: 48] يعني مُصدقًا لما فيه م ن أخبار، ومُهيمنًا على ما فيه من أحكام.

قد علمتم الآن بالآيات الواضحات والدلائل البينات أن مُعتقد أهل السنة والجماعة في كلام الرب عز وجل مبناه الكتاب الصريح ناطق الكتاب وسيأتي أيضًا أدلة من السنة.

أما الضالون في هذا الباب فهم كُثر منهم من هم من أهل القبلة ، ومنهم من ليسوا من أهل القبلة بل من الملاحدة، وأذكر لكم على سبيل الإجمال هذه المقالات الباطلة لكي تعرفوا نعمة الله عليكم باعتصامكم بنُصوص الكتاب والسنة:

الفلاسفة من أكفر الكفرة، وأنا أقصد ها هنا الفلاسفة المتفلسفين يعني الذين تظاهروا بالإسلام، ورُبما يُطلق عليهم البعض فلاسفة الإسلام، وليس في الإسلام فلسفة، لكنهم أرادوا أن يُلبسوا فلسفتهم اليونانية والإغريقية بلبوس الإسلام وبعبارات الدين، ماذا يقولون عن كلام الله؟ يقولون : إن كلام الله فيض من العقل الفعال على بعض النُفوس

الزاكية يُوجب لها تهيؤات وتصوُرات تقوى وتشتد حتى تُصبح كلامًا تسمعه الأذان . هذه مقال ملاحدة الفلاسفة كابن سينا والفارابي ومن لف لفهم عن كلام الله، يقولون: فيض من العقل الفع ال. والعقل الفعال يجعلونه الاصطلاح المقابل للرب والإله عند أهل الأديان، يُسمونه: العقل الفعال، فالعقل الفعال في زعمهم يفيض فيُوضات على بعض النُفوس الزاكية، من يقصدون بأصحاب النُفوس الزاكية؟ الأنبياء والمرسلين، وهذا الفيض يُوجب لها تصورات وتهيؤات تقوى وتشتد حتى تُصبح أشكالًا نُورانية، ما الأشكال النورانية هذه؟ ما تُسمونه الملائكة، فيسمعون كلامًا، الذي تُسمونه أنتم الوحي، هكذا زعمت، ولا حاجة للتعقيب على قولهم فهو كُفر صُراح يُدركه كل أحد.

المقالة الثانية: مقالة الاتحادية : وهم أصحاب وحدة الوُجود من الصوفية كابن عربي، وابن الفارض، وابن سبعين، والقونوي ومن كان على طريقتهم، فإنهم يزعمون أن كل كلام في الوُجود كلام الله، كل شيء وكل صوت تسمعه يقولون: إنه كلام الله . وذلك لأن عقيدتهم الكُفرية أن الله سبحانه وتعالى هو عين الوُجود، هذه عقيدة وحدة الوُجود التي هي أكفر مقالات الكفر وأخبثها، يقولون: الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق، أنا من أهوى ومن أهوى أنا، نحن رُوحان حللنا بدنًا، إذا كُنت ليلي وليلي أنا، ويقول قائلهم:

الرب عبد والعبد رب يا ليت شعري من المكلف

إن قلت عبد فذاك رب أو قلت رب أنى يُكلف

في أبيات لابن الفارض عليه من الله ما يستحق، وهكذا، يعني كُل شيء يرونه في الكون يرونه مظهرًا لله عز وجل، تعالى الله عما يقولون، وسحبوا ذلك على قضية الكلام حتى قال قائلهم:

وكل كلام في الوجود كلامه سواءً علينا نثره ونظامه

فأي صوت يسمعونه يعتبرونه كلام الله، حتى الخشخشة، وحتى صوت الآلات، وأزيز الطائرات، وصوت — تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا– الحيوانات، وغير ذلك، كل صوت يسمعونه يعتبرونه كلام الله، ويُذكر أن أحدهم كان على المنبر فنعق غُراب على جدار المسجد، فخر مغشيًا عليه يقول: لبيك لبيك!!!! هكذا تتلاعب بهم الشياطين، فهذا هو معنى كلام الله عندهم:

وكل كلام في الوجود كلامه سواءً علينا نثره ونظامه

المقالة الثالثة: مقالة الجهمية: والجهمية كما تعلمون لا يُثبتون لله أسماء ولا صفات، فلا يُثبتون صفة الكلام لله عز وجل، ويقولون: إن الكلام الذي أضافه الله إلى نفسه مخلوق . فهو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، لا من باب إضافة الصفة إلى المتصف بها، فليس كلامه صفته، فحينما يقال: كلام الله. يعني مثل: ناقة الله، وبيت الله، وعبد الله . ونحو هذا، لا أنها صفته لأنهم يُنكرون أن يقوم به سبحانه وتعالى صفة ثُبوتية، والمعتزلة مثلهم، ولهذا المعتزلة كما تعلمون حملوا لواء القول بخلق القرآن، والقرآن كلام الله وسيأتينا –إن شاء الله– في الدرس القادم، فزعموا أن القرآن ليس كلام الله وإنما هو مخلوق، وأن إضافته إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه كأسلافهم الجهمية.

أما الصفاتية من الأشاعرة والماتريدية والكُلابية فإننا كما نُقرر لكم دائمًا أن هؤلاء الصفاتية قوم يُعظمون السلف ويشتغلون بالآثار، يُجلون الأئمة وينمون أنفسهم إليهم لكنهم لم يفقهوا طريق السلف –رضي الله عنهم– ولم يُدركوها كما أدركها السلف، والتبست عليهم شُبهات المعتزلة فلم يستطيعوا لها حلًا، ولم يُحيروا لها جوابًا فجاء مذهبهم مُلفقًا بين مقالة السنة المحضة ومقالة المعتزلة، ومن أقدم المتكلمين الذين كانوا يردون على المعتزلة ويُوالون السنة عبد الله بن سعيد بن كُلّاب، فالكُلّابية لم يستطيعوا التخلص من إلزام المعتزلة بأن إثبات الصفات الفعلية يقتضي حُدوث صفة في حق الله بعد أن لم تكن، فوجدوا أن الكلام إذا قِيل بأنه يتكلم متى شاء، أن هذا يقتضي طُروء الصفة عليه، فماذا قالوا؟ قالوا هم وتابعهم على ذلك الأشاعرة والماتُريدية، والسالمية، وفِرق شتي، قالوا: إننا نُثبت كلام الله، كما أثبته السلف ، فهو كلام الله مُنزل غير مخلوق، لكن كلام الله هو المعنى القديم القائم في ذاته . يعني أنه معنى، والحُروف والأصوات؟ قالوا: وأما الحُروف والأصوات التي سمعها جبريل عليه السلام وسمعها الأبوان في الجنة، وسمعها موسى عند الشجرة، ويسمعها عيسى ابن مريم عند القيامة، فهي مخلوقة، ليست صفة. **قالت الكُلابية: مخلوقة لتكون حكاية عن كلام الله . وقالت الأشاعرة: مخلوقة لتكون عبارة عن كلام الله، هكذا.** هؤلاء يقولون: حكاية . وهؤلاء يقولون: عبارة . ولا فرق الحقيقة في التعبير يُذكر، فكلهم مُتفقون على أن الحُروف والأصوات المسموعة ليست كلام الله، ولهذا قال بعض مُحققي الأشاعرة: عند التأمل والتحقيق لا فرق بين مقالتنا ومقالة المعتزلة. ما دام أن هذا الكلام المسموع ليس كلام الله فهم في الحقيقة لا يُثبتون كلام الله وإن تظاهروا بأنهم يعدونه من الصفات السبع التي يُثبتونها، فإنكم تعلمون أن الأشاعرة يُثبتون سبع صفات، وكذا الماتريدية وربما تزيد عليهم ثامنة الحياة والسمع والبصر والقدرة والكلام والعلم والإرادة، فيجعلون الكلام من الصفات السبع التي يُثبتونها لكنهم في الواقع ما أثبتوها كما يُثبتها أهل السنة والجماعة.

فهذا مُجمل أقوال الناس في مسألة كلام الله عز وجل، فوجب أن نُ بثت كلام الله تعالى إثباتًا حقيقيًا حُروفه ومعانيه، لا المعاني دون الحُروف ولا الحُروف دون المعاني، وسيأتي لهذا مزيد بسط في كلام الشيخ لاحقًا.

والله أعلم.

الدرس(20)

إثبات الكلام لله تعالى (2)

📖قال المؤلف –رحمه الله–: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ} [التوبة: 6].{وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [البقرة: 75].{يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا} [الفتح: 15].{وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [الكهف: 27].{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ}[النمل: 76].

إثبات أن القرآن مُنَزَّل من الله تعالى:

{وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [الأنعام: 155].{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [الحشر: 21].{وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (101) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (102) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [النحل: 101-103].

تقدم الكلام في الدرس الماضي عن إثبات صفة الكلام لله عز وجل، وأن الكلام صفة ثابتة لله تعالى وأنه سبحانه وتعالى يتكلم بكلام حقيقي لا يُشبه كلام المخلوقين، يتكلم بكلام مُتعلق بمشيئته، فهو قديم النوع حادث الآحاد قد كلَّم الأبوين في الجنة، وكلَّم موسى عليه السلام عند الشجرة، وكلَّم نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم ليلة المِعراج، ويُكلم من شاء من عباده يوم القيامة، فصفة الكلام لله تعالى صفة ثابتة، وذكرنا مذاهب الناس في هذا، وهذه الطائفة من الآيات تتعلق بأمر أخص، وهو ما يتعلق بالقرآن خاصة، إذ القرآن العظيم نوع من كلام الله، فالله تعالى تكلم بكلام فيما مضى وفيما زال، وفيما لم يزل، لأنه لم يزل ولا يزال مُتكلمًا، تكلم بالتور اة، وتكلم بالزبور، وتكلم بالإنجيل، وتكلم بالقرآن، فهذا المبحث مبحث شريف وهو عقيدة أهل السنة والجماعة في القرآن، عند أهل السنة والجماعة: القرآن كلام الله، هذه الجُملة جُملة مُحكمة يعضون عليها بالنواجذ، لأن هذا نص كتاب الله كما سنتلو ا في الآيات، القرآن كلام الله، مُنزل غير مخلوق، منه بدا وإليه يعود، تكلم الله به حقيقة، فأوحاه إلى جبريل عليه السلام فنزل به على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وهو كلام الله حُروفه ومعانيه، لا المعاني دون الحُروف ولا الحُروف دون المعاني، بل مجموع الأمرين، وإضافته إلى الله إضافة صفة إلى المتصف بها، هذا مذهب أهل السنة والجماعة.

أُعيد تقريره: القرآن كلام الله، مُنزل غير مخلوق، منه بد ا وإليه يعود، تكلَّم الله تعالى به حقيقة، فأوحاه إلى جبريل فنزل به على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وهو كلام الله حُروفه ومعانيه، لا الحُروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحُروف، ليس عبارة عن كلام الله، ولا حكاية عن كلام الله، بل هو كلام الله كما قال سبحانه عنه، و انظروا لهذه الأدلة من ناطق الكتاب.

قال: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ} :يعني طلب جوارك وهو المستأمن، **إذ المُشركون أو غير المُسلمين أربعة أصناف:**

الصنف الأول: ذمي.

الصنف الثاني: معاهد.

الصنف الثالث: مُستأمن.

الصنف الرابع: حَربي.

من غير المسلمين لا يخلون من هذه التوصيفات والتصنيفات الأربعة، فمنهم المستأمن.

قال: {وَإِنْ أَحَدٌ}:{أَحَدٌ}: نكرة في سياق الشرط فتدل على العُموم.

قال: {وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ}: إذ استجار بنا مُشرك فالواجب علينا أن نُجيره، وأن نحفظه، وألا نُعرضه لخطر، ولا قتل، ولا أذى، بل نُقيم عليه الحُجة الرسالية، فنطلب قارئً ا ونقول: اقرأ عليه القرآن. فنكون بذلك قد امتثلنا أمر الله تعالى بقوله: {حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ} [التوبة: 6]، فبالله عليكم ماذا نُسمي هذا المسموع الذي قرع سمعه؟ نُسميه: كلام الله، بنص كتابه، هو لا يُمكن أن يسمع كلام الله من الله مُباشرة، لا سبيل أن يسمع كلام الله إلا من فِي القارئ الذي يقرأ عليه، فصدق حقًا أن هذا المسموع هو كلام الله، الصوت صوت القارئ ولكن الكلام كلام البارئ، لأن الكلام إنما يُضاف إلى من قاله مُبتد ئًا لا إلى من قاله مُبلغًا وم ؤديًا لهذا قال أهل السنة والجماعة جزمًا كما قال الله: القرآن كلام الله.

قال: {وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ}: يعني من يهود.

قال: {يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} : قد كانوا يسمعون ما أنزل الله تعالى فيما مضى، وربما سمعوا من نبينا صلى الله عليه وسلم بعض ما أُنزل إليه ثم يُحرفونه تحريفًا معنويًا بالقول بأن المراد كذا، والمراد كذا، وأن رسالتك إلى العرب خاصة دون غيرهم، إذ ن هذا المسموع هو كلام الله، ويصدق عليه أن يُقال عنه : هو كلام الله دون تأويل أو تكلف معان مجازية. فالله تعالى أعلم بما قال وأصدق قيلًا وأحسن حديثًا، وكوننا نقول: هو كلام الله. لا يعني أن الصوت صوت القارئ والأداء أداء بشري يخرج من الشفتين واللسان والحُنجرة، لكن هذا الكلام يُقال عنه: كلام الله . حقيقة، وهذا من معايب يهود أنهم يتجرؤون على كلام الله عز وجل فيُحرفونه، وقد مر بنا أن **التحريف أنواع:**

النوع الأول: تحريف لفظي.

النوع الثاني: تحريف معنوي.

وأن التحريف اللفظي له عدة صور قد يكون بزيادة حرف، أو بزيادة كلمة، أو بتغيير الشكل، مر هذا في الدروس الأولى، ومنه التحريف المعنوي بأن يزعم زاعم بأن المراد كذا وكذا وليس كذا وكذا، فينقل الكلام عنه ظاهره إلى خِلاف ظاهره بلا دليل، فيكون هذا من التأويل بل التحريف في الواقع.

قال: {مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ} : وهذا يدل على أن كلام الله يُتعقل، وليس مجهولات وألفاظ جوفاء كما يدعي المفوضة، إذ ن كلام الله عز وجل قابل للتعقل، والفهم والإدراك كما قال ربنا: {كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ}[ص: 29]، {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: 2]، {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[الزخرف: 3]، فعُروبة القرآن سبب في تعقله وإدراك معانيه.

قال: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ}: من هؤلاء؟ المنافقون الذين خذلوا المؤمنين عن الخروج إلى الحُديبية، وأرادوا أن يفتوا في أعضا دهم، ثم لما جاءت مغانم خيبر وغزو خيبر انتدبوا للخروج

لأنه يُوافق هوى في نُفوسهم ومغانم يُريدون أن يأخذوها، لكن الله تعالى قد حكم فيما مضى وأنزل منعهم من الخروج وصُحبة نبيه صلى الله عليه وسلم، والشاهد قوله: {يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ} [الفتح: 15] يعني المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم، فسمى الله القرآن كلامه، فالقرآن كلام الله بنص كتاب الله.

قال: {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} : **{كِتَابِ رَبِّكَ}** : أي مكتوبه، وهو كلماته، لقوله إثرها: {لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ} [الكهف: 27]، فقد تكفل الله بحفظه، فكتاب ربك قطعًا هو القرآن، لا مُبدل لكلماته دليل على أن كتاب الله هو كلامه، والآية ظاهرة جلية في إفادة هذا المعنى، {كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا}[الكهف: 27]:أي ملجأ ونصيرًا وظهيرًا، فهذه الآية تدل أيضًا على وصف القرآن بأنه كلامه.

قال: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}: ولولا أنه كلام الله لما كان هذا القرآن فاصلًا في الاختلافات السابقة، فإنكم تعلمون أن بني إسرائيل قد وقع بينهم من الخلاف في دينهم الشيء العظيم، أعني بهم اليهود والنصارى، لا اليهود فقط ولا النصارى فقط فكل ملة من هاتين المِلتين تشظت وتفرعت إلى فُروع كثيرة كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم: (افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة)[1]، فهذا التفرق حاصل في الأُمتين قبلنا فوقع بينهم خِلاف عظيم، أُهريقت بسببه الدماء، ووقع بينهم التكفير والحِرمان والحجب وغير ذلك من الاصطلاحات التي يُعبرون بها، ومن ذلك: خِلافهم في الكلمة، أول كلمة في إنجيلهم المتبوعة: في البدء كانت الكلمة . لا يعرفون ما معنى الكلمة؟ يزعمون أن عيسى عليه السلام هو بذاته جُزء من الله وكلمة الله، والمقصود بكونه {وَكَلِمَتُهُ} يعني أنه مخلوق بكلمته لا كما يزعم النصارى أنه هو نفسه عينه كلمة الله فهو جُزء من الله تجسد في جسد بشري في جسد يسوع كما يقولون، فجاء هذا القرآن ليفصل في هذه الأُمور الملتبسة على أهل الكتاب: { لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ} [البينة: 1] هذه هي البينة، القرآن العظيم، يعني ما كان لليهود وما كان للنصارى أن يخرجوا من هذا المأزق الذي تردوا فيه من الخلافات العريضة بينهم إلا بوحي من الله يكون مُقنعًا وحاسمًا لأنه لو جاء واحد من الأحبار أو الرُهبان أو العلماء وقال قولًا لقالوا: هذا قولٌ جديد يُضاف إلى الأقوال السابقة . فلا يُمكن أن يحسم هذه الخُصومات إلا وحي مُنزل من عند الله، تكون له صفة العصمة والقُدسية، لهذا أتى هذا القرآن {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} [النمل: 76]، فهذا وجه استشهاد المصنف بهذه الآية في هذا السياق لكي يدل على أن هذا الكلام المسموع المتلو بالألسنة المكتوب في المصاحف، المسموع بالأذان هو كلام الله.

قال: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ}: ليُفيد معنى آخر وهو أنه مُنزل، وكون القرآن موصوفٌ بالتنزيل في مواضع عديدة من القرآن العظيم ساق المؤلف طرفًا منها أو بعضها، وهو يدل من جهة على صدوره من الله، لأن الله تعالى له العلو المطلق في ذاته، كما له العُلو المطلق في أسمائه وصفاته وقهره ومنعته، فلما كان سبحانه وبحمده له عُلو الذات وهذه

[1] سنن ابن ماجه (3992)، وصححه الألباني.

عقيدة أهل السنة وقد قررناها مبسوطة، صار الصادر منه سبحانه من كلام ينزل نُزولًا لأنه من أعلى إلى أسفل، فالله تعالى له العُلو، والآدميين بالنسبة إلى الرب في السُفل، فلهذا عبر بالتنزيل قال سبحانه وتعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ} [الأنعام: 155] إذ المشار إليه: {وَهَذَا} ما هو؟ القرآن قطعًا.

قال: {كِتَابٌ}: أي مكتوب.

قال: {أَنزَلْنَاهُ}: يعني أُنزل من عند الله عز وجل بألفاظه ومعانيه.

قال: {مُبَارَكٌ}: أي كثير البركة، وبركة القرآن إن تُعد لا تُحصى، مُبارك في تلاوته، وفي حِفظه، وفي معانيه، وفي الحُكم به، وفي الاستشفاء به، وفي كل أمره، فالقرآن العظيم مُبارك لا حصر لبركاته {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ}[الفرقان: 1]، فالبركة مُحتفة به حتى في تنزيله، {وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ} [الأنعام: 92].

قال: {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ}: إذن هو لم يُنزل على جبل، لكن أُنزل على صدر محمد صلى الله عليه وسلم {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ} [الشعراء: 193، 194] لكن {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} {الحشر:21}: الله أكبر، لو أن الله تعالى أنزل كلامه على جبل من الجبال الصلدة الصلبة الجلامد لرأيت هذا الجبل يتهدهد ويُصبح دكًا، لكن الله تعالى أنزله على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وأعطاه القدرة على تحمله، ومع ذلك فقد كان يعترى نبينا صلى الله عليه وسلم من المعان اة أثناء تنزل القرآن الشيء العظيم، فينزل عليه القرآن في اليوم الشديد البرد فيتفصد جبينه عرقًا في اليوم الشديد البرد، وينزل عليه القرآن فيُسمع حول رأسه دويًا كدوي النحل، وإذا اشتد عليه كان كصلصلة الجرس يُبصرها ويُشاهدها من حوله حتى يُسرى عنه، بل ويثقل جسمه صلى الله عليه وسلم حتى إنه نزل عليه مرة وهو على راحلته فأناخت ولم تتمكن من حمله، وكان مُتكئً ا مرة على فخذ زيد بن ثابت –رضي الله عنه– فكاد أن يُرض، قال تعالى: {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل: 5] فالأمر جد عظيم إذا تصور الإنسان كيف ينزل كلام البارئ سبحانه وتعالى على بشر ؟ عظيم جدًا، فهذا الأثر بعد إعانة الله وتقوية نبيه صلى الله عليه وسلم له، ثم يُسرى عنه صلى الله عليه وسلم فيقرأ ما أُوحي إليه، وقد كان بأبي هو وأُمي صلى الله عليه وسلم في مبدأ الأمر إذا أُنزل عليه القرآن يُحرك به لسانه خشية أن يتفلت عليه يُريد صلى الله عليه وسلم أن يتحفظه، فأنزل الله تعالى: {لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ} [القيامة: 16، 17]:قرآنه، قرأه يعني جمعه، {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}[القيامة: 17، 18]: الله أكبر، ماذا بقي؟ الجمع والبيان كُله مُتحقق {إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}[القيامة: 18] فهذا يدلنا على عظمة هذا القرآن وبركته وأثره وشدة الحاجة إليه.

قال: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ}: ماذا يُسمى هذا التبديل؟ نسخ، إذ النسخ معناه في اللغة: الإزالة، كما يقول: نسخته الريح. يعني مسحته وعفت على آثاره، فالنسخ هو الإزالة، أما في الاصطلاح عند الأُصوليين فهو: رفع حُكم نص مُتقدم بحُكم نص مُتأخر ، ولهذا النسخ فقط يتعلق بالأحكام لا يُمكن أن يقع النسخ في الأخبار، لماذا لا يُمكن أن يقع النسخ في الأخبار؟ لأن ذلك يقتضي تكذيب الخبر الأول وحاشا أن يكون كلام الله تعالى يتطرق إليه كذب، وإنما يتعلق

النسخ بالأحكام، فما كان واجبًا يُمكن أن يكون مُستحبًا، وما كان مُحرمًا يُمكن أن يكون مُباحًا، وأمثلة هذا كثيرة جدًا في كتاب الله، فقد يُنسخ القرآن بالقرآن، وقد تُنسخ السنة بالسنة، وقد يُنسخ القرآن بالسنة والعكس، ومبحث هذا أو تفاصيله في كُتب الأُصوليين، لكن هذا قد شوش لدى المشركين واتخذوا منه ذريعة للطعن بالقرآن فنبه الله تعالى على هذا فقال: {وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ}[النحل: 101]: إذن هذا هو الشاهد على التنزيل، أنه مُنزل.

قال: {قَالُواْ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ}: من الفرية، والفرية هي أشد الكذب والبُهتان.

قال: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ}:فدل ذلك على أنه يُمكن أن يقع النسخ وأن الله تعالى ينسخ لحكمة، {مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 106]، فمن أنكر النسخ فقد أكذب الله تعالى وأكذب نبيه صلى الله عليه وسلم، وأكذب القرآن.

قال: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ}:وهو جبريل عليه السلام.

قال:{مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ}: الباء هذه للتلبس، يعني مُتلبسًا بالحق، مصحوبًا بالحق، فلا يتطرق إليه الباطل، كما قال في الآية الأُخرى: {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 42]: بمعنى أنه لا يُمكن أن يلتبس وأن يُخلط بباطل، {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ}[فصلت: 41]: والعزة هي المنعة، {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} [فصلت: 41، 42] لهذا قال ها هنا: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النحل: 102]: إي والله هذه من ثمرات القرآن، القرآن يُورث الثبات في القلب، تجد الإنسان مُرتبكًا خائفًا قلقلًا خائفًا فما هو إلا أن يسمع آية أو بعض آية فكأنما هي أوتاد تُدق في قلبه فيستقر، ثبات، {لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ} [النحل: 102]، ثم فوق ذلك {هُدىً} [النحل: 102]: والهدى قسيم الضلالة، فيُجلي الله تعالى لك الحق بهذا القرآن، فتعرف أن هذا هو الحق وهذا هو الصواب بآية أو ببعض آية.

قال: {وَبُشْرَى}: فوق ذلك ينسم على قلبك من البشارة والأخبار السارة ما يتنعم به واجده.

قال: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} : قد هنا للتأكيد وليست للتقليل، {وَلَقَدْ نَعْلَمُ} [النحل: 103]يعني تحقيقًا لا شك أن الله يعلم.

قال: {أَنَّهُمْ يَقُولُونَ}: أي المشركين.

قال: {إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ} : زعم المشركون أن النبي صلى الله عليه وسلم يتلقى هذه العلوم والأخبار المتعلقة بالأنبياء السابقين وأُممهم من نصراني في مكة، ويُصغي إليه، ثم يُخرجه بلغة عربية، فلهذا نبه الله رسوله صلى الله عليه وسلم على هذه الفرية الباطلة ونقضها، فقال: {وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ} [النحل: 103]، أنَّى لذلك الأعجمي أن يأتي بهذا الكلام العربي المبين ؟ أنَّى له ذلك؟! مُستحيل ولا يُمكن لذلك الشخص المزعوم أن يأتي بهذا الكلام البيِّن الفصيح الحكيم الذي تخضع له الرِقاب، ويذل له فُصحاء العرب وعُقلاؤهم، فهذا أبعد ما يكون، والشاهد أن الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات المتتابعات من سورة النحل بيّن حقيقة

القرآن ومصدره، وأنه مُنزل من عند الله، وأبطل الدعاوى التي تزعم بشريته، وهذه الدعوى لم يزل الزنادقة من المشركين والمستشرقين في الأزمنة الأخيرة والملاحدة يزعمونها، ويزعمون أن محمدً ا صلى الله عليه وسلم كون القرآن من ثقافات يهودية ونصرانية كما يقول هذا جيبِ، ومرجليوس، وجو لد زيهر وغير ذلك من المستشرقين من قبل نحو مائة سنة ويبثونه بين المسلمين، {وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ} [فصلت: 41]، مهما حاولوا فإنهم لا يستطيعون، القرآن يعلو ولا يُعلى عليه، فالقرآن منيع بذاته، مؤثر بذاته، ولهذا ينبغي على طالب العلم أن يُعول عليه في دعوته، وتأثيره، وبيانه فيستعمل الجُملة القُرآنية في خِطابه وفي تأثيره ويستخدم أُسلوب ومنهج القرآن في التأثير، وإلا فالقرآن مكنز للمعاني والمواعظ وقصص الذين اهتدوا واعتنقوا الإسلام بسبب سماعهم للقرآن لآيات منه أكثر من أن تُحصر.

إذن دلت هذه الآيات بمجموعها على ما سبق أن قررناه من أن القرآن كلام الله وأنه مُنزل غير مخلوق، وهذه الجُملة هي الجُملة التي جابه بها أهل السنة المعتزلة حينما زعموا أن القرآن مخلوق، وقد ذكرت لكم مرارًا أن دعوى المعتزلة أن القرآن مخلوق جزء من منظومة عقائدية باطلة، وهي منظومة الجهمية الذين يُريدون القول بإنكار الصفات، فقالوا: القرآن مخلوق. ليصلوا إلى ماذا؟ إلى أنه ليس صفته، لأن الصفة لا يُمكن أن تكون مخلوقة، وأن إضافته إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، كبيت الله ، وناقة الله، وعبد الله وما أشبه، ثم يتوصل من ورا ها إلى الزعم بأن الله لا تقوم به صفة ثُبوتية ، ولكن السلف عندهم من العلم الحِذق والفطنة ما يتبينون به هذه المحاولات البدعية، فلذلك قاموا في وجههم، ومن أعظم من قام في هذا لله قومة صادقة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل – رحمه الله–، فإنه أبى في فترة عصيبة حرجة ألمت بالأُمة، حيث ساندهم السلطان، ووقف المأمون والمعتصم والواثق مع المعتزلة في دعواهم هذه، فأبى إمام أهل السنة– ووقفت الأُمة من خلفه– أن يقولوا بمقالتهم، وقال: يا أمير المؤمنين: اِتوني بشيء من كتاب الله أو سنة رسول الله . فينقطعون بين يديه، وهو يصب عليهم الأدلة صبًا من الكتاب والسنة على وصف القرآن بأنه كلام الله وأنه مُنزل، وهم لا يأتون إلا بمُجرد الشُبهات والكلام الذي يُزخرفونه، فينقطعون بين يديه ، حتى ثبت الله تعالى به السنة، قال الإمام على بن المديني –رحمه الله–: إن الله نصر هذا الدين بأبي بكر عام الردة، وبأحمد عام المحنة. وصدق –رحمه الله– فقد كان هذا الحديث عصمة للأُمة منعها من أن تنجرف في الاتجاه المقابل، وثبت الله جنان الإمام أحمد على هذا الحق حتى فاء الناس إليه.

ما معنى قول السلف: منه بدا وإليه يعود.وسيأتي لاحقًا في بسط الشيخ، منه بدا: أي ظهر، فمن تكلم به ابتداءً هو الله عز وجل، ومعنى قولنا: وإليه يعود. إما وإليه يُنسب كما تقول: هذا الكتاب يعود إلى فلان. وإما وإليه يعود ما ورد في بعض الآثار من أنه في آخر الزمان يُرفع من السُطور ومن الصدور، فلا يبقى على وجه الأرض قُرآن يُتلى.

هذه الطائفة من الآيات قررت خُصوصية أن القرآن كلام الله وهي فرع عما تقدم من إثبات كلام الله عز وجل.

الدرس(21)

إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَقَوْلُهُ: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}[القيامة: 22، 23] . {عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} [المطففين: 24]. {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: 26]. {لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}[ق: 35].

ما شاء الله، هذا مبحث شريف حبيب إلى النُفوس، لذيذ على القلوب وهو مبحث الرؤية، فمُعتقد أهل السنة والجماعة: أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة عيانًا بأبصارهم، بأعينهم، يرونه في موضعين:

الموضع الأول: عرصات القيامة. أي مواقف الحساب.

الموضع الثاني: الجنة.

رؤية حقيقية، وقد دل على ذلك الكتاب، والسنة، والإجماع : فأما الكتاب فهذه الآيات، وأما السنة فستأتينا أدلتها، وانعقد إجماع أهل السنة والجماعة على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، ولم يُنازع في ذلك إلا المعتزلة ومن وافقهم من الإباضية والزيدية والرافضة، فقد أنكروا الرؤية، أما أهل السنة والجماعة فقد أثبتوا الرؤية يوم القيامة ولم يُثبتوها في الدنيا وغلت الصوفية وبعض الخُرافية فزعموا أنهم يرون الله تعالى في الدنيا، فهذا غُلو يُقابل ذاك الغُلو، وأما أهل السنة والجماعة فقد اعتصموا بما دلت عليه النصوص فكانوا وسطًا بين طرفين وعدلًا بين عِوجين.

قال: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} :ما الفرق بين الأولى والثانية؟ الأولى من النضرة، وهي البهاء والرونق والجمال، فتلك الوُجوه وجُوه تتسم بالرونق وبالبهاء والجمال. و{إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 23]: من النظر وهو المعاينة بالأبصار، فأكسبها النظر إلى وجه الله الكريم هذا الجمال وهذا البهاء وهذا الرونق، ولهذا قال ابن القيم في ميميته:

فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة أمن بعدها يسلو المحب المتيمُ
ولكننا سبي العدو فهل تُرى نُرد إلى أوطاننا ونُسلم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى وشطت به أوطانه فهو مُغرم
وأي اغتراب فوق غُربتنا التي لها أضحت الأعداء فينا تحك م
فحي على جنات عدن فإنها منزلك الأولى وفيها المخيم

إلى آخر ما قال –رحمه الله–، واعلموا أن كلمة: نظر، لها استعمالات عِدة، فإذا جاءت مُعدا ة بفي فهي تدل على التدبر والاستبصار، وإذا جاءت مُعداة بإلى فهي تدل على المعاينة بالأبصار، فإذا قلت: نظرت في الأمر. يعني تأملته وفكرت فيه، وإذا قلت: نظرت إلى الشيء. فهذه لا تحتمل إلا المعاينة بالأبصار، وإذا جاءت مُطلقة فهي بمعنى التربص والانتظار، نظر، فنظر، يعني أنه انتظر، **فصارت . كلمة نظر . لها استعمالات ثلاث:**

الاستعمال الأول: إذا جاءت مُطلقة فإنها تدل على التربص والانتظار.

الاستعمال الثاني: إذا جاءت مُعداة بفي فإنها تدل على التدبر والاعتبار.

الاستعمال الثالث: وإذا جاءت مُعداة بإلى فإنها تدل على المعاينة بالأبصار.

هذه استعمالاتها في اللغة، وارجع إلى مفردات اللغة للراغب الأصفهاني وغيره من أهل اللغة تجد هذا، إذن إذا قال الله:{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: 22، 23]: فهذا يدل على إثبات رؤية حقيقة لله عز وجل، وكما أسلفت فإن المؤمنين يرون ربهم في موضعين: في عرصات يوم القيامة كما دل عليه حديث أبي سعيد و أبي هُريرة – رضي الله عنهما– المشهوران في الصحيح، ويرونه يوم القيامة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ، لاَ تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ)[1]، وسيأتي إن شاء الله.

قال: {عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}: من؟ {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ}[المطففين: 22، 23]، كيف دلت هذه الآية على إثبات النظر إلى وجه الله عز وجل ؟ هذه مما استنبطه الإمام الشافعي وغيره من أئمة السنة قال: لما حُجب أُولئك في السخط نظر هؤلاء في الرضا، ألم تروا أن الله قد قال في أول سورة المطففين: {كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ} [المطففين: 15]، من هم؟ الفُجار، فلما ذكر الأبرار قال: {عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ} [المطففين: 23]، فلما حُجب أُولئك في السخط نظر هؤلاء في الرضا، فكانت هذه من أدلة أهل السنة على إثبات النظر إلى وجه الله الكريم.

قال: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ}: أما الحُسنى فهي الجنة، جعلنا الله وإياكم من أهلها، وهي فُعلى لأنها قد بلغت في الحُسن غايته.

قال: {وَزِيَادَةٌ}: النبي صلى الله عليه وسلم فسر الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله الكريم.

قال: {لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}: أيضًا ورد في الآثار تفسير المزيد بأنه النظر إلى وجه الله الكريم.

فدلت هذه الطائفة من الآيات على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة عِيانًا بأبصارهم بناطق الكتاب، وختم بها الشيخ –رحمه الله– ما أراد من سياق الآيات القُرآنية على إثبات الصفات الربانية، فلهذا قال إثرها:

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرٌ ، وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ.**

قال: وَهَذَا الْبَابُ: الباب المشار إليه هو ما تقدم من إثبات الصفات الربانية من الآيات القُرآنية.

قال: وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرٌ :وصدق –رحمه الله–، فإن من قرأ القرآن وجد أنه لا يكاد تمر آية إلا وقد تضمنت اسمًا أو صفة من صفات الله عز وجل.

قال: فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرٌ : وكأنما يقول: إنه لم يُرد –رحمه الله– الحصر والاستيعاب، وإنما أراد به التمثيل على رؤوس بعض المسائل، وإثبات بعض الصفات كما تقدم معنا من إثبات صفات معنوية، وإثبات صفات فعلية، وإثبات صفات خبرية. كل ذلك قد تقدم وأقام عليه الأدلة.

---

[1] صحيح البخاري (554)، صحيح مسلم (633).

قال: وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَثِيرٌ ، وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّإذن لا بد من أمرين: متى يُهدى الإنسان إلى الحق؟ **يكون ذلك بتوفر شرطين:**

الشرط الأول: البحث، والعزيمة، وبذل الجهد . وهذا نأخذه من قوله: ومن تدبر . أما الذي يمر مرُورًا سريعًا ولا يُكلف نفسه عناءً قد لا يُوفق لإصابة الحق.

الشرط الثاني: النية الصالحة. لقوله: طالبًا للهُدى. فإذا أقبل الإنسان مُستهديًا مُسترشدًا فلا بد بعون الله وإذنه أن يُهدى إلى الحق، أما الذي يأخذ القرآن ليبحث عما يُعجبه وما يؤيد قوله ويتبع المتشابه ويُعرض عن المحكم فلا، لن يهتدي بالقرآن، فلهذا إذا أردت أن تنتفع بالقرآن العظيم فتكيف تكيفًا نفسيًا بين يدي القرآن بأن تشعر بأن هذا كلام عظيم، هذا كلام رب العالمين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن الحق مكنوز فيه، وأنه فيه الهُدى لمن أراد أن يستهدي، فإذا أقبلت بهذه الرُوح فإنك تُهدى بإذن الله، وقد يقع عند الإنسان مثلًا شيء من الخطأ والوهم ، فعليه أن يرجع إلى كلام العُلماء، ويرد إلى الله ورسوله في فهم ما أشكل عليه، وغالب القُرآن بحمد الله بالمتناول كما قال ربنا عز وجل: {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ} [آل عمران: 7]، يعني واضحات الدلالة، {هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ} [آل عمران: 7]، أكثر القرآن هكذا يُدرك معناه بمُجرد السماع، ولهذا خاطب النبي صلى الله عليه وسلم به العرب، وفيهم الأعراب، وفيهم السُذج، وفيهم العامة وغير ذلك، وأدركوا على درجات مُتفاوتة، فيهم الراسخون في العلم ومنهم دون ذلك، القصد أنه ليس مُغلقًا ولا غامضًا كما يرى الإنسان في بعض الكُتب الفلسفية أو فيما في أيدي أهل الكتاب، فبحمد الله تعالى من تدبر القرآن طالبًا للهُدى منه تبين له طريق الحق، ولهذا أدعوكم معشر طلبة العلم أن يكون مُعولكم على القرآن العظيم، ليس تحصيل العلم بكثرة اقتناء الكُتب وسماع اختلاف الرجال، وإن كان هذا يقع تبعًا، لكن العلم يُطلب من منبعه، لا تأخذوا من الروافد والسواقي بل خذ وتزود من العين والأصل، خذ من المنبع الصافي الذي لا تُكدره الدلاء كما أخذ من سبقك، فأقبل على القرآن بُكليتك، فالبناء العلمي لطالب العلم ينبغي أن يبتد ئ من العناية بالقرآن العظيم بفهم كلام الله ومعرفة مُراده وتدبره والصُدور عن رؤية واضحة، هذا في الواقع هو طريق الراسخين في العلم، وبعض طلبة العلم يُخيل إليه أن العلم هو أن يخوض في اختلاف الرجال والمذاهب والأقوال. لا، هذه تأتي مرحلة مُتأخرة عند الحاجة إليها وإلا فلسنا مُتعبدين باستعراض أقوال الرجال واختلافاتهم، نحن مُتعبدون بأن نصدر في فهمنا عن كلام الله سبحانه وتعالى، ألم تروا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين هُم أعمق الناس علمًا وأقلهم تكلفًا وأصدقهم لهجة لم يكن بين أيديهم إلا القرآن العظيم وسنة سيد المرسلين ؟ هل تعلمون أن أحدً ا من الصحابة عنده مكتبة ملأ ى بالمجلدات أو عنده أقراص ليزر مُحمل عليها شيء من الكُتب؟ لا، ما عندهم إلا هذا العلم العميق الراسخ الذي صدروا به من الكتاب والسنة، لا أقول هذا تقليلًا من النظر في كلام أهل العلم، لكن يجب أن تُرتب الأُمور حسب أولويتها وأن تصدر في علمك وأن تبني لبناته لبنة لبنة من مصدره، وأصله ومادته الأولى، حينئذٍ يكون بناؤك العلمي مُحكمًا، وتنتفع بعد ذلك بأن تعرض كل شيء من أقوال الرجال على كتاب الله، فيتبين لك الحق من الباطل.

📖**قال المؤلف –رحمه الله–: ثُمَّ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ.**

قال: ثُمَّ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هذا العطف على جُملة سابقة، وإن كان بينها وبينه أمدًا بعيدًا وهو **قوله: وقد دخل في هذه الجُملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص** . ثم أعقبها بعدة نصوص قُرآنية، ثم قال بعد ذلك: ثم في سنة رسول الله. يعني دخل في هذه الجُملة من إثبات الربانية ما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال: سُنَّةِ: السنة: لغة: الطريقة، سن سنة، أي اختط طريقة وسيرة مُعينة.

اصطلاحًا: ما أُضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خِلقية أو خُلقية. يعني ما أُضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الأشياء فإنه يُعد سُنة، والسنة لها تعريف عند المحدثين، ولها تعريف عند الأُصوليين، ولها تعريف عند الفقهاء، وليس المراد ها هنا تعريفها عند الفقهاء التي هي بمعنى: ما يُثاب فاعله ولا يُعاقب تاركه، لا، وإنما المقصود بالسنة هنا: ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال وتقريرات، لهذا قال مُبينًا منزلة السنة بالنسبة للقرآن: فالسنة تُفسر القرآن.

قال:تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ،وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ : لقول الله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: 44]، فمهمة نبينا صلى الله عليه وسلم في بيانه أو في كلامه أن يُبين للناس ما نُزل إليهم من ربهم، هذه هي السنة، الآثار المروية الشفهية عنه صلى الله عليه وسلم هي السنة التي تُفسر القرآن، وما معنى تُفسر؟ تُبين وتُوضح، كما يقول: فسرت عن ساعدي. يعني كشفته وأوضحته، فالسنة تُفسر القرآن وتُبينه وتدل عليه، وتُعبر عنه، وهي كلمات معانيها قريبة بعضها من بعض، بمعنى: أنه لا يُمكن الاستغناء عن السنة، بل السنة مصدر أصيل كما القرآن، {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم:3، 4]، فالسنة هي أحد الوحيين، وحينما نقول: المصدر الثاني. فلا نقصد بقولنا: الثاني. أنها في الدرجة الثانية في الأهمية، لا، وإنما فقط على سبيل التعداد الرقمي، وإلا فكلٌ من عند الله، فلا يخرج من بين فكي النبي صلى الله عليه وسلم إلا حق ، وذلك لأن الله عصمه، ولو قُدر أنه أخطأ، سها بحُكم بشريته فإن الله تعالى لا يُقره على ذلك بل يُنبهه عليه، وهذا هو المعنى الحقيقي للعصمة، فالمقصود أن سنة نبينا صلى الله عليه وسلم بإزاء القرآن تُفسره وتُبينه وتُعبر عنه وتدل عليه، ولا يُمكن الاستغناء عنها، ولما قال رجل مرة في مجلس عِمران بن حُصين – رضي الله عنه– وكان يُحدث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: دعونا من الأحاديث وأعطونا من القرآن. فالتفت إليه عِمران –رضي الله عنه– وقال له: أين تجد في كتاب الله أن صلاة الظهر أربع، والعصر أربع، والمغرب ثلاث، والعشاء أربع، والفجر اثنتين؟. فسكت الرجل. قال: أين تجد في كتاب الله أن في خمس من الإبل شاة ، وفي عشر شاتان، وفي كذا كذا وكذا. وذكر له الأنصبة؟ فسكت. قال: أين تجد في كتاب الله أن الطواف بالبيت سبعة أشواط ؟ والسعي بين الصفا والمروة كذا؟ . وأخذ يُدلي عليه أُمورًا. فأُسقط في يده، وعلم بأن مُقتضى الإيمان بالقرآن الإيمان بالسنة، ألم يقل الله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا} [الحشر: 7]؟ ألم يقل الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ

فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ} [الأحزاب: 21]؟ فإذا رأيت الإنسان يُهون من السنة ويقول: دعونا من السنة فيها أحاديث ضعيفة وموضوعة فاعلم أن هذه شُعبة زندقة، وقد وُجد طائفة من الزنادقة يُسمون أنفسهم: القُرآنيون. موجودون في بلاد الهند وفي بلاد أُخرى ، يُسمون أنفسهم: القُرآنيون. زعموا أنهم فقط يعتمدون على القرآن ولا يلتفتون للسنة، ولا ريب أن الاحتجاج بالسنة ثابت بالأدلة الصريحة حتى ألف الإمام السيوطي –رحمه الله– كتابًسماه: ظلال الجنة في الاحتجاج بالسنة. فمن أنكر السنة فقد كفر قطعًا لأنه أنكر الشق الثاني من الشهادة، ما معنى شهادة أن محمدًا رسول الله؟ تصديقه فيما أخبر ، وطاعته فيما أمر ، واجتناب ما عنه نهى وزجر ، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع، وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أَلاَ إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ، يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ)[1] وفي لفظ أنه قال: [ألا وإني أُوتيت الكتاب ومثليه معه]، فكل هذا يدل على أن سنة نبينا صلى الله عليه وسلم أصل أصيل مُستقل، لهذا قال:

📖قال المؤلف –رحمه الله–: وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ، مِنَ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

فما ثبت من الأحاديث وجب القول به وقبوله، ولا يجوز رده بشكل من الأشكال، فمن رده فقد ضل ض لالًا مُبينًا، لكنه اشترط –رحمه الله– أن يكون ذلك من الأحاديث الصحاح، ما هو الحديث الصحيح؟ الحديث الصحيح عند أهل المصطلح: هو ما رواه عدل تام الضبط بسند مُتصل وسلم من الشُذوذ والعِلة القادحة، هكذا، فإذا انطبق هذا المِعيار على المأثور فإننا نُصدقه إن كان خبرًا، ونمتثله إن كان أمرًا، ونجتنبه إن كان نهيًا.

عدل: لا بد أن يكون الراوي عدلًا، من العدل؟ العدل هو المستقيم في دينه ومُروءته، فلا يُثلم في دينه بفسق، ولا في مروءته بخوارم المروءة.

تام الضبط: لا بد أن يكون ضابطًا لما يتحمل وما يؤدي.

بسند مُتصل: لا يكون فيه انقطاع.

سلم من الشذوذ : والشذوذ: مخالفة الثقة لبقية الثقات ،أما مخالفة الضعيف للثقات تُسمى عند أهل الحديث: مُنكر، لكن لو خالف الثقة بقية الثقات لعلمنا أنه وقع عنده وهم بشري فيُسمى شاذًا.

والعلة القادحة: وهي عيب خفي لا يطلع عليه إلا جهابذة الحديث لعلمهم بالاتصال والانقطاع وغير ذلك، فإذا توفرت شروط الحديث الصحيح في نص ما وجب قبوله والإيمان به كذلك سواءً كان في صفات الله تبارك وتعالى أو كان في غير ذلك.

والله أعلم.

[1] سنن أبي داود (4604)، صححه الألباني.